دكتور
عبد الغفار عزيز

الدعوة الإسلامية
بين التنظيم الحكومي والتشريع الديني

الجزء الثاني
عصر الخلفاء الراشدين

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .

وبعد :

فقد أثبتنا فى الجزء الأول والخاص بعصر الرسول (ﷺ) أن التفريق فى الإسلام بين ما يمكن أن يسمى دينا فقط أو سياسة فقط عملية صعبة وغير ممكنة ، والفصل بينهما كالفصل بين الروح والجسد ، وإذا تم الفصل بين الروح والجسد فلا حياة . لأن الدين والحكومة وجدا معا ، ولكن الدين هو الأصل . فهو الذى يوجد الحكومة ، والحكومة لا توجد الدين ، فهى توجد عن الدين : فالحكومة والدين بمثابة الكتابة والنطق فى الإنسان . فلا يوجد نطق إلا استلزم وجود الكتابة فعلا أو قوة ، ولا توجد الكتابة إلا على النطق ، فكل إنسان ناطق وكاتب ، ولكن النطق قوام الإنسانية ، فلو فقد الإنسان خاصة الكتابة لما خرج عن أن يكون إنسانا ، أما لو فقد النطق لانتفت عنه الإنسانية . (1)) .

ولذلك قلنا إن الأديان عموما قد جمعت بين الدين والدنيا حيث تكفل الله تبارك وتعالى بالإنسان ككل روحه وجسده (2) .

وقد بينا كيف أن سياسة الدولة نفسها هى تنفيذ الدين . ويجب أن

---

(1) الأزاهير المضمومة ص ٢٥١ .

(2) راجع مقدمة الجزء الأول .

تكون مبنية عليه . لأن الغاية من إقامة حكومات الدول هو تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم . ومقصودها إقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم على بعض ، وغاية الدين الإسلامى ومقصوده والذى يظهر من أحكامه وحكمه وآياته هى نفس غاية ومقصود الحكومات فى الدول . يظهر هذا من حكم التشريع التى نص عليها مع الأحكام فى مثل قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة[1]) . وقوله سبحانه : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون[2]) .

كما بينا أن العبادات نفسها قرن التكاليف بها بما يدل على أن المقصود منها إصلاح حال الناس ، كما قال تعالى فى حكمة الصلاة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[3] . وفى الصيام . (لعلكم تتقون[4]) وفى الزكاة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[5] ، وفى الحج (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام[6] .

كذلك (الحال بالنسبة لكل ما يتعلق بالنظام العام للدولة الإسلامية . ولهذا قلنا إنه لا يمكن تصور دولة إسلامية بلا دين . كما لا يمكن تصور الدين الإسلامى فارغا من توجيه المجتمع وسياسة الدولة . لأنه فى هذه الحالة لا يكون أسلاما بالمعنى الصحيح . ولذلك كان من الصعب التفريق فى الإسلام بين ما يمكن أن يسمى دينا فقط أو سياسة فقط .

---

(١) سورة البقرة ١٧٩
(٢) سورة المائدة ٩١
(٣) سورة العنكبوت ٤٥
(٤) سورة البقرة ١٨٣
(٥) سورة التوبة ١٠٣
(٦) سورة الحج ٢٨

ولقد بينا فى الجزء الأول كيف كانت تسير سياسة الرسول الادارية جنبا إلى جنب مع سياسته فى تبليغ الدعوة . بل كان لهذه السياسة الأخيرة أثرها الواضح فى توطيد سلطان الدولة . وقد اعتمدت السياسة الادارية دائما وفى كل جوانبها على هذه الدعوة وجعلتها الهدف والغاية التى تسعى من أجلها بل عرف الرسول والمسلمون أن هذه الدولة بغير عقيدة لن تستمر أو تدوم ولذلك ، ظل الرسول صلى الله عليه وسلم وكان هذا جزءا من التنظيم الادارى للدولة نفسها ، زيادة على كونه أساسا من أسس الدعـــوة التى أمر بتبليغها للعالمين ، يعد الفقهاء والمعلمين بنفسه ومع المخلصين المدربين من أصحابه لمواجهة الحاجات المتزايدة لجماعة المسلمين ويدقق فى اختيار الدعاة ، ويرسل الوفود من هؤلاء الدعاة إلى المناطق البعيدة لتعليمهم الدين والتبشير به بينهم باعتبار أن ذلك فريضة من الفرائض وجزءاً أيضاً من رسالة هذه الدولة التى أسسها لتستمر وتدوم .

وفى هذا الجزء نتحدث : عن الدولة الاسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين وكيف سارت بعد وفاة المؤسس الاول لهـا صلوات الله وسلامه عليه ، على نفس الأسس والقواعد التى وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم . وكيف كان التطبيق العملى لنظام الحكم الاسلامى بعد غياب مؤسسه . وكيف أنه لم يحدد نظاما معينا للحكم ، وإنما ترك للناس حرية إختيار النظام الملائم لطبيعتهم وبيئتهم وزمانهم ، خصوصا وأن الدعوة الأسلامية دعوة عالمية صالحة لكل زمان ومكان . وقـــد أثبت أن اختيار المسلمين للخليفة الأولى أبى بكر كان تطبيقا للقاعدة التى قعدها الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث فرض الاسلام نظام الشورى وهى أصل من أصول الحكم السليم ، ودعامة من دعائم تقرير العدالة بين الناس ، وكيف أن ذلك كان ضروريا فى الحكومة الإسلامية لأنها كانت حكومة دستورية ، الأمر فيها ليس خاصا بفرد وإنمـا هو للامة كلها ممثلة

فى أولى الحل والعقد، وأن هذا الاختيار المبنى على الشورى كان عهدا بين الخليفة ورعيته وتنفيذا لوجوب وضرورة تنصيب حاكم للأمة يرعى شئونها الدينية والدنيوية .

وقد أثبت أن ماوقع بين الصحابة من خلاف بسبب الخلافة لم يكن طمعا فى الدنيا ولاحبا فى السلطان. ولكن حبا للدين، ورغبة منهم فى النصح للإسلام والمسلمين

كما أثبت استمرار التشريع للدولة فى عصر الراشدين . وأن أعمال الخلفاء كانت تشريعا يطالب المسلمون بتنفيذه، على اعتبار أن عملهم كان سنة يجب اتباعها . حيث أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك حين قال (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى) .

كما أن الحوادث التى حدثت فى عصر الراشدين كانت تدريبا وتعليما للناس وقد بينت كيف أن الردة كانت امتحانا لمعرفة مدى إيمان وإخلاص المسلمين للدعوة واستمساكهم بالدولة، وأن هذه الردة لم تكن سوى حركة انفصالية . شبيهة بما يسمى فى مفهوم العصر الحديث (بالحركة الرجعية) التى تظهر عقب كل انقلاب سياسى يحدث فى بعض البلدان . وقد ثبت أن الاسلام استفاد من هذه الحركة استفادة كبيرة ولم يخسر شيئا بسببها .

وقد ظهر فى هذا العصر أنظمة إدارية جديدة لم تكن فى عهد الرسول . لتتفق مع حجم وتطور الدولة الإسلامية بعد وفاة النبى ﷺ ، وكان السبب فى ظهور هذه النظم فى عصر الراشدين بالذات ، لتكون هذه النظم سنة لمن بعدهم على أساس أن عصرهم عصر امتداد للتشريع وعصر التطبيق العملى لنظام الحكم الإسلامى .

وقد أوضحت أن الغاية والقصد من قيام هذا النظام تحقيق المصلحة العامة على أساس الالتزام بالتشريعة، وأن هذا النظام قام على أصول عامة قابلة لكل نظام يحقق هذه المصلحة مع ضرورة الإلتزام بالشريعة .

وعنـــد المقارنة بين النظام الإسلامى وغيره من النظم السياسية القديمة والحديثة . ثبت أن النظام الإسلامى نظام فريد ليس له شبيه بنظم الحكم المعروفة .

والدولة الإسلامية لها مقومات أساسية كانت تعتمد عليها ، وأول أركان هذا النظام هو الدستور . الذى هو الأصل الأول للقوانين والتشريعات التى تعتمد عليها هذه الدولة وتسير على أساسها . لذلك تحدثت عن القرآن الكريم باعتباره الدستور الذى تعتمد عليه الدولة وتجعله الأساس الأول لقوانينها وتشريعاتها، والذى اشتمل على العقائد الصحيحة والآداب العامة، وكل ما هو كفيل بسعادة البشر فى الدنيا والآخرة وخلصت إلى أنه يعتبر الأصل للتشريع الفسيح الذى يتسع للناس جميعاً مهما اختلفت لغاتهم وتباينت عاداتهم . ولذلك كان اهتمام الخلفاء بهذا الدستور يفوق كل حد . فحافظوا عليه، وحين خافوا على ضياعه جمعوه واهتموا بحفظه وتحفيظه وتفسيره لفهم بعض أسراره .

وكان من هذه المقومات للدولة الإسلامية الجهاد الذى شرع فى الإسلام لإقرار السلام، والذى كان محددا بضرورة أن يكون دفعاً لعدوان أو تمكينا لدعاة الاسلام فى أداء رسالتهم نحو تبليغ الدعوة ، وأن الإسلام كان يرفض العدوان ولا يجيز الحرب، وقد أثبتنا أن الاسلام كان يفرض على المسلمين قبول السلام بمجرد عرضه عليهم (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله).[1]

كما أثبت أن جهاد الرسول والخلفاء من بعده كان كله جهاد دفاع ولم يكن هجوميا إلا على سبيل المبادرة بالحرب قبل الهجوم المؤكد ، وقد أثبتنا

ذلك بآيات من القرآن وبحوادث تاريخية ثابتة ، كما أثبتنا أن السياسة الخارجية للدولة الاسلامية والأساس الذى تقوم عليه العلاقة بينها وبين غيرها من الدول هو السلم ما لم يطرأ ما يوجب الحرب . وقد تحدثت عن العلاقة بين الجهاد وانتشار الدعوة ، واثبت أن انتشار الاسلام كانت أهم فتراته فترات السلم وليس الحرب ، وأن انتشار الاسلام فى السلم كان أكثر من انتشاره فى الحرب ، وقد ثبت أن هذا الانتشار الواسع كان بسبب مبادئه ، وقد أثبتنا عكس ما ردده بعض المستشرقين من أن الفتوحات فى عهد الراشدين كان بسبب الطمع فى خيرات البلاد المفتوحة ، بل أثبتنا أن معاملة الفاتحين الطيبة لأبناء هذه البلاد المفتوحة كانت سببا فى انتشار الاسلام السريع فى هذه المناطق وحمل الكثيرين من أبناء هذه البلاد لمسئولية الدعوة إلى الله عن طريق الجهاد بالقلم أو اللسان أو الحرب .

وكان جهاد المسلمين بنظامه الاسلامى وشروطه والأساليب التى اتبعها المسلمون فى حربهم . كعدم إجهازهم على الجريح ، أو قتلهم للمرأة والشيخ الكبير والأطفال وغير المحاربين عموما ، ما لم يكن من أصحاب الرأى فيه وعدم التمثيل بالقتلى أو الأسرى ، وابقائهم على منازل أعدائهم وعدم هدمها أو احراقها أو قطع أشجارهم ، وغير هذا من أمور التسامح التى فرضها الاسلام عليهم وطبقوها عمليا فى حروبهم . ووفائهم بما عاهدوا محاربيهم عليه ، وعدم إذلالهم أو مطالبتهم بما يرهقهم أو تسخيرهم ، أو غير هذا مما كان سائدا فى حروب غير المسلمين .

كل هذه الامور مع إطلاق الحرية للمهزومين فى بقائهم على دينهم أو اعتناقهم الإسلام ، كان سببا من أسباب إيمانهم بسماحة هذا الدين وعدالة نظامه ، الأمر الذى جعل الناس يقبلون عليه باقتناع كامل ويعتنقونه عن رغبة فيه لا رهبة منه .

حتى رأينا أعظم ملوك العالم وجبابرتها (هرقــل) قيصر الروم والامبراطور العظيم الذى كان يملك نصف العالم فى ذلك الزمان يجمع مستشاريه وكبار رجال دولته، ويعرض عليهم أن يعلنوا إسلامهم أو يعطوا الجزية لمحمد ﷺ خصوصا بعد أن عرف من أسلوب كتاب النبى له أنه ليس من طلاب الملك، وأنه من الداعين للحق والعدل، مع أنه كان وقت تسلمه الخطاب عائدا من انتصار حاسم على كسرى عظيم الفرس، حتى ظن بعض المؤرخين أن قيصر قد أسلم.

وقد تحدثت عن القضاء فى الدولة الاسلامية باعتباره أحد هــذه المقومات الأساسية التى تعتمد عليها الدولة، لأثبت أن القضاء كان مستقلا أساسه العدل والمساواة المطلقة، وكانت أحكامه تنفذ على أساس هذه المساواة المطلقة والالتزام بالقانون، وكيف اهتم الخلفاء بتنظيم القضاء فى الدولة الاسلامية واختيار القاضى ممن عرف بنزاهته واشتهر بالتدين، وعرف بالتزامه بالتشريع على أساس النص إن وجد، أو الدليل الذى يطمئن إليه القلب ويهدى إلى العدل والحق. إن لم يوجد نص، متحرين بذلك المصلحة للأمة باذلين أقصى الجهد لتحقيقها، كقياس النظائر على أشباهها، مومنين بأن الله ما شرع الشرائع إلا لمصلحة عباده، وكانوا كما قلنا يشترط فيهم شروط معينة تبعدهم عن أى شبهة أو اتهام.

ومن بين المقومات للدولة الاسلامية الموارد المالية التى تحدثت عنها بايجاز، وقد فصلت موردا من هذه الموارد وهى الجزية لأرد على دعوى القائلين بأن الجزية إنما هى ضغط مادى لإجبار أهل الذمة على اعتناق الاسلام، ولأرد أيضا على القائلين بأن الجزية إقرار من الإسلام بالعقيدة التى يعتنقها الذميون وقد أثبت أنها لم تكن سوى ضريبة عادية يدفعها أهل الذمة مقابل إعفائهم

من الجندية وتمتعهم بخيرات الدولة، وقد أثبت أنهم كانوا يعفون من هذه الجزية حينما يشاركون فى الحروب مع المسلمين، أو يقدمون خدمات للدولة الاسلامية . بل كانوا يعطون من الغنائم حينما يشتركون فى الحرب .

ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين عليها فقط من الرجال، ويعفى منها النساء والأطفال وكبار السن والعجزة والعميان والرهبان الذين لا يشاركون فى حرب المسلمين . بل تكفلت الدولة بالمحتاجين منهم .

وقد اثبت أن تبعات المسلم المادية والشخصية تجاه الدولة كانت أكبر من تبعات الذمى فى كثير من الأحوال، الأمر الذى كان له أثره فى اعتناق هؤلاء للإسلام بلا ضغط ولا اكراه بعد مخالطة المسلمين وانضاح حقيقة الإسلام أمامهم .

وقد أثبت أن الجزية بنظامها الاسلامى الرحيم كانت أسلوبا من أساليب الدعوة المبنية على التسامح وعدم الاكراه .

كذلك كان من بين المقومات الأساسية لدولة الاسلام هذه الوظيفة التى باشرها النبى بنفسه ونظمها عمر بن الخطاب ، وكانت جزءا من نظام الحكم الاسلامى ربل كنآ من أركانه ، هذه الوظيفة هى وظيفة المحتسب التى نظمت فى عهد عمر بسبب اتساع حدود الدولة الإسلامية وترامى أطرافها، والتى تميز النظام الإسلامى عن غيره من الأنظمة العالمية بوجود هذه الوظيفة فيه ، وكان نظام الحسبة بدقته وكفاءته تحررا من الروتين الذى تشكو منه الدول الحديثة .

ويعتبر المحتسب بما أعطى من سلطات ، المنفذ للقانون الاسلامى المحافظ عليه ولا سيما الجانب الدينى والأخلاقى منه .

وكانت هذه هى الدولة الاسلامية التى أسسها محمد ﷺ وخلفاؤه الراشدون من بعده ، والتى كانت كما قلنا دولة كاملة بكل مقوماتها وكانت أيضاً ضرورة من الضرورات وجزءا من رسالة محمد ﷺ عمل على تأسيسها من أول يوم لتكون قوة تحمى الدعوة وتحتمى فيها وتعمل على نشرها وانتشارها .

والله أسأل أن يوفقنا لفهم الاسلام ونظامه وتطبيق شرعه والعمل بمقتضاه وهو الموفق والمعين .

د / عبد الغفار عزيز

القاهرة فى ١٥/١٠/١٩٨٤

التطبيق العملى لنظام الحكم
الإسلامى بعد غياب الرسول

كان لا بد للرسول وهو بشر أن يموت كما يموت الناس (وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد[1]) وكان لا بد أن يلى أمر المسلمين واحد منهم، بعد أن ترك الرسول دولة كاملة بكل مقوماتها وقنن لها القوانين . ورسم لأتباعه من بعده الطريق الصحيح للسياسة والحكم . وأوضح أنه لا بد لهذه الدولة من قائد يقودها ومسئول يتحمل مسئولية الحكم فيها، ولهذا قال للمسلمين (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ولو ولى عليكم عبد حبشى[2]) . ورسم لرعايا الدولة الإسلامية الطريق الصحيح والمنهج القويم للحكم فى الإسلام . عملياً بسياسته وعمله طول حياته . ونظريا حين تحدث بكثير من الأحاديث عن واجب الحاكم تجاه المحكومين وواجب المحكومين تجاه حاكمهم .

ولم يكن غريباً أن يترك الرسول ﷺ أمر اختيار خليفته للمسلمين يختارونه برغبتهم ، ويعطونه أصواتهم وبيعتهم عن اقتناع منهم بأحقيته لهذا المنصب الخطير . تحقيقاً لمبدأ الشورى الذى عمل على إقراره وتقريره . على خلاف ما يزعمه الشيعة من أن الرسول ﷺ أوصى لعلى رضى الله تعالى عنه . لأن النبى لو كان قد أوصى لأحد لما جهل ذلك الأنصار . وما اجتمعوا فى ثقيفة بنى

---

(١) الأنبياء ٣٤ .

(٢) من حديث طويل عن العرباض بن سارية : رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم .

ساعدة ينظرون أمر الخلافة ويبحثون عمن يختارونه ليلى هـذا الأمر . ولو كانت هناك وصية من الرسول لأحد لوقف الأنصار عندها مذعنين وما كانوا ليخالفوها .

ولو كان النبي ﷺ قد أوصى لعلى لكان أبو بكر أسرع الناس إلى بيعته ، ولو كان على يعرف أن النبي قد أوصى له ما بايع أبا بكر ولا عمر من بعده ولا عثمان . ولجاهد بعدهم هؤلاء ووقف فى طريق توليهم الحكم تنفيذا لوصية الرسول ، وآثر الموت على خلاف هذا الأمر .

وقد أخرج بن عساكر عن الحسن قال لما قدم على البصرة قام اليه ابن الكواء وقيس بن عباد فقالا له : ألا تخبرنا عن مسيرتك هذه التى سرتها تتولى على الأمة يضرب بعضهم بعضاً ؟ أعهد من رسول الله ﷺ عهده اليك فحدثنا فأنت الموثوق المأمون على ما سمعت ، فقال : أما أن يكون عندى عهد من النبي عليه الصلاة والسلام فى ذلك فلا ، والله لأن كنت أول من صدق به فلا أكون أول من كذب عليه . ولو كان عندى من النبي عليه الصلاة والسلام عهد فى ذلك ما تركت أخا بنى[1] تيم بن مرة وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ولقاتلتهما بيدى ولو لم أجد الأمر دون هذا ، ولكن رسول الله ﷺ لم يقتل قتلا ولم يمت فجأة ا . هـ .

ولم يكن للرسول ﷺ أن ينص لأحد من الناس ، وهو الذى يخطط للأمة المنهج السليم لنظام الحكم الإسلامى المبنى على الشورى وإطلاق الحريات واختيار الرجل المناسب ووضعه فى مكانه المناسب بلا نظر لأسرته أو ربط ذلك بأى علاقة من العلاقات سوى توفر شروط الخلافة فيه ، فالرسول يخطط ويقعّد ، وما يفعله بنفسه أو يوافق عليه حين يراه ولا يعترض عليه ، ينظر

---

(١) هو أبو بكر .

اليه المسلمون نظرة تقديس ويعتبرونه شرعا ملزما لابد من تنفيذه وتقريره .

ولو كانت هناك وصية من الرسول لأحد من الناس لكان معنى ذلك وجوب التوصية من الحاكم فى الدولة الإسلامية لغيره قبل أن يموت ، ولكان ذلك شرعا متبعاً وضرورة ملزمة للمسلمين وحكامهم لا يتعدونه إلى غيره . فالشريعة كتاب يلتزمون بنصوصه وآياته وما فيه من أحكام — وسنة توضح ما فى هذا الكتاب . وسنة الرسول ﷺ إما قولا أو فعلا أو تقريرا لقول أو فعل .

والواقع أن القرآن الكريم لم يشرع نظاما معيناً لاختيار الخلفاء وأن السنة الشريفة لم تشر إلى هـذا النظام ، إلا أن وجود الحكومة الإسلامية ضرورة ولا بد من وجودها لتعليم الناس ، والإشراف على تنفيـذ القوانين الإسلامية بدقة .

ولقد أقام الرسول ﷺ كما قلنا نظاما دينياً وسياسيا ، وعمل على إقامة الدولة من أجل الدعوة من أول يوم دعا فيه إلى الله تبارك وتعالى ولذلك كانت الخلافة « عهدا بين الخليفة ورعيته قوامه أن يلزم الخليفة نفسه أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وأن ينصح للمسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يطيع المسلمون أوامر الخليفة ويجتنبوا ما ينهى عنه فى هذه الحدود . فان نكث الخليفة عهده فسار فى المسلمين سيرة ينحرف بها عن كتاب الله وعن سنة رسوله وعما التزم من النصح للمسلمين ، فلا طاعة له على رعيته . ومن حق هذه الرعية أن تطالبه بالوفاء بما أعطى على نفسه من عهد . ولذلك قال أبو بكر فى خطبته للأمة بعد بيعته (ان أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى) ثم قال بعد

ذلك (أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم[١] .

ولعل من ميزة الإسلام أنه لم يحدد نظاما معينا للحكومة الإسلامية ، وترك للمسلمين حرية اختيار النظام الملائم لطبيعتهم وبيئتهم وزمانهم ومكانهم، وهذا من أدلة عالمية الدعوة الإسلامية . وقد اكتفى الإسلام بالنسبة لأمور الدنيا بتوضيح الأسس الهامة العامة، وترك للبشر التطور بها لتلائم حياتهم فى مختلف الأزمنة والأمكنة فى حدود الإطار الإسلامى العام .

لذلك رأينا الرسول ﷺ يقول : (أنتم ، أعلم بشئون دنياكم[٢]) .

وإذا كان بعض الباحثين[٣] . يرى أن العهد الإسلامى الأول « ويقصد به عصر الرسول ﷺ » قد أغفل فيه الحديث عن النظام الحكومى إغفالا تاما . ذلك لأن هذا العهد كانت البساطة من أبرز خصائصه ، خصوصاً وأن الرسول لم يكن فيلسوفا حتى يضع نظاما كاملا للحكم ويطبقه وأن تبليغ الرسالة استغرق منه كل وقته . كذلك لم تكن الحاجة ماسة لاثارة موضوع النظام الحكومى فى عهد الرسول، لأنه كان رسولا ، وكان يباشر أعمال الحاكم التى تندرج تحت رسالة الإسلام ، ويرى . لأن الرسول أكرم حاكم ، أنه لم يكن هناك مجال لإثارة موضوع نظرى وهو اختيار الحاكم مادام أنه موجودا بالفعل،وأن العهد الإسلامى الأول كان معروفا بالبعد عن النظريات وعدم البحث فى موضوع غير واقعى . « وإذا كان هو يرى ذلك ويرى غيره ما يراد » .

---

(١) الشيخان . دكتور طه حسين ص ٤٦ ، ٤٧٦ .
(٢) راجع قصة تأبير النخل فى كتب السنة والسيرة .
(٣) الدكتور أحمد شلبى فى بحث له تحت اسم (الحكومة والدولة فى الاسلام) راجع ص ١٦ إلى ٢٠

فإني لست معهم، لأن الرسول ﷺ أقام نظاما حكوميا واضحاً ولم تشغله الرسالة عن إقامة هذه الحكومة . بل كانت إقامة هذه الحكومة جزءا لايتجزء من مهمة الرسول ضمانا لاستمرار الدعوة وتبليغها والمحافظة عليها . ولمراعاة تطبيق أحكام الإسلام كلها، ما يتعلق منها بنظام الدولة نفسه كنظام الميراث ونظم الزواج والطلاق والحدود وجميع النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وما يتعلق منها بالنواحي الدينية الصرفة، كإقامة الصلاة وغيرها من أمور الدين التي أوجب الإسلام أيضاً على الحاكم مراعاة تنفيذها . ولذلك كانت الحكومة الإسلامية كما قلنا ضرورة من الضرورات . وكانت من صنع الإسلام ولها قوانينها ونظمها ودستورها الذي وضع أساسه علمياً وعملياً الرسول الأعظم محمد ﷺ

وكان لابد أن تكون الهيئة الحاكمة للمسلمين باعتبارها قائمة على رعاية وحماية هذا الدين من أوجب وجودها . وكان لابد أن تكون هذه الهيئة الحاكمة مسلمة ترعى هذه الشئون وتعلمها وتطبقها .

وقد عبر عن ذلك أبو بكر بقوله :

(لا بد لهذا الدين ممن يقوم به[1]) .

وفي مثل قول الله تبارك وتعالى (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم[2]) وقوله (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم[3]) وقوله : ومن لم يحكم بما أنزل

---

(١) الحكومة والدولة في الإسلام ص ١٤ أحمد شلبي .

(٢) النساء ٥٩ .

(٣) النساء ٨٣ .

الله فأولئك هم الـكافرون[١]) مايدل دلالة واضحة على أن الحاكم لابد أن يكون من جماعة المسلمين . وأن يتبع شرع الله فى أحـكامه واجتهاده ويدل أيضاً على وجوب إقامة حاكم أعلى للأمة يكون تحت يده من يعاونه من الحـكام والولاة الآخرين . وإلا انتهينا إلى القول بوجوب طاعة من لا تجب اقامته وهذا يكون لا معنى له ، بل يـكون قولا لا يقـدره عقل أو منطق سليم[٢] . ولذلك كان هناك شبه إجماع على وجوب نصب إمام يجمع كلة الأمة ويدبر أمورها فى الدين والدنيا[٣] .

والاجماع دليل شرعى لا يمـكن الطعن فيه .

ولسنا هنا فى معرض الحديث عن شروط الحاكم الأعلى لدولة الإسلام ، ولا عن طريقة توليته للحكم ولا عن واجبات الخليفة وحقوقه ، فللعلماء فى هذا كله آراء كثيرة واشتراطات ليس هنا محل للحديث عنها ، و يمـكن الرجوع اليها فى مصادرها الأصلية، وقد أفاضوا فيها إفاضات لا محل الآن لذكرها . لـكن الجميع كما قلنا يكادون يجمعون على ضرورة تنصيب حاكم للأمة يؤدى الأمانة إلى أهلها ويرعى شئون الأمة الدينية والدنيوية .

وقد كان اختيار الخليفة أبى بكر حاكما للمسلمين وإماما لهم بعد وفاة الرسول ﷺ . تنفيذا لهذا الوجوب الذى أوجبه الشرع على المسلمين .

ولإحساس الأنصار وهم أغلب سكان المدينة بضرورة تنصيب حاكم

---

(١) سورة المائده الآية ٤٤ . . . .
(٢) نظام الحـكم فى الإسلام (دكتور محمد يوسف موسى) ص ٢٨ .
(٣) المرجع السابق .

يحكم بين المسلمين ويرعى شئونهم . اجتمعوا فى ثقيفة بنى ساعدة والرسول ما يزال فى مكانه الذى قبض فيه لم يدفن بعد .

وظلت المناقشات تدور فى هذا المؤتمر السياسى الكبير وفق الأساليب الحديثة، يبحثون فيه اختيار الحاكم الجديد حتى انتهى الأمر إلى بيعتهم لأبى بكر خليفة لرسول الله ﷺ . تطبيقا عمليا لهذا الحكم الشرعى والواجب .

ولا أحب أن أدخل فى تفصيلات ما دار فى هذا الاجتماع التاريخى الخطير الذى انتهى بالموافقة على تولى أبى بكر لمنصب الخلافة، وعن بيعة المسلمين له فى المسجد بعد بيعة أهل الثقيفة له .

وسواء تخلف عن البيعة فى الثقيفة سعد بن عبادة الذى كان قد رشح نفسه لتولى هذا الأمر قبل وصول أبى بكر وعمر وأبى عبيدة إلى مكان الاجتماع أو تخلف علىّ عن البيعة فى المسجد ستة أشهر ثم بايع بعدها كما يقول بعض الرواة، أو بايع كما بايع غيره حين عرف إجماع المسلمين على بيعة الصديق، فإن النتيجة أسفرت كما قلنا عن تولى أبى بكر للخلافة بالطريق الشرعى، وهو طريق الشورى وبأغلبية الأصوات إن لم يكن إجماعها، وكانت البيعة العامة التى تمت لأبى بكر (فلتة وقى الله المسلمين شرها) كما قال عمر، وذلك لأنها لم تكن فى فى أول أمرها عن تشاور هادىء، ولكن المسلمين لم يترددوا فيها بل أقبلوا عليها بعد أن وضح الأمر لهم، راضية بها قلوبهم، طيبة بها نفوسهم، وفيها كان الخير العام للأمة الإسلامية جميعاً[1] .

ولقد تعود المسلمون نظام البيعة أيام النبى ﷺ حين كانوا يبايعونه

---

(١) نظام الحكم فى الاسلام د . محمد يوسف موسى ص ٥٨ .

على الإسلام بمكة قبل الهجرة ، وحين بايعه نقباء الأنصار على أن يؤووه وينصروه ويسمعوا له ويطيعوا ، وحين كانوا يبايعونه على مثل ذلك في المدينة يبايعه الرجل عن نفسه حين يسلم ، ويبايعه الوفد عن قومهم حين يسلمون . ثم حين بايع أصحابه على الموت يوم الحديبية وبايعته قريش على الإسلام يوم الفتح . ثم تتامت مبايعة الوفود له عن قومهم فاستقر في نفوس المسلمين من أجل هذا أن الخلافة عن النبي يجرى أمرها مجرى سلطان النبي في حياته أي تقوم على المبايعة[١] .

وكانت هذه البيعة . (بيعة الناس للخلفاء) عبارة عن عقد بينهم وبين هؤلاء الخلفاء ، لا يجوز لخليفة أن ينقضها ولا يجوز لأحد من الرعية أن ينقضها أيضاً لأن الله يأمر بالوفاء بالعهد في غير موضع من القرآن[٢] .

فيقول مثلا في سورة النحل (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا[٣]) .

ويقول في سورة الإسراء (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا[٤]) وكما قلنا ، الخلافة : عبارة عن عهد بين الخليفة ورعيته ، يلزم به الخليفة نفسه أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ويلزم به المسلمون أنفسهم بإطاعة أوامر الخليفة واجتناب ما ينهاهم عنه في هذه الحدود ، والرعية تطالبه بالوفاء بما أعطى على نفسه من عهد وإلا فلهم أن يبرءوا منه . ويلتمسوا لهم خليفة غيره

---

(١) الشيخان (طه حسين) ص ٤٣ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) ٩١

(٤) ٣٤

ولو بغى بعض الرعية ونقض عهده الذى أعطاه للخليفة بالسمع والطاعة وجب على الخليفة أن يراجعه فى ذلك . فإن فاء إلى أمر الله وأوفى بالعهد فذاك . وإن أبى وجب على الخليفة أن يقاتله حتى يفىء إلى أمر الله[1]) .

وليس من الضرورى أن تتم البيعة للخليفة حين يوصى الخليفة القائم لرجل من بعده .

ولو لم يبايع الناس عمر بن الخطاب بعد وفاة أبى بكر ماصحت خلافته وكان استخلاف أبى بكر له فى مرضه الذى توفى فيه بعد أخذ رأى المسلمين وبيعتهم لعمر فى حياة أبى بكر كأن لم يكن . وقد استشار أبو بكر نفرا من أصحاب رسول الله فى شأن وصيته لعمر ثم أمر عثمان رضى الله عنهما أن يسأل جماعة المسلمين : أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ فلما قالوا نعم: اطمأنت نفس أبى بكر وأرسل إلى عمر فنصح له ووصاه بما أراد[1] :

وبرغم ذلك كله لم يكن المسلمون ملتزمون بطاعة عمر بعد وفاة أبى بكر مالم يعطهم عمر العهد على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وأن ينصح للمسلمين ما استطاع . ثم أعطوه هم العهد على أنفسهم بالسمع والطاعة فى الحدود التى التزمها وحين طُعن عمر وجعل الشورى فى ستة من أصحاب الرسول ليختاروا واحدا من بينهم يكون هو الخليفة، لم تكن وصية عمر إلى هؤلاء الستة معفية للخليفة المختار من أن يعطى هذا العهد على نفسه ، وأن يأخذ من المسلمين العهد على أنفسهم ملزما نفسه أيضا بالعمل بكتاب الله وسنة الرسول والنصح للمسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ملزمهم بعد عهده لهم بالسمع والطاعة له فى الحدود التى التزمها

فلم يكن استخلاف أبى بكر لعمر إلا ترشيحا له ، ولم يكن ما انتهى إليه

---

(١) الشيخان [طه حسين] ص ٤٦ ، ٤٧ بتصرف .

أمر الشورى من اختيار عثمان إلا ترشيحا له أيضاً ، وكلا الرجلين لم يستطع أن يقوم بشيء من أمور المسلمين إلا بعد أن تمت البيعة بينه وبينهم[1] .

ويمكن تشبيه ذلك تماما بالاستفتاء على رئاسة الجمهورية عندنا ، فللناس أن يقولوا نعم أو لا ، فإن قالوا نعم فقد بايعوا ، وإن قالوا لا فقد رفضوا البيعة ورفضوا إعطاء الحاكم هذا العهد الذى يجب أن يعطى له ، وحين ذاك لايحق لهذا المرشح أن يلى أمر الأمة بعد رفضها له وعدم بيعتهم إياه .

وكان لا بد بعد ذلك من ترشيح رجل آخر تبايعه الأمة وتعطيه عهدها وذمتهاوتوافق عليهأغلبيتهاوترتضيه حاكما لها مسئولا عن سياسة دولتهم ملتزما بالعمل بكتاب الله وسنة الرسول .

ولم تكن بيعة المجتمعين فى ثقيفة بنى ساعدة لأبى بكر ملزمة لسائر المسلمين ، ولم يكن من شأنه أن يلزمهم حتى يبايعوه عن رضا واختيار .

---

(١) الشيخان ص ٤٨ .

استمرار التشريع للدولة
فى عهد الراشدين

تكونت الدولة الاسلامية على يد محمد ﷺ واتضحت معالمها ورسم الرسول ﷺ الطريق الصحيح لسياستها . ثم رحل الرسول ﷺ تاركا هذا الأمر للمسلمين وحدهم يختارون من يرضون ويجدون فيه الكفاية والصلاح .
ولقد نبه الرسول ﷺ أن الولاية أمانة . ولذلك نراه يقول لأبي ذر حين طلب إليه أن يوليه (ياأباذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها[1]) وكان يرى أن الولاية والإمارة تكليف لا تشريف وكان لا يعطيها من يطلبها ، وقد ورد فى الصحيحين عن النبي ﷺ أن قوما دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال (إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه[2]) .

ولقد رأيناه ﷺ ينهى عن تولية الرجال لمودة أو قرابة إلا أن يكون أصلح من غيره وأجدر الناس بهذا المنصب فنراه يقول . من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم[3]) .

---

(١) صحيح مسلم شرح النووى جـ١٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ (طبعة محمود توفيق)
(٢) وفى رواية عن أبي موسى . إنا لا نولى على هذا أحد اسأله (صحيح مسلم النووى) .
(٣) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد (الترغيب والترهيب) جـ ٣ ص١٤٢ .

وعلى هذا الأساس تولى أبو بكر مسئولية الحكم لخلافة الرسول ﷺ واختير اختياراً حرا بانتخاب حر مباشر، ثم اختير بعده عمر بتوصية من أبي بكر وترشيح له ، ثم اختير عثمان بعد مشاورات ومداورات بعد ترشيحه ضمن مجموعة رشحها عمر ليختار من بينها أحدهم خليفة وإماما للمسلمين . ثم تولى الخلافة من بعده على بعد إلحاح ، وبعد أن ضربت الفوضى أطنابها واستطاع الثوار الناقمين على الخليفة أن يقتلوه بعد أن حاصروه فى داره ولم يتمكن الحراس من إنقاذه من قدره المحتوم .

ولاشك أن جميع هذا الذى حدث فى حياة الرسول ﷺ بماته وطريقة تولية الخلفاء . وما حدث فى زمانهم من أحداث وطريقة سياستها وتنظيمهم للدولة واختيار الولاة واختلاف الأنظمة الاجتماعية فى الدولة الاسلامية فى عصر كل خليفة من الخلفاء والفتن التى حدثت . كل هذه الأمور الكثيرة التى يرويها لنا تاريخ هؤلاء . إنما هى مقدرة محددة أرادها الله ، وكان لابد أن تحدث ، وكان لا يمكن إطلاقا منع شىء منها ولو أعدت العدة لمنعه حين حدوثه

فكل حادثة تحدث فى هذه الحياة صغيرة كانت أم كبيرة ، إنما تحدث بقدر وتقدير إلهى أزلى . أريد به ولاشك فوائد للبشر حتى وإن كان فى ظاهرها ضرر وإضرار وصدق الله حين قال (وكل شىء عنده بمقدار[1]) .

وحين يقول : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين[2] .

---

(١) الرعد ٨
(٢) الأنعام ٩

لحوادث الردة، وحروب أبي بكر للمرتدين، وانتصاره عليهم، كانت مقدرة وكان لابد أن تحدث، وكان فيها ولا شك، فائدة، أي فائدة للاسلام والمسلمين. كذلك حوادث الفتنة في زمن عثمان وما حدث له وتصرفاته كلها وتغير الأحوال في عصره عن عصرى أبي بكر وعمر، وتغير الحالة الاجتماعية واستتباع ذلك بتغير السياسة ونظم الحكم كان شيئاً مقـــدراً، ونمطـا من أنماط نظام الحكم في الإسلام أراده الله وأراد أن يحدث في الصدر الأول بالذات تعليما وتدريباً للمسلمين. ولإطلاعهم على أنماط مختلفة من نظم الحكم والسياسات لاختيار ما يصلح منها، وترك مالا يصلح لدولة الإسلام مع تجدد العصور وتغير الأزمان. كذلك فإن محاولة فرض النظام وتجميع الأمة وتغيير الأسلوب الذى سار عليه عثمان والذى أطلق عليه بعض المفكرين[1]. أنه كان نظاما ملتبسا مشاركا حيث كان نصف ملك ونصف خلافة أو كان نصف زعامة دينية ونصف إمارة دينية.

وحين قامت الحرب بين على ومعاوية على تأويل من كل منهما، لم تكن المسألة خلافا بينهما على شيء واحد ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك فإنما كانت الحرب بينهما عبارة عن صراع بين الخلافة الدينية، كما تمثلت في على بن أبي طالب والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان.

وكما يقول العقاد ليس موضع الحسم فيها أن ينتصر على فيحكم في مكان معاوية، أو ينتصر معاوية فيحكم في مكان على، بل موضع الحسم مبادىء الحكم كيف تكون إذا غلب واحـــد منهما على خصمه فتكون مبادىء الخلافة الدينية أو مبادىء الدولة الدنيوية؟، أتكون مبادىء الورع والزهادة أم

---

(١) عباس العقاد.. عبقرية الامام ص ٩٨

مبادىء الحياة على أساس الثروة الجديدة كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين المرأة والاجناد الأعوان[1] .

لقد توقع الرسول ﷺ مدة الخلافة فقال عليه السلام فيما يرويه الإمام أحمد (الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك[2]) .

وحين قال عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ[3] إنما كان يعنى ما يقول وهذا أمر من رسول الله ﷺ يجب تنفيذه .

ولقد كان الخلفاء أنفسهم يعرفون أن أعمالهم محسوبة عليهم وأنها ستكون سنة للمسلمين . سيقيدون أنفسهم بها ، ويلتزمون العمل بمقتضاها ؛ ولذلك كانوا حريصين على الالتزام بما فى كتاب الله وسنة رسوله . بل يلزمون أنفسهم ولا يعملون عملا قد يخرجهم عن الالتزام بما فى الكتاب والسنة .

وقد روى التاريخ[4] أن عمر بن الخطاب رفض الصلاة فى كنيسة القيامة بفلسطين حينما حان وقت الصلاة ، وطلب منه البطريرك أن يصلى فيها ، لكنه رفض واعتذر بأنه إن يفعل يتبعه المسلمون على تعاقب القرون ؛ إذ يرون عمله مستحبا فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم وخالفوا عهد الامان .

---

(١) عبقرية الامام ص ٨٤

(٢) حديث صحيح . رواه أحمد والترمذى وابن حبان (فتح القدير) ص ٥٠٩ ج ٣ .

(٣) عن العرباض بن ساريه . رواه أحمد وأبو داود الترمذى وابن ماجه والحاكم (كنز العمال ج ١ ص ٩٥٤) .

(٤) الفاروق عمر د : محمد حسين ص ٢٥٨ .

كذلك اعتذر لنفس السبب من الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة ، ولذلك لما صلى عمر فى مكان قريب من الصخرة المقدسة . شيد المسلمون فيه مسجدا فخما[١]) .

وحين ادعى أحد المصريين أن عمرو بن العاص أمير مصر وعامل عمر عليها ضربه مائة سوط ، وقال عمر للمصرى قم فاقتص منه ، إذا عمرو بن العاص يقول لعمر : يا أمير المؤمنين إنك أن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك ، ثم افتدى ٢٠٠ بمئتى دينار كل سوط بدينارين[٢]) .

وحين أجبر أحد ولاة عمر رجلا على النزول فى بئر ليرى عمقه فكان ذلك سببا فى وفاته . بعث إلى الوالى وقال له (أما لولا أنى أخاف أن تكون سنة بعدى لضربت عنقك ، ولكن لا تبرح حتى تؤدى ديته ، والله لا أوليك أبدا[٣]) .

ولقد رفض عثمان بن عفان رضى الله عنه التنازل عن الخلافة عندما طلب منه الثوار ذلك · خوفا من أن تكون هذه سابقة فى الإسلام وسنة يصنعها الحكام من بعده بمجرد خروج قلة من الناس على حكمهم · ولقد قال للأشتر النخعى أحد زعماء الثوار (ما كنت لأخلع سربالا سربلنيه الله فتكون سنة من بعدي كلما كره القوم إمامهم خلعوه[٤] .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) راجع القصة بتمامها فى (الادارة الإسلامية) محمد كرد على . وهى غير قصة القبطى الذى ضربه ابن عمرو وقال له أنا ابن الأكرمين .

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٥٤ ، ٥٥

(٤) عثمان بن عفان للشيخ محمد الصادق عرجون ص ٦٣

وحين فوض عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه لاختيار واحد من أصحاب الشورى وانتهى الأمر بمبايعة عثمان رضى الله عنه : قال له (أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده[1]) ولم يقل سنة الله فقط وإنما أضاف إليهما أيضاً سنة الخليفتين السابقين .

ولا يعترض على هذا بتغير بعض النظم أو السياسات من خليفة لآخر حين تقتضى الظروف ذلك ، ولا يكون معنى هذا صلاح واحدة وفساد غيرها وإنما معناه جواز هذا وذاك خصوصاً وأن هذا الخلاف لم يكن إلا فى الفرعيات الداخلة تحت أصول كلية يؤمن بها الجميع .

والطبيعة البشرية تقضى بهذا ، فقد ضرب لنا هؤلاء الخلفاء مع اختلافهم فى طرائق حكمهم المثل فى كيفية احترام بعضهم لبعض حتى وإن اختلفوا وسنضرب لذلك أمثلة فى الفصل التالى إن شاء الله .

ونستطيع أن نقرر أن الفترة الزمنية التى تلت وفاة الرسول ﷺ حتى تأسيس الدولة الأموية أى فترة خلافة الراشدين ، وهى فترة الثلاثين عاما التى تنبأ بها الرسول ﷺ قبل وفاته حيث قال (الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك[2]) .

كانت هذه الفترة بكل ما فيها من تناقضات وتغييرات فى الحياة الاجتماعية وفى نظام الحكم . كانت فترة تشريع سماوى وتدريب عملى على يد هؤلاء الذين أمر الرسول ﷺ بالاقتداء بهم والأخذ بسنته وسنتهم .

---

(١) نظام الحكم فى الإسلام دكتور محمد يوسف موسى ص ٦٥ .
(٢) حديث صحيح . رواه أحمد والترمذى وابن حبان وغيرهم (فتح القدير) جـ ٣ ص ٥٠٩

وكان عصر أبى بكر هو العصر الذى نشأت[1] فيه الدولة الاسلامية ، وعصر عمر هو العصر الذى تم فيه انشاؤها ، وعصر عثمان هو العصر الذى تكون فيه المجتمع الإسلامى بعد نشأة الدولة الجديدة . فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التى تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها ، أما عصر على فكان عصراً عجيباً بين ما تقدمه وجاء فى أعقابه ، حيث ظهر فيه قسمان متفقا بلان فى أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الإجتماعى والرغبة فى بقائه وتدعيمه والثانى : فيه كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعى والتحفز لتقويضه وتحويله . أحدهما وهو قسم الرضا عن النظام الإجتماعى ، كان قسم معاوية بن ابى سفيان فى الشام وما جاورها والآخر هو قسم التذمر من النظام الاجتماعى وكان قسم على بن ابى طالب فى الجزيرة العربية بجملة أنحائها[2] .

ولو حاولنا التعمق فى أعماق عصر الراشدين ، لوجدنا لونا جديداً فى شخصية كل خليفة من الخلفاء الأربعة ، شخصية ابى بكر غير شخصية عمر وشخصية عثمان تختلف تماما عن شخصية أبى بكر وعمر ، وشخصية على نموذج آخر يختلف عن شخصية سابقيه من الخلفاء الثلاثة ، وهذه طبيعة النفس البشرية تختلف فى الطباع والأمزجة والافكار والآراء ، فيتصرف كل إنسان بما يراه من وجهة نظره أنه أفضل التصرفات ، وحين يكون هذا من العشرة المبشرين بالجنة ويكون فى موضع السلطة ومسئولا أمام الله عن الأمة التى ولاه الله أمرها يختلف الوضع تماماً ، فلا يتصرف هذا تصرفا وإن كان شخصياً إلا ويحاول أن يكون فيه الخير كل الخير للمسلمين الذين ولاه الله عليهم . فلا يتصرف

---

(١) الانشاء هنا بمعنى التدعيم .

(٢) عبقرية الامام ٥٣ ، ٥٤ بتصرف .

لمصلحة شخصية أو يعمل لغرض يخالف مصلحة الأمة أو يتعارض مع مصالحها ولو فعل ذلك لـكان محدثاً وآثماً . كيف والخلفاء الأربعة ممن بشروا بالجنة وأمر الرسول ﷺ المسلمين بالأخـــذ بسنتهم واتباع رأيهم .

وسأحاول إن شاء الله في فصل قادم أن أرد على الدعاوى والاتهامات التي نسبت إلى عثمان رضي الله عنه والتي رأى بعض المؤرخين أنها هي التي عجلت بالفاجعة ، حيث نسبوا إليه ظلماً تقريبه لبعض أقاربه الذين كان الرسول ﷺ قد أقصى بعضهم عن المدينة واستدعاهم إليه عند استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال ، وكاتهامه بتوسعه في بناء القصور وإعطاء أقاربه كثيراً من المنح وتوليتهم الولايات لأثبت أن هذه الاتهامات جميعها ، عثمان رضي الله عنه منها براء :

موقف الصحابة من الخلافة

حين يقرأ الناس تاريخ الراشدين ، ويرى مناقشة أبى بكر وعمر وأبى عبيدة للأنصار حين اجتمعوا فى السقيفة للتشاور فى أمر من يخلف الرسول بعد وفاته، ومحاولة إقناع الأنصار بأن الخلافة يجب أن تكون فى قريش .

وحين يقرأ القارئون ما رواه المؤرخون من اختلاف الستة الذين رشحهم عمر للخلافة فى اختيار واحد منهم ليكون حاكما للمسلمين وخليفة للنبى، وحين يقرأ بعضاً مما نسب إلى عثمان من إيثاره لأهله وتوليته لهم والعطف عليهم، وتمسك عثمان بالخلافة وعدم تنازله عنها حين ثار عليه الثوار ، وحين يقرأ عن الحرب التى دارت بين على ومعاوية ودارت قبلها بين على وطلحة والزبير من أجل الخلافة ، يظن أن هؤلاء الناس ، إنما هم من طلاب الدنيا والراغبين فيها، وأنهم لم تكن تهمهم غير أنفسهم والوصول إلى السلطة، وإن أدى ذلك إلى الحرب أو إيثار باطل أو استشعار حقد . لذلك اختلفوا واقتتلوا .

ولكن الحقيقة على النقيض من ذلك ، فإن الراشدين وإن أحب كل واحد منهم أن يكون فى مركز السلطة، فقد كان وازع كل واحد منهم كما قال ابن خلدون[1] : (هو الدين الذى كانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة) .

ولم يكن محاولة أبى بكر وعمر وأبى عبيدة إقناع الأنصار بضرورة أن تكون الخلافة فى قريش، إلا لأنهم أحبوا أن لا يقع خلاف بين الأمة أو

---

(١) المقدمة ص ٢٠٧

تسود فرقة بين المسلمين، وذلك كما يقول ابن خلدون :[1] :

(لأن قريشا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف ، فكان سائر العرب يعترفون لهم بذلك ويستكينون لغلبهم ، فلو كان الأمر فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم، وما استطاع غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكره ، فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة ، والشارع يحذر من ذلك وهو حريص على اتفاقهم ورفع الخلاف والشتات بينهم) .

ولم يحدث كما تصور بعض المؤرخين أن تَنفس على بن أبى طالب على من سبقوه فى الخلافة، أو حرص على حربهم، أو حاول الاستئثار بها لنفسه من دونهم، بل أنه لم يعص أمرا من أوامرهم مهما كبر أو صغر ، وعمل جنديا عاديا مخلصا فى جيوشهم وأتمر بأمرهم، ونصح لهم ونصحوا له ، ولم يثبت إطلاقا أن كانت بينه وبين أحدهم عداوة .

فتولى أبو بكر الخلافة برضى الجميع وبايعه علىّ مع من بايع، وأدى له حقه وبايع لعمر أيضا مع المبايعين وأدى له حقه وعرف له طاعته . وحين اختير عثمان بايع أيضاً مع من بايع وكان جنديا فى جيوشه يأتمر بأمره ويحفظ له ما عليه من حق تجاهه .

ويكفينا فى التدليل على ذلك قول على نفسه [2] . لما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم نظرنا فى أمورنا فاخترنا لدنيانا من رضيه نبى الله صلى الله عليه وسلم لديننا ، وكانت الصلاة أصل الاسلام وهى أمير الدين وقوام الدين

(١) المقدمة ص ١٩٥

(٢) من حديث طويل واخرجه ابن عساكر عن الحسين : تاريخ الخلفاء الراشدين ص ١٧٧ ، ١٧٨

فبايعنا أبا بكر وكان لذلك أهلا لم يختلف عليه منا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم نقطع منه البراء . فأديت إلى أبى بكر حقه ، وعرفت له طاعته وغزوت معه فى جنوده ، وكنت آخذ إذا أعطانى وأغزو إذا أغزانى، وأضرب بين يديه الحدود بسوطى ، فلما قبض تولاها عمر وأخذها بسنة صاحبه، فبايعنا عمر ولم يختلف علينا منا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض ، فأديت إلى عمر حقه وعرفت له طاعته ، وغزوت معه فى جيوشه · وكنت آخذ إذا أعطانى وأغزو إذا أغزانى وأضرب بين يديه الحدود بسوطى .

ثم يتحدث عن عثمان فيقول بعد حديثه عن أخذ عبد الرحمن بن عوف المواثيق من أصحاب الشورى الذين رشحهم عمر على السمع والطاعة لمن يتولى الأمر فيقول (فبايعنا عثمان ،وأديت له حقه،وعرفت له طاعته، وغزوت معه فى جيوشه ، وكنت آخذ إذا أعطانى وأغزو إذا أغزانى ، وأضرب بين يديه الحدود بسوطى) .

وقد اقتنع الأنصار بوجهة نظر المهاجرين وظلوا مؤمنين بها، وما حاولوا قط حتى فى أثناء الفتن والخلاف بين القرشيين على من يتولى الخلافة ، أن يتدخلوا فى الخلاف أو أن ينافسوهم عليها . واكتفوا بتولية بعضهم فى بعض الولايات واستشارات الخلفاء لهم ، تنفيذا لكلام أبى بكر لهم (منا الأمراء ومنكم الوزراء) وكان أبو بكر يستشيرهم كما يستشير غيرهم من المهاجرين . كذلك عمر وعثمان . وإن كان شباب الأنصار وعامتهم لم يعجبهم قصر الولايات على القرشيين عامة وبنى أمية على الخصوص فى خلافة عثمان مما كان له أثره الخطير فى الفتنة وما استتبعها من أحداث[1] .

---

(١) راجع الفتنة الكبرى (عثمان) ص ٨٤ :

أما اختلاف أصحاب الشورى بعد ترشيح عمر لهم وعدم إقرارهم بواحد فى أول الأمر، فإنما كان ذلك لأنهم كانوا يرون أن الخلافة واجب يجب أن يتنافس المتنافسون فى النهوض بأعبائه مهما تثقل، تقرباً لله إن حسنت بهم الظنون، ورفقاً بالناس إن صدقت فيهم الآراء، ويجب أن تصدق فيهم الآراء »[1] .

فإذا كان هؤلاء قد تمنوا إيثار أنفسهم بالسلطان، فلم يكن ذلك حباً للسلطان وحده بل لأنهم كانوا يؤثرون أنفسهم بالسلطان نصحا للاسلام والمسلمين، ويرى كل واحد منهم مخلصا أنه أقدر على احتمال العبء وأجدر أن يرى ما ينبغى له من حق .

فالتاريخ يروى عن عمر قول أنس[2] : (دخلت حائطا فسمعت عمر يقول وبينى وبينه جدار . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ؟ بخ بخ والله لتتقين الله يا بن الخطاب أو ليعذبنك الله) .

ويروى عنه أيضا وهو الخليفة أنه (حمل قربة على عنقه فقيل له فى ذلك فقال إن نفسى أعجبتنى فأردت أن أذلها)[3]

ويروى عن عثمان الخليفة (أنه كان يلى وضوء الليل بنفسه فقيل له لو أمرت بعض الخدم لكفوك . قال لا، الليل لهم يستريحون فيه)[4] .

أما على الإمام فقد روى أنه كان يكنس بيت المال ثم يصلى فيه رجاء

---

(١) الفتنة الكبرى (عثمان) ٦٠
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ١٢٩
(٣) نفس المرجع
(٤) نفس المرجع ص ١٦٤

أن يشهد له أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين.[١]

وكان يقسم ما في بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئا. فلما ذهب مرة إلى بيت المال ووجد الذهب والفضة قال يا صفراء اصفرى ويا بيضاء ابيضى وغرى غيري. لا حاجة لى فيك)[٢].

فهل يمكن أن يقال بعد ذلك كله إن الخلفاء تنافسوا على الخلافة طمعاً في الدنيا وحباً للسلطة ؟

كان عمر رضى الله عنه بعد أن عرك الخلافة وعركته قد عرف أن الخلافة عبء ثقيل ينبغى ألا يطمع فيه، بل ينبغى أن يرغب الرجل عنه إيثارا للعافية فى دينه ودنياه، ولهذا رشح عمر ستة ولم يعين واحدا بعينه حتى لا يتحمل وزرها حيا وميتا كما قال.

وحتى حينما وقعت الفتنة بين على ومعاوية، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا فى محاربتهم كما يقول ابن خلدون[٣] (لغرض دنيوى أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما يتوهمه متوهم، وينزع إليه ملحد وإنما اختلف اجتهادهم فى الحق فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب على فلم يكن معاوية قائما فيها بقصد الباطل وأخطأ، والكل كانوا فى مقاصدهم على حق) ولقد كان معاوية يرسل إلى على رضى الله عنه برغم ما بينهما من شقاق يستفتيه فى بعض أمور الدين كتوريث الأنثى المشكل، فكتب إليه أن يورثه من قبل مباله

(١) تاريخ الخلفاء ١٨١
(٢) الإدارة الاسلامية ص ٦٢ — ٦٣
(٣) المقدمة ٢٠٥
(٤) تاريخ الخلفاء ص ١٧٦ — ١٧٧

كذلك فبرغم خروج الزبير وطلحة وعائشة لقتال على فإن هذه الحادثة تبين لنا أن هؤلاء الناس لم يكن بينهم اطلاقا برغم وصول الأمر إلى حد الإقتتال ما يدل على عداوة أو بغضاء ، أو ما يدل على طبيعة تحقد على الناس .

فقد خرج على فى وقعة الجمل حاسراً لا يحتمى بدرع ولا سلاح ، ونادى على الزبير ، حتى إذا خرج إليه وكان بين الصفين اعتنق كل منهما صاحبه وبكيا ، ثم قال على يا عبد الله ما جاء بك ها هنا ؟ قال : جئت أطلب دم عثمان ، قال على تطلب دم عثمان ؟ قتل الله من قتل عثمان . أنشدك الله يا زبير هل تعلم أنك مررت بى وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكىء على يدك يسلم عليك رسول الله (ﷺ) ثم ضحك والتفت إليك فقال لك يا زبير إنك تقاتل عليا وأنت له ظالم ؟ قال اللهم نعم . قال على : فعلام تقاتلنى ؟ قال الزبير : نسيتها والله ، ولو ذكرتها ما خرجت إليك . ولا قاتلتك[1] .

وقد خرج الزبير فعلا من الحرب وغادر البصرة عائداً إلى المدينة ، ولكنه قتل غيلة على يد بن جرموز حين انتهى إلى واد السباع[2] .

ولقد دخل موسى بن طلحة على على رضى الله عنه فى البصرة بعد وقعة الجمل وقتل أبيه ، فقال له على (إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين)[3]

ولما تأخر على فى البصرة فى اليوم الذى أتاه فيه موسى بن طلحة ، سأله أحد أصحابه عن سبب التأخير . فقال له على « كان عندى ابن أخى » ولما

(١) الإمامة والسياسة (لابن قتيبة) ص ٧٢ ج ١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٤ ج ١
(٣) المرجع السابق ص ٧٨ ج ١

سأله عن ابن أخيه هذا ، قال : موسى بن طلحة ، فاستعجب الرجل وقال : لقد شقينا لمن كان إبن أخيك ، فاذا على رضى الله عنه يتغير وجهه ويقول له : ويحك . إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[1] .

والمعروف أن الإنسان يفرح حين يموت عدوه ، وإذا كان العدو خارجا على طاعة السلطان زعيما لثورة تقف فى وجهه وتحاول الإطاحة بحكمه ، فإن السلطان نفسه يعمل بطريقة أو بأخرى على إزاحة هذا الثائر من وجهه وإبعاده عن طريقه ولو عن طريق الاغتيال .

ولكن العجيب أن نرى عليا (الإمام) يقف على جثة طلحة وهو أحد الخارجين عليه المحاربين له ، المتزعمين حركة التمرد على سلطانه . ويبكي بكاء شديدا وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : عزيز علىّ أن أراك أبا محمد مجندلا تحت نجوم السماء ، وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة[2] .

بل إن علياً رضى الله عنه نهى أعوانه عن سلب أموال محاربيهم فى موقعة الجمل ونهى عن استباحة السبى ، مع أنهم كانوا يرونه حلالا طيبا وأغضبهم بهذا إنصافا لأعدائه ، ولما قالوا : تراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟

قال على إنما القوم أمثالكم . فمن صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر ثم أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترا ولا يمدوا أيديهم إلى مال[3] .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٨ ، ٧٩ ج ١

(٢) عبقرية الامام ص ٩٨ ، ٩٩ . (٣) المرجع السابق ص ٣٧

ويروي ابن قتيبة[1] أنهم لما جادلوا فى شأن الأسرى من النساء وكيف أنه لا يبيح لهم استرقاقهم ، وأن عليا لما أخبرهم بأنها لا تحل لهم وأكثروا عليه فى ذلك قال : اقترعوا هاتوا بسهامكم، ثم قال : أيكم يأخذ أمكم عائشة فى سهمه ؟ فقالوا : نستغفر الله، فقال وأنا أستغفر الله .

وقد ظفر فى هذه الموقعة بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد ابن العاص . وموسى بن طلحة ، وتموا جميعاً أسرى فى يده وهم ألد أعدائه والمؤلبين عليه، لكنه عفى عنهم وأطلق سراحهم، ولم يمسهم بسوء، وحين أشار عليه عمار أن يقتلهم رفض على وقال . لا أقتل أسير أهل القبلة[2] .

وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش كامل فأعرض عنه، وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته[3] .

وقد صلى على رضى الله عنه بعد الموقعة على القتلى جميعاً من أصحابه ومن أعدائه على السواء[4] .

ولم تمنعهم الحرب عن تحرى الحق والتزام الشرع حتى مع أعدائهم الذين حاربوهم وخرجوا عليهم ، فقد قتل طلحة وابنه محمد فى معركة واحدة ، واختلف فيمن قتل أولا ليرثه الآخر ، ولما شهدت السيدة عائشة أنها رأت محمداً بعد قتل أبيه ورثوا ولده فى مال طلحة[5] .

---

(١) الامامة والسياسة ص ٧٧ ، ٧٨ ج ١
(٢) نفس المرجع السابق ص ٧٧ ج ١
(٣) عبقرية الإمام ص ٢١
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢١
(٥) الإمامة والسياسة ص ٧٨ ج ١

ولقد أردت بهذه الأمثلة جميعها أن أنفي عن صحابة رسول الله ﷺ الأثرة وحب الدنيا، وأن أنفي عن الخلفاء الأربعة على الخصوص تنافسهم على الخلافة من أجل أنفسهم وطمعاً في المال أو السلطان . فلم يثبت التاريخ الصحيح أن واحداً منهم قتل منافساً له غيلة لإزاحته عن طريقه ، حتى وإن خرج عليه، ولقد رأينا عثمان يرفض قتل الخارجين عليه مع أنهم كانوا من أهل الأهواء والمطامح الخاصة، مع أن جمهرة الشعب حكمت عليهم بالقتل .

حتى حين يروي أحد المؤرخين[1] .

أن معاوية اقترح على عثمان في أثناء الفتنة أن يضرب أعناق علي وطلحة والزبير) فإنه على فرض صحة هذه الرواية وإن كنت اشك فيها ، فإن عثمان قال رداعلى هذا الاقتراح :سبحان الله أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا ذنب ارتكبوه؟ فقال معاوية : (فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلوك) قال عثمان لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته باهراق الدماء) وحين عرض عليه معاوية أن يفرقهم في الامصار وان يكلفهم بالبعوث والانتدابات، رفض عثمان وقال (سبحان الله شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله ، وبقية الشورى اخرجهم من ديارهم وافرق بينهم وبين اهليهم وابنائهم ؟؟ لا افعل هذا) كذلك رفض عرضاً من معاوية بارسال اربعة آلاف فارس من اهل الشام يحرسونه ويقومون بمهمة الدفاع عنه ، رفض هذا العرض المغرى وقال (أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحــرز دمى لا فعلت هذا[2]) .

وعلى هذا سار الخلفاء جميعاً يعملون من أجل الصالح العام لا يفرطون في

---

(١) ابن قتيبة (الامامة والسياسة ص ٣٠)

(٢) راجع القصة بالمرجع السابق

حق الله ولا فى حق المسلمين قيد أنملة ، يعطون كل إنسان حقه ، ويحفظون على الدولة كرامتها ، ويحتفظون للإسلام بعدله وسماحته . ولهذا قالوا (إن عمر شقى فى خلافته شقاء عظيما [1] .

وإنى أرى أن الخلفاء جميعاً شقوا بهذه الخلافة أيما شقاء ، لأن الخلافة لم تكن مجرد إدارة وسياسة وحرب ، وإنما كانت مشكلة ذلك التراث الدينى الضخم الذى يجب أن يقوم الخليفة عليه ليحميه ويحفظه ويصونه ويمضى به فى الطريق الذى مضى فيها النبى بأمر من الله ربه .

فلو كان الأمر أمر فتوح وإدارة وسياسة ليس غير ، لمضى فيها العرب كما مضى غيرهم من الأمم التى خرجت من البداوة إلى الحضارة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الخضوع إلى التسلط والاستعلاء . ولكن الأمر أمر فتح فى حدود معينة قد رسمها الإسلام وقوامها رفع المغلوبين إلى مكانة الغالبين ، باذلا العدل الكامل الشامل فيهم من جهة ، وبين الذين قهروهم من جهة أخرى فلم يكن الفتح كما صوره الإسلام وكما تصوره النبى وأصحابه ، فتح تغلب وجباية وإنما كان فتح إصلاح وهداية [2] .

ولذلك كان كل خليفة من الخلفاء الأربعة يعمل جاهدا من أجل حياة الدين وحياطته وصيانته من أن يكيد له المغلوب أو يستغله الغالب أو يفتر فيه القائمون عليه ، حتى وان اختلفوا فى طرائق حكمهم ، أو كان لكل واحد منهم وجهة نظر خاصة فى سياسة الدولة وإدارتها ، وقد حاولوا قدر جهدهم

---

(١) الفتنة الكبرى (عثمان) ص ٥٨

(٢) المرجع السابق ص ٥٨ ، ٩ ، وفى النص تقديم الجملة كما صوره الإسلام وكما تصوره

واستطاعتهم أن يضيفوا شيئا جديداً يخدمون به الدعوة الإسلامية وينشرون عن طريقه كلمة الحق والعدل .

ولقد كان أصعب شيء خصوصا بعد تطور الحياة الإجتماعية وإتساع رقعة الدولة الإسلامية ، أن يحاول الخليفة المواءمة بين مصالح الناس وحقائق الدين خصوصا بعد أن ظهرت طبقات جديدة فى المجتمع لم تكن موجودة فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومظاهر غريبة على الناس لم تكن معروفة عند العرب من قبل .

فمثلا كان عمر يحظر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة التى تبعد بينهم وبين رعيتهم ، إلا أنه كان يقبل الأعذار أو يغضى عنها حين يتوقف صلاح الولاية فى ذلك ،[1]

فقد روى العقاد فى عبقرية عمر . أن عمر حين قدم إلى الشام راكبا على حمار تلقاه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم ، فلما رآه معاوية سلم عليه بالخلافة . فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين فلو كلمته ، فالتفت إلى معاوية وسأله : إنك لصاحب الموكب الذى أرى ؟ قال نعم : قال : مع شدة إحتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال له : نعم ، قال : ولم ويحك ؟

قال لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد إستخف بنا وهجم علينا وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة (جرأة الرعية) وأنا بعد عاملك فإن استنقصتنى أنقصت ، وإن إستزدتنى زدت ، وأن إستوقفتنى وقفت ، فقال عمر : ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه ، إن كنت صادقا فإنه رأى لبيب . وإن كنت كاذبا فإنها خدعة أريب . لا نأمرك ولا ننهاك .)

---

(١) الدعوة إلى الاسلام (أرنولد) ص ٦٠ ، ٦١

ولقد كان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين ورسل الإسلام فيما بعد والأوصياء والأوفياء على كل ما أنزله الله للناس على محمد . لقد تغلغل في نفوسهم خلال ملازمتهم للنبي وولائهم له،لون جديد من الوجدان والتفكير هو في الواقع أسمى وأرق مما ألفوه من قبل . إنهم إنتقلوا في الحقيقة إلى حالة أحسن مما كانوا من جميع الوجوه . وفي أحرج أوقات الغزو التي وقعت فيما بعد، قدم الساسة والقادة منهم دليلا رائعا لاسبيل إلى إنكاره، إلى أن أفكار محمد وتعاليمه كانت قد ألقت بذورها في تربة خصبة . فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدرا فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب وهم المتحمسون لحفظ ما روى عن النبي (ﷺ) من كلام ووصايا . والأمناء على تراث محمد الأدبي، فقد تألفت من هؤلاء الرجال جماعة الاسلام المبجلة الذين إنبثقت منهم يوما طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء أو الأصوليين والمحدثين في المجتمع الإسلامي[1]

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٠

الرد على اتهام عثمان رضى الله عنه بالضعف وموالاة أقاربه

قلنا فى الفصل السابق أن عصر الراشدين كان عصر امتداد التشريع للدولة الإسلامية، وأن ما حدث فى هذا العصر كان شيئا متدرا ، وأن ذلك حدث فى الصدر الأول بالذات تعليما وتدريبا للمسلمين ، ولإطلاعهم على أنظمة مختلفة من نظم الحكم والسياسات ، ليختاروا ما يصلح منها، وترك ما لا يصلح لدولة الإسلام وربما يتعارض ذلك مع ما رواه بعض المؤرخين من أن البطانة التى كانت تحيط بعثمان رضى الله عنه هى التى حجبته عن قلوب رعاياه حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه بانتهاء حياة الخليفة نفسه على يد أفراد من رعايا دولته، ويتعارض ذلك أيضا مع ما نسب إلى عثمان من تقريبه لبعض أقاربه الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أقصى بعضهم عن المدينة فاستدعاهم إليه عندما تولى الخلافة وأغدق عليهم المنح والأموال ، وما اتهم به أيضا من توسعته فى بناء القصور وإعطاء أقاربه ، هذه التهم التى وجهت إلى عثمان ونسبت إليه اعتبرها المؤرخون من أسباب الثورة عليه .

وعلى فرض أن عثمان قد ولى أقاربه فإن عثمان كحاكم، له أن يختار من يشاء من الوزراء والنصحاء ومن يراهم أهل ثقة عنده حتى وإن ظهر بعد ذلك أن وزراءه ونصحاءه وأهل ثقته قد كانوا وبالا عليه وعلى رعاياه لأن عثمان لم يكن يعلم الغيب .

ولقد حاول بعض المورخين والباحثين أن يؤكد ذلك فقالوا أن ورعه

وطيبة قلبه كانت سببا من أسباب التأثير عليه وتضليله . ويقول العقاد[١] :

إن عثمان عقد مؤتمرا جمعه للتشاور فى إصلاح الأمر وقمع الفتنة ، وكان من بين المدعوين إلى المؤتمر معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سلمة وسعيد بن العاص وهم فى جملتهم أولئكم الولاة الذين شـكاهم علىّ وجمهرة الصحابة وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار .

ويروى العقاد[١] بعضاً مما دار فى هذا المؤتمر ويقول إن علياً لم يكن مدعوا فى هذا المؤتمر ، لأنه لم يكن منظورا إليه بعين الثقة والمودة ، ويروى ما أشار به هؤلاء الولاة (ولاة عثمان) على الخليفة وما يجب عمله لقمع الفتنة وإصلاح الأمر ، وما أشار عليه بعضهم باستعمال الشدة ، وبعضهم بترضية الخارجين عليه باعطائهم مبالغ من المال ، وبعضهم بنفى كبار الصحابة خارج المدينة .

ولكنى أشك فى رواية العقاد وغيره من الكتاب والمؤرخين الذين ذكروا قصة هذا المؤتمر ، وأرى أن الاتهامات التى نسبت إلى عثمان اتهامات ظالمة . وما فعله عثمان مما قد يكون من بين الاتهامات التى وجهت إليه ، إنما فعله بتأول واعتقاد منه بأن فيه الخير كل الخير للإسلام والمسلمين ، وما رواه العقاد هنا من أن عثمان رضى الله عنه عقد مؤتمرا لم يدع علياً إليه لأنه كان لم يكن منظورا إليه بعين الثقة والمودة ، يعارضه ما عرفناه عن عثمان من أنه رضى الله عنه جعل من أهل المدينة وهم سادة الأمة وأعلامهم وفيهم أعضاء مجلس شورى عمر بن الخطاب المرشحون للخلافة ، مجلسا نيابياً له حق الرقابة على السلطة العليا للدولة ، وقد دعم الخليفة هذه الرقابة بقوله لهم (أنتم شركائى وشهود المؤمنين فأشيروا على)

(١) عبقرية الإمام ص ٦٦ ، ٧٠

(٢) نفس المرجع والصفحة

وكان يأخذ بمشورتهم ويعمل برأيهم بل يرى للأمة كلها الحق فى هذه الرقابة فيطلب إلى كل من ادعى حقا ـ قبله أو قبل ـ أحد من عماله وولاته ، أن يوافى الموسم ليعطى حقه . فالموسم مجتمع تتمثل فيه الأمة بطبقاتها كافة . [1]

وحين أشيعت بعض شكاوى الناس من عماله على الأقاليم ومشى إليه أهل المدينــة يسألونه عن حقيقة ما بلغهم ، قال لهم ما جاءنى عن ولاتى الخاصة وأنتم شركائى وشهود المؤمنين فأشيروا على . فأشاروا عليه أن يبعث رجالا إلى الأمصار للتحقق من هذه الشكاوى فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عبدالله بن عمر إلى الشام ، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر ، وفرق رجالا سواهم ، فرجع القوم كلهم وقالوا «ما علمنا عن أمرائك إلا خيرا» عدا عمار بن ياسر فقد استماله عبــد الله بن سبأ وجماعته إليهم . [2]

ويقول الشيخ عرجون فى كتابه (عثمان بن عفان) [3] لم يكتف عثمان رضى الله عنه بذلك ، بل كتب إلى جميع الأمصار ، إنى آخذ عمالى وموافاتى كل موسم وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته ، وليس لى ولا لعيالى حق قبــل الرعية إلا متروك لهم . فقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون فمن ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى أو تصدقوا إن الله يجزى المتصدقين .

والحقيقة التى أرتضيها وأعتقدها كل الاعتقاد أن عثمان رضى الله عنـه

---

(١) عبقرية الامام ص ٦٦ إلى ٧٧ (٢) المرجع السابق ص ٦٨ .
(٣) عثمان بن عفان (عرجون) ص ٦٩ .
(١) ص ٧٠

تصرف فى حكمه وولايته على المسلمين بما يرضى الله ورسوله . وأن المجتمع الذى وجد فيه عثمان والذى تغير فى عمومه بعد إستشهاد عمر رضى الله عنه الذى ترك لعثمان تراثا ضخما وأقطارا مترامية الأطراف « افتتحها المسلمون وأولئك الأعراب الجفاة الذين انساحوا فى الأرض مع جيوش المسلمين فاتحين غانمين حتى ملئت أيديهم بالدنيا . وأخذت أبصارهم ببريقها . وهؤلاء الأرقاء مردانا وإماء من الأجناس المتكاثرة الذين امتزجوا بالعرب فخدموهم وولدوا لهم فأحسنوا وأساؤوا ، وهذه الخلافات الحزبية والأحزاب السياسية ، ثم هؤلاء الأحداث الذين أقدموا فى بعض المواطن إلى قيادة الناس وولاية أمرهم يسوسونهم، وليس لهم فى الإسلام سابقة ، كل أولئك كون عناصر المجتمع الاسلامى الذى عهد مجلس الشورى بالخلافة عليه ، إلى عثمان بن عفان بعد عمر بن الخطاب».

هذا المجتمع الجديد الذى هو أمشاج من العناصر والأجناس والأفكار والمذاهب والأخلاق والطبائع والغنى والفقر والطموح والزهادة والرضى والسخط والهدوء والثورة الذى ساسه عمر بسياسته الحازمة القوية حتى قتله واحد من الحاقدين عليه إثر مؤامرة دبرت وحيكت مع آخرين، هذا المجتمع هو المسئول عما حدث فى زمن عثمان . فقد عظموا صغائر الأمور وأساؤوا فهم الحقائق ، وخلعوا على كثير من الحوادث والوقائع غير أوصافها،والتى دفعت بعض الأغرار من ذوى المطامع إلى أغراضهم فمشوا إلى الفتنة،وسعت إليهم الفتنة وتجنوا على عثمان واتهموه بالضعف ومحاباة أقاربه . بل ادعوا أنه صلى وهو سكران [1] مع أنه لم يخرج إطلاقا عن نطاق الأصول الشرعية الرحيمة العادلة .

رأى عثمان أن الناس فى عهد عمر لم تنعم سياسة عمر الحازمة القوية من

---

(١) عبقرية الإمام ص ٧٠ .

أن يشكو عماله وأمراءه على الأقاليم، مع أنهم لم يكونوا من أقاربه ، وكانوا من أجلاء صحابة رسول الله ﷺ بل ورآهم فعلوا ذلك فى زمن أبى بكر، وحتى فى زمن رسول الله يشكون الأمراء والولاة . فاختار لهم من وجهة نظره أصلحهم على سياسة الأمور وأخلصهم له نصحاً ومشورة، فكان معظمهم من أقاربه ، وليس هذا مما يعيب عثمان، بل إن عليا رضى الله عنه والذى أقال عمال عثمان وعزلهم عن أعمالهم كان من عماله محمد بن أبى بكر وهو ابن زوجته، وعبدالله ابن عباس وعبيد الله بن عباس وهما أولاد عمه ، ولا يمكن لنا أن نقول إن عليا اختارهم لقرابتهم له ، وهو يعرف عدم صلاحهم ووجود من هو أصلح منهم من وجهة نظر الإمام .

« رأى عثمان أهل الكوفة يشكون سعد بن أبى وقاص قائد الجيش فى خلافة عمر وبطل القادسية وأحد أعضاء مجلس الدولة الأعلى ورهط الشورى الذين رشحهم عمر للخلافة بعده وأحد المبشرين بالجنة وقالوا فى شكواهم . إنه لا يحسن أن يصلى فقال عمر : من يعذرنى من أهل الكوفة إن وليتهم القوى فجروه[1].

ورأى أهل مصر يشكون عمرو بن العاص ، وأهل حمص يشكون سعيد ابن عامر مع أنه من زهاد الصحابة وعبادهم وذوى الحكمة فيهم ، ثم عادوا فشكوا عمير بن سعد مع ورعه وتقلله من الدنيا واكتفائه منها بالكفاف . ورأى أهل البصرة واليمن يشكون أباموسى الأشعرى: وهو أحد أعلام الصحابة وعلمائهم . وكان عمر رضى الله عنه يستبدل لهم بأمرائهم غيرهم ويقول (هان شىء أصلح به قوما أن أبدلهم أميرا مكان أمير، ويقول: أشكو إلى الله جلد الفاجر وعجز الثقة[2] .

(١) عرجون ص ٥٤ .
(٢) المرجع السابق

وقد عزل عثمان بعض الولاة حين اشتكي منهم أهل الأقاليم فعزل مثلا سعيد بن العاص والى الكوفة،وولى عليها أبا موسى الأشعرى تحقيقاً لرغبتهم لكن بعض الحاقدين على عثمان وعلى الإسلام عموما كالسبئية خرجوا إلى الأمصار لإثارة الفتنة وإشعال نارها رغبة فى خلعه ، ونشروا فى الناس أشياء نسبوها إلى عثمان رغبـة فى التشنيع عليه ونفور النـاس من حوله وخروجهم عليه[1] .

وقد وقف عثمان رضى الله عنه على المنبر وهو حاكم المسلمين وإمامهم وفى إمكانه أن يضرب أعناق الخارجين عليه،وأن يشنقهم ويحبسهم كما يفعل بعض حكام زماننا مع معارضيهم والمتصدين لسياساتهم وحكمهم ،وأرسل عثمان إلى الخارجين الذين جاءوا إلى المدينة وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وأشاعوا فى الناس أشيـاء زعموا أن عثمان ارتكبها وقالوا (نريد أن نذكر له أشياء زرعناها فى قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا ما قررنا بها فلم يخرج ولم يدخل، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم ونحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه).

ومع أن هذا الكلام قيل لرسولى عثمان إليهم وأخبراه به حين حاولا إستمالتهما إليهم . إلا أنه حين سمعه ضحك وقال (اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمهم شقوا[2]) .

وحين جاء الخارجون على عثمان إلى المسجد بعد أن نادى : الصلاة جامعة وأقبل على أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا به حمد الله وأثنى عليه وأخبرهم خبر القوم ، وقام الرجلان اللذان أرسلهما إليهم وصدقا على كلامه .

---

(١) راجع مرجون ص ٦٠
(٢) المرجع السابق بتصرف

قال الناس جميعاً اقتلهم فإن رسول الله ﷺ قال (من دعا إلى نفسه أو إلى أحـــد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه) وقال عمر بن الخطاب (لا أحل لـكم إلا ما قتلتموه وأنا شريككم ، فقال عثمان (بل نعف ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحابي أحداً حتى يركب حداً أو يبدى كفراً . إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمت، إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم[1]) .

ثم وقف عثمان يحتج لنفسه ويقول :

(قالوا أتم الصلاة فى السفر وكانت لا تتم ، ألا وإنى قدمت بلداً فيه أهلى فأتممت . أو كذلك ؟ قالوا نعم : وقالوا : حميت حمى وإنى والله ماحميت حمى قبلى والله ماحميت شيئاً لأحد . ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة . ثم لم يمنعوا من رعية أحدا واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم مامنعوا ولا نحوا منها أحدا .

ومالى من بعير غير راحلتين . ومالى من ثاغية ولا راغية وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيراً وشاء ، فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم ، وسألوه أن يقتلهم ، وقالوا : كان القرآن كتبا فتركها إلا واحداً . ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد ، وأنا فى ذلك تابع لهؤلاء . أكذلك ؟ قالوا : نعم وسألوه أن يقتلهم .

وقالوا رددت الحكم[2] وقد سيره رسول الله ﷺ والحكم مكي . سيره

---

(١) المرجع السابق ٦٠ ؛ ٦١

(٢) يقصدون الحكم بن .

وقالوا أعطيت الأرض رجالا وإن هذه الأرضين شاركم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت ، فمن أقام بمأمن من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ، ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ، فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار فى بلاد العرب ، فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى .

فأبى المسلمون من الصحابة الذين سمعوا احتجاج عثمان رضى الله عنه إلا قتل هؤلاء الملحدين المتآمرين ، وأبى عثمان إلا تركهم[1] .

والمعروف : أن عثمان رضى الله عنه عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة وهو أخوه لأمه ، وكان الوليد من عمال عمر بن الخطاب . ولاه عمر على ربيعة بالجزيرة ولم يعزله عنها[2] .

عزل عثمان أخاه الوليد من ولاية الكوفة مع أنه ظل مدة ولايته عليها غازيا مجاهداً يسوس الناس بحزم وحكمة وقوة ، طيلة خمس سنوات كاملة ، واستطاع خلالها أن يوطد دعائم سلطان الإسلام فى أذربيجان . وأرمينية لمجرد أن شاع عنه أنه شرب الخمر ، وحين جاء الخبر إلى عثمان تثبته بالطريق الشرعى . ولما شهد عليه الشهود عزله وأقام عليه الحد بمحضر من أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يقبل عثمان من الوليد طعنا فى الشهود بأنهم موتورون منه لخلاف بينه وبينهم، وقد حلف الوليد لعثمان وأخبره خبرهم . لكن عثمان قال (نقيم الحدود وشاهدا الزور فى النار) ، وقال أيضاً (لا يضيرك ذلك إنما نعمل بما ينتهى إلينا فمن ظلم فالله ولى انتقام ، ومن ظلم فالله ولى جزائه[3].

---

(١) راجع عرجون ص ٦١ ، ٦٣   (٢) عرجون ص ٧٥
(٣) راجع عرجون ص ٧٥ إلى ٧٩ .

رسول الله ﷺ إلى الطائف . ثم رده رسول الله ﷺ فرسول الله صلى الله عليه وسلم سيره ورسول الله رده ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم :

وقالوا استعملت الأحداث ، ولم أستعمل إلا مجتمعا محتملا مرضياً وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم ، ولقد ولى من قبلى أحدث منهم .

وقيل بذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة . أكذلك قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس ما يفسرون .

وقالوا : إنى أعطيت بن أبى سرح ما أفاء الله عليه، وإنى إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخير ، فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم ، أكذلك؟ قالوا : نعم ، وقالوا : أنى أحب أهل بيتى وأعطيهم ،فأما حبى لهم فإنه لم يكن معهم على جور ، بل إنى أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاؤهم فإنى إنما أعطيهم من مالى، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد الناس، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأنا يومئذ شحيح حريص ، أفحين أتت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا ؟ .

وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله :

ولقد رددته عليهم ماقدم على إلا الأخماس ، ولا يحل لى منها شىء فتولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ولا نفلت من مال الله بفلس فمافوقه ولا أتبلغ منه ما آكل إلا من مالى .

بل عزل ابن عمه سعيد بن العاص عن الكوفة بعد توليه الإمارة بعد عزل الوليد ، وولى عليهم أبا موسى الأشعرى الذى اختاروه . وكتب إليهم: أما بعد: فقد أمرت عليكم من اخترتم . وأعفيتكم من سعيد . والله لأقرضنكم عرضى ولأبذلن لكم صبرى . ولأستصبحنكم بجهدى . فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه . أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا تكون لكم عند الله حجة . ولنصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون[1].

أما عبد الله بن عامر الذى ولاه البصرة فإنه لم يوله عليهم إلا بعد أن شكوا أبا موسى الأشعرى أميرهم والذى أعاده عثمان إلى الولاية فولاه الكوفة بدلا من ابن عمه عندما رغب أهل الكوفة فيه . وكان عبد الله من فتيان قريش ، صادق العزيمة ذو حزم وسياسة، جلدا على الأحداث ، فغزا بأهل البصرة ووجههم إلى الجهاد فى سبيل الله ، وفتح بهم البلاد وأسكت الثورات . ووطد فى فارس وما ثاقبها قواعد الإسلام حتى قيل له ما فتح الله على أحد مثلما فتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان ، فقال : لاجرم لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج معتمرا من موقفى هذا فأحرم بعمرة من نيسابور[2] .

وأما قيس بن سعد الذى ولاه الخليفة عثمان على مصر وقالوا إنه ولاه لقرابته له ، فيكفى فيه ما قاله العقاد عن عزل الإمام على له ، قال : أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر فهى غلطة من غلطات الامام يقل الخلاف فيها لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ، وكان كفؤا

---

(١) المرجع السابق ص ٨١
(٢) المرجع السابق ٨٢

بمعاوية وعمرو بن العاص [١] .

والمعروف أن ولاية السياسة وإدارة الحكم إنما هي من شأن الإمام لا ينظر فيها إلى ثراء أو شرف قبيلة أو قدم صحبة أو كبر سن ، بل النظر فيها إلى العلم والكفاية والخبرة والقدرة على تدبير الأمور ، ولذلك قيل أن ثلاثة أرباع عمال النبي صلى الله عليه وسلم كانوا من بني أمية لأنه كان يطلب للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغناء ولم يطلب أهل الجهل بها والضعف عنها [١] .

وقد استعمل الرسول أبا سفيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب بعد إسلامه مباشرة . وكان هناك من هو أقدم من أبي سفيان إسلاما وأكثر منه علماً . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى الكفاية الشخصية عند تولية الأعمال ، وسار على هذا النهج أبو بكر وعمر بن الخطاب في سياستهما وتوليتهما للعمال وقادة الجيوش حيث نظروا إلى أهل القوة والقدرة في أشتات القبائل وكان كثير منهم ممن تأخر إسلامه [٢] .

وقد رأينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول : من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين [٣] .

فأنت ترى أن الرسول قال : فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين

---

(١) عبقرية الامام ص ١٢١
(٢) الادارة الاسلامية في عز العرب ص ١٤
(٣) المرجع السابق ص ١٥

والمطلوب فى الولاية توفر ركنين : القـوة والأمانة [1] ويقول ابن تيمية [2] .

(والقوة فى كل ولاية بحسبها . فالقوة فى إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها فإن الحرب خدعة وإلى والقدرة على أنواع القتال من رمى وطعن وضرب وركوب وكر وفر ونحو ذلك ، ثم يقول : والقوة فى الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وإلى القدرة على تنفيذ الاحكام — والامانة : ترجع إلى خشية الله وألا يشترى بآياته ثمنا قيلا وترك خشية الناس .

ويقول ابن تيمية عند حديثه عن تعيين الأصلح فى كل ولاية بحسبها . [1]

(إجماع القوة والأمانة فى الناس قليل ، ولهـذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول اللهم إليك أشكو جلد الفاجر وعجز الثقة) . فالواجب فى فى كل ولاية الأصلح بحسبها . فاذا تعين رجلان — أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية — أقلهما ضرراً فيها ، فيقدم فى إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينا ، كما سئل الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو أحدهما قوى فاجر والآخر صالح ضعيف ، مع أيهما يغزى ؟ فقال : أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين . . يغزى مع القوى الفاجر . وقد قال النبى ﷺ إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وروى بأقوام لاخلاق لهم فاذا

---

(١) السياسة الشرعية ابن تيمية ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦ - ٢٧ .

(٣) « « « « « « ٢٧ ، ٢٨

لم يكن فاجرا كان أولى بامارة الحرب ممن هو أصلح منه فى الدين إذا لم يسد مسده » .

وأخذ ابن تيمية يستدل على جواز إمارة الأقل تدينا ممن هو أصلح منه فى الدين [1] باستعمال النبي خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم مع أنه كان يعمل ما ينكره النبي كقتله لبنى جذيمة وأخذه أموالهم بنوع شبهة حتى « قال الرسول فيه (اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل خالد). ويرفض الرسول تولية أبى ذر حين طلب الولاية لأنه رآه ضعيفاً وقوله له (يا أباذر أنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لاتأمرن على أثنين ولاتولين مال يتيم) مع أنه روى عن رسول الله ﷺ قوله فيه . (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر) .

كذلك يستدل أيضاً بتأمير النبي عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل استعطافا لأقاربه الذين بعثه إليهم مع وجود من هو أفضل منه :

كذلك تأمير أسامة بن زيد لأجل ثأر أبيه ، ثم يقول : وكذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة راجحة مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو أفضل منه فى العلم والايمان « . : انتهى . . . » .

وهكذا نرى أن عثمان رضى الله عنه بتعيينه من عينهم من الولاة وإن كانوا أقاربه إلا أنه كان يرى فيهم الكفاية والقوة على العمل . وكان هؤلاء موضع ثقته فكان من الحكمة السياسية حينئذ أن يعتمد عثمان عليهم وهم عصبيته وقومه، لأنه كان يعتقد أنهم أحرص الناس على انجاحه و بلوغ — مقاصده فى القيام على سياسة ، الأمة ، سياسة تحقق مقاصد الشارع فى شيوع العدل والرحمة بين الناس .

---

(١) راجع السياسة الشرعية من ص ٢٨ الى ٣٠

وهل كان عثمان رضى الله عنه يريد غير العدل والإنصاف ؟ . إن عثمان لم يكن عاجزاً عن البطش بكثيرين من زعماء الفتنة . ولكن رأيناه يرفض قتل الخارجين عليه وقد حكم عليهم المسلمون بالقتل حين عرفوا إلحادهم واتهامهم للخليفة ظلما وعدوانا .

بل إنا نراه حين يقول له الخارجون عليه فى أثناء حصارهم له (فلسنا منصرفين حتى نعزلك ونستبدل لك . فإن حال من معك من قومك وذوى رحمك وأهل الانقطاع دونك بقتال قتلناهم حتى نخلص إليك) ، فقال لهم : (ولعمرى لو كنت أريد قتالكم لقد كنت كتبت إلى الأجناد فقادوا الجنود وبعثوا الرجال[1]) .

بل إنه رفض أن يذهب مع معاوية إلى الشام حين خوفه من الهجوم عليه وقال لمعاوية . أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء وإن كان فيه قطع خيط عنقى . فقال له معاوية : فأبعث إليك جندا منهم يقيم بين ظهرانى أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة ،فقال له عثمان . أنا أقتر على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل الهجرة والنصرة ؟ فقال معاوية : ما معناه : (والله إنك لتغتالن أو لتحدثن عليك ثورة) قال عثمان رضى الله عنه . (حسبى الله ونعم الوكيل[2]) .

لم يكن عثمان رضى الله عنه أنانيا يحب نفسه وإنما كان يرى أن مصلحة الأمة وفداءها بنفسه حفظا لكيانها وصونا لكرامتها أهون عليه من الفرقة وسيادة الفوضى واختلال النظام .

---

(١) راجع عرجون ص ٤٩

(٢) المرجع السابق

فلو كان عثمان أنانيا لدفع بمن أرادوا الزود عنه من شباب المسلمين وأبناء المهاجرين والأنصار إلى الخارجين عليه خوفا على حياته ؛ لكنه أراد ألا تقوم حرب أهلية بسببه، فرأى أن يفدى الأمة بنفسه صابرا محتسبا .

وقد روى ابن عبد البر فى الاستيعاب عن أبى هريرة[1] . قال : إنى لمحصور مع عثمان رضى الله عنه فى الدار فرمى رجل منا . فقلت يا أمير المؤمنين الآن طاب الضراب . فقتلوا منا رجلا : فقال عثمان : عزمت عليك يا أباهريرة إلا رميت سيفك ، فإنما تراد نفسى وسأقى المؤمنين بنفسى .

ويروى العقاد فى عبقرية الإمام على[2] : أن الثوار حين هجموا على الخليفة منعهم الحسن بن على وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن سعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة واجتلدوا ، فمنعهم عثمان وقال لهم أنتم فى حل من نصرتى وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله .

(ويقول بن خلدون فى المقدمة[3] : « إن الأمر كان فى أوله خلاف ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وان أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة ، فهذا عثمان لما حصر فى الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة للألفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدت إلى هلاكه » :

---

(١) نقلا عن الشيخ عرجون فى كتابه عثمان بن عفان ص ٦٢
(٢) ص ٨٠
(٣) ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

لماذا إذن لم يتنازل عثمان عن الخلافة ؟

المعروف أن هؤلاء الخارجين ليسوا هم كل الأمة ، وإنما هم أصحاب أهواء خاصة . ولو أجاب عثمان الخارجين عليه إلى خلع نفسه من الخلافة ، لأصبحت عروش الإسلام ألعوبة فى أيدى المفتونين الساعين فى الأرض بالفساد ولسادت الفوضى ، واختل نظام البلاد والعباد ، ولكان ذلك تسليطا للسوقة والغوغاء على الولاة والحكام .

ولقد رأى عثمان أنه لو أجابهم لألقى بأس الأمة بينها وشغلها بنفسها عن أعدائها وذلك أيسر طريق لإفنائها ، فلم ير أمامه سوى نفسه يفدى بها الأمة ويحفظ كيانها أن يتزعزع ، ويصون بنيانها أن يتهدم ، ويدعم بهذا الفداء نظامها الإجتماعى فى أعلى مظاهر الحكم ، ويحمى سلطانها الذى تعامل به أن تمتد إليه يد العبث والفوضى[1] .

أرأيتم ما قاله عثمان للأشتر النخعى وهو رأس كبير من رؤوس العرب الخارجين عليه ، لقد قال : للأشتر (أما أن أخلع لهم أمرهم فما كنت لأخلع سربالا سربلنيه الله فتكون سنة بعدى كلما كره القوم إمامهم خلعوه[2] .

لم تكن الثورة على عثمان ثورة شعب بأكمله ، وإنما كانت ثورة صنعتها المطامع والشهوات ، وقادها المنحرفون من أهل الإلحاد والفجور وقواها وخطط لها عبد الله بن سبأ اليهودى ، واندفع فى تيارها شباب طائش لم يشرب قلوبهم حب الإيمان ، وليست لهم فى حياتهم تجارب تحكمهم ، مع مجموعة من أجلاف

---

(١) عرجون بتصرف ص ٦٣

(٢) راجع عرجون ص ٥٩

(٣) عرجون ص ٦٣

الأعراب والمنافقين وذوى المطامع التى لا ترجو لله ولا لدينه وقارا : والناس جبلوا على التغيير ، لمجرد التغيير ، وهم يكرهون أن تسير البلاد على وتيرة واحدة ، أو أن يظل الحاكم لفترة طويلة من الزمان مهما كانت نزاهته وعدله وأمانته .

ولا بد للحاكم ، أى حاكم ، من طبقة من الناس تكرهه وتكيد له ، إما لحقدهم عليه عصبية لغيره . أو لأنهم أضيروا على يديه لأى سبب من الأسباب ، لأنه لا يمكن للحاكم أى حاكم . إرضاء كل الشهوات والنزعات .

والجماهير كما وصفهم الإمام على[1] (اتباع كل ناعق ، وأنهم هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا) .

وعثمان رضى الله عنه كان يعرف أن الثورات المتكئة على المطامع والشهوات تعمل على إثارة حرب لا تبقى ولا ولا تذر . وكان يؤمن أشد الإيمان بأن التنازل عن السلطة فى مثل هذه الحالة إنما هو تضييع لحق الأمة فتمسك بالبقاء إيمانا منه بأن هذا المبدأ من أقوى دعائم الحكم ونظام الاجتماع فى الدولة .

أليس فى هذا المبدأ وقف الثورات عند حدود التنبيه والإيقاف ، فلا تترك حتى تؤدى إلى الهدم والتقويض ؟ اللهم إلا إذا كانت دوافع هذه الثورات الوقوف فى وجه ظلم واستبداد وطغيان يمزق كيان الأمة فى عقائدها ، أو يهدم دعائم بنيانها الاجتماعى ، وكان الذين يقودون هذه الثورات ويمسكون بزمامها من

---

(١) عبقرية الإمام ١٣٠

المصلحين المخلصين الذين يهدفون هدم الفساد ليبنوا صروح الأصالة، حين ذاك تكون الثورة هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الأمة وإصلاحها .

ولم تكن الثورة على عثمان من هذا القبيل ، ولم يكن قوادها ولا القائمين عليها من دعاة الإصلاح الراغبين فى هدم الفساد .

ولكنى أستطيع أن أقول : إنه كان لا بد أن يحدث هذا تدريباً وتعليما لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ألم أقل إن هذه الفترة من تاريخ الإسلام كانت فترة تشريع وتدريب عملى للمسلمين ولأتباع كل دولة إسلامية ؟ فهذا المبدأ الذى وضعه عثمان بن عفان بموقفه الفذ من هذه الثورة وصاغه فى عبارته الصريحة الواضحة ، (ما كنت لأخلع سربالا سربلنيه الله فتكون سنة بعدى ، كلما كره القوم إمامهم خلعوه) .

كان هذا المبدأ من أخطر المبادىء الدستورية فى نظام الحكم الأعلى للدولة، فنحن لا ندرى ماذا تكون الحال لو أن كل ثورة انتهت إلى خلع الحاكم الأعلى للدولة ؟ والثورات أكثر ما تكون ممن لا يعقلون ، ولكنهم ينقادون ويندفعون ولا يسألون إلى أين يساقون .

ونحن لا نستطيع هنا أن نرد على كل المفتريات والأكاذيب والتلفيقات التى نسبت إلى عثمان رضى الله عنه ، فليس فى هـــذا البحث مجال لسردها والرد عليها .

ويكفى أن أقول إن كثيراً من السادة الباحثين المنصفين أثبتوا بالوقائع

والأدلة كذب هذه المفتريات ، وردوا على كل افتراء نسب إلى عثمان —
وقد كان كتاب الأستاذ الشيخ محمد الصادق عرجون (الخليفة المفترى
عليه عثمان بن عفان من أهم الكتب التى ألفت فى عثمان بن عفان ودافعت
عن موقفه فى كل مناسبة ، فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه .

والله أعلم .

(هزة الردة وموقف الحكومة الاسلامية منها)

أولا : أبو بكر ، الحكومة الإسلامية :

وجد أبو بكر بعد بيعة المسلمين له بالمسجد أنه أصبح مسئولا عن الدولة الإسلامية . وأنه قد طوق بأمر عظيم لا قوة له عليه إلا بمعونة الله ومعونة المسلمين وخيارهم من أصحاب رسول الله ﷺ،فقد أشفق أن ينتظر المسلمون منه أو يكلفوه أن يسير فيهم سيرة النبي ﷺ فأعلن إليهم أنه لا يستطيع ذلك ، وطلب إليهم ألا ينتظروه منه ، ثم أعلن لهم كذلك أنه ليس إلا واحداً منهم وأنه ليس خيراً منهم ، وسألهم أن يعينوه إن أحسن وأن يقوموه إن أساء والتزم أمامهم بطاعة الله ورسوله وأبرأهم من السمع والطاعة له إن عصى الله ورسوله ، وأعطاهم العهد على أن يكون الضعيف عنده قوياً حتى يأخذ له الحق ، وأن يكون القوي عنده ضعيفاً ، حتى يأخذ الحق منه ، ثم أنبأهم بأنه متبع وليس بمبتدع [1] .

وقد تحرى أبو بكر جهده ما فعله الرسول وما تركه،ففعل ما فعله وترك ما تركه ، وكان لايدع من أمر رسول الله ﷺ شيئاً إلا أنفذه مهما كانت الظروف ومهما تكن العواقب [2] .

حتى العمال الذين استعملهم الرسول والأمراء الذين أمرهم ، إحتفظ بهم أبو بكر إلا من أبى من هؤلاء العمال أن يعمل لغير رسول الله، فاعتزل العمل،وكان أبو بكر يرى ضرورة تنفيذ كل ما كان الرسول ﷺ يرغب فى تنفيذه ،

---

(١) الشيخان . دكتور طه حسين ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠

ولذلك صمم على تنفيذ جيش أسامة الذى كان النبى قد جهزه قبل موته لغزو بلاد الروم برغم معارضة بعض المسلمين خوفاً من هجوم العدو على المدينة أثناء وجود هذا الجيش بعيداً عنها، خصوصاً بعد أن ارتد العرب وتحفزوا للإنقضاض على المدينة فى أى لحظة ، ولكنه لم يسمع لإلحاحهم عليه وقال : (والله لو خفت أن تتخطفنى السباع لما تأخرت عن إنفاذ أسامة وجيشه)[٢] .

وقال (والله لأن تخطفنى الطير أحب إلى من أن أبدأ بشىء قبل رسول الله عليه السلام[٣] .

ولم يوافق على تغيير أسامة وتولية قائد آخر أسن منه ، وقال لعمر الذى جاء إليه يكلمه ويفضى إليه بما رغب فيه الأنصار (ثكلتك أمك يابن الخطاب ، يوليه رسول ﷺ وأعزله أنا)[٤] .

وكان أبو بكر لا يستقل بالحكم وحده وإنما يشاركه فى إدارة الدولة بعض الصحابة ، وإذا نزل به أمر إستشار فيه أهل الرأى وأهل الفقه ، فحين وسدت الخلافة إلى الصديق قال له أبو عبيدة (أنا أكفيك الميرة وقال له عمر وأنا أكفيك القضاء ، فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان ولم يختصم إليه أحد[٥] ، وكان أبو بكر يستشير عمر وعثمان وعليا وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكان هؤلاء الصحابة يفتون

---

(١) الإدارة الاسلامية (كرد على ص
(٢) الشيخان ص ٥٣
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٧٤
(٤) الشيخان ص ٥٣
(٥) الادارة الاسلامية ص ٢٣

فى خلافة أبى بكر وصارت فتوى الناس إليهم[١] .

ولم تتجاوز رقعة الدولة الإسلامية فى أيام أبى بكر أكثر من جزيرة العرب وقد قسمت إلى ولايات أو عمالات ، هى : مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت وخولان وزبيد والجند ونجران وجرش والبحرين[٢] .

ثانيا حروب الردة وأسبابها وأثرها على الدعوة :

امتحنت الدعوة الإسلامية إمتحاناً قاسياً وخرجت هذه الدعوة من هذا الإمتحان القاسى بشهادة الواقع والحق أقوى مما كانت عليه ، تسير عليها الحياة الصحيحة التى لا زيف فيها ولا إصطناع .

نعم : خرجت الدعوة الإسلامية من فتنة الردة بعد أن كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين ، وكشفت أيضاً عن الإيمان المتين والفداء واليقين المبين ، فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية ، جللت بها صفحات الأديان ، وجاءت الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب (أحد المتنبئين) سأله ، ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له : أنا أحدثك ما يهزمنا ، إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت قبله صاحبه ، وإننا لنلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه[٣] .

هذا الإمتحان القاسى للدعوة الإسلامية كان إمتحاناً أيضاً المسلمين جميعاً وعلى رأسهم أبو بكر ، الذى أظهر فى هذه المحنة أخص صفتين إمتاز بهما ، وهما الاطمئنان إلى ما وعد الله فى غير تردد أو تعرض للشك أو الوهن ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤
(٢) « «
(٣) عبقرية الصديق (العقاد) ص ١٦٤

والثبات فى حزم وعزم لما يلم به من المكروه حتى ينفذ منه ويمضى فى أمر الله إلى أن يبلغ النصر .

ولقد ثبت أبو بكر والمسلمون لهذه المحنة القاسية وانتصروا عليها . لا لشىء إلا لأنهم صدقوا الله عهدهم وأخلصوا له قلوبهم ونفوسهم وضمائرهم .

ومن يقرأ تفصيل حروب الردة وما كان لخيار المسلمين فيها من البلاء يملكه الإعجاب بأولئك الأبطال الذين لم يرهبوا شيئاً فى سبيل نصر الدين وإعزازه وإعادة الجزيرة العربية إلى الإسلام كما كانت قبل وفاة النبى ﷺ .

وكأن الله تبارك وتعالى أراد بردة العرب بعد وفاة الرسول ﷺ وخروجهم على الحكم الإسلامى ، إمتحان المسلمين لمعرفة مدى إيمانهم وإستمساكهم بالدعوة وإخلاصهم للدولة التى تحمل إسمه ، وكأن الله تبارك وتعالى أراد أن يقول لأصحاب رسول الله ﷺ : — هذا هو الإسلام . وهذا هو نظام الحكم فيه ، وقد أراكم الرسول ﷺ هذا وعرفتموه منه ، وعرفتم ما يجب أن يكون لحفظ هذه الدولة والمحافظة على هذه الدعوة ، ولن يظل الرسول ﷺ حياً للأبد ، ولقد انتهت مهمته ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وعليكم أنتم أيها المسلمون حمل هذه الأمانة وتبليغ هذه الرسالة .

وقد قلت فى مكان سابق إن إختيار الله لهذه الأمة بالذات ، ليكون من بينها هذا الرسول ، كأنه إختيار لهم جميعاً لحمل الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ، ومهمة الرسول مقصورة على تبليغ الرسالة ورسم الخطوط العريضة فقط — وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد إستطاع وحده بعون من الله تبارك وتعالى أن يجمع حوله الأعوان والأتباع وإن يوحد بين القبائل المتفرقة وأن يؤسس من هؤلاء دولة قوية ، وأن ينشىء للإسلام هذه

الدولة التي تحميه وتدعو له . فإن على المسلمين من بعده أن يحافظوا على هذه الدولة . وأن يستميتوا في سبيل بقائها من أجل الدعوة .

وهكذا رأى أبو بكر نفسه ووجد المسلمون أنفسهم مضطرين للعمل بكل قوتهم من أجل الحفاظ على دولة الإسلام ودعوته ، وأن يثبتوا لهذه المحنة القاسية ، ثم نصرهم الله لأنهم صدقوا الله عهدهم ، وحين بذلوا أنفسهم لنصر الله أسخياء بها قبل الله منهم وصدقهم وعدهم ورزقهم النصر كما قال عز وجل في سورة محمد : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[1] .

ولم يكن غريباً أن يقول أحد الكتاب[2] : إن الدولة الإسلامية تأسست في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، لأنه وطد العقيدة وسير البعوث فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الردة وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بسير البعوث وفتح الفتوح فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين .

والحقيقة أن الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية رأت من أبي بكر منذ أن أسلم إلى أن تولى الخلافة إلى أن مات خير نصير ، ويعتبر أبو بكر ركن من أركان الدولة الإسلامية بجهاده بالحق مؤسساً لها مشاركاً في بنائها بسلطان العقيدة قبل سلطان الحكومة والكلمة المسموعة .

وهكذا شاء الله أن تتوطد على يدي الخليفة الأول دعائم الدولة الإسلامية الناشئة في سياستها الداخلية وسياستها الخارجية ، وشاء الله أن يظل الإسلام بناءاً شامخاً ويكون أبو بكر هو أول من يقوم عليه بعد بانيه .

---

(١) آية ٧

(٢) عباس العقاد (عبقرية الصديق ص ١٣٠) .

ولقد صنع أبو بكر فى الفترة القصيرة التى عاشها ما جعله يحق من عباقرة المسلمين ومن أبطال الإسلام المعدودين ، بل شاء القضاء أن يكون أبو بكر هو بطل الإسلام فى حروب الردة من غير مدافع، فهو فيها صاحب الشرف الأول بين ذوى الرأى ، وذوى العمل فى تلك الحروب ، ولذلك قال أبو رجاء البصرى (دخلت المدينة فرأيت النـاس مجتمعين ورأيت رجلا يقبل رأس رجل ويقول له أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا . قلت : من المقبل ومن المقبل ؟ قالوا : هو عمر يقبل رأس أبى بكر فى قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين[1] .

ولابد لنـا من وقفة ولو قصيرة أمام الردة وأسبابها وهى من أهم حوادث الصدر الأول فى الإسلام بعـد وفاة الرسول ﷺ ، و كما قلت كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن تحدث هذه الردة ، إمتحاناً للمسلمين ، وليقيموا دعائم دولتهم ، ويحافظوا عليها بأنفسهم معتمدون على إيمانهم وإخـلاصهم أولا وقوتهم واستعدادهم ثانياً ، متحملين بأنفسهم المسئولية ، محافظين على هـذه التركة التى خلفها لهم المصطفى ﷺ .

أسباب ارتداد العرب عن الإسلام :

كان كثير من القبائل يرى أن الإسلام لم يأت ليقيم دولة ، وإنما جاء كدين فقط ، وحين تولى أبو بكر أعباء الخلافة بعد وفاة النبى ﷺ ووجد العرب أنفسهم خاضعين لسلطة مركزية يؤدون إليها الزكاة وعليها مراقبتهم كبر عليهم ذلك وخيل إليهم أن الزكاة ما هى إلا إتاوة، خصوصاً وأن هـذا النظام لم يألفه العرب فى الجاهلية،ورأوا أنه لم يعد هناك مبرر لدفعها خصوصاً

(١) عبقرية الصديق ص ١٤٠ ومثل ذلك مع إختلاف فى اللفظ (الإمامة والسياسة) ص ٧

وأنهم قبلوا أداءها للرسول على إثر دخولهم في الإسلام، أما وقد مات فليس لمن يخلفه من أهل المدينة الحق في المطالبة بها، وقد فهم بعضهم من الآية القرآنية (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[1]. أن هذا خاصاً برسول الله ﷺ فقال قوم منهم نقيم الصلاة ولا نؤدي الزكاة فرد عليهم أبو بكر بقوله: (والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه[2].

وقد كبر على هذه القبائل العربية بعد تولية أبي بكر أن تكون خاضعة لسيادة قريش، لاعتقادهم أنها سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين، وتطلعوا إلى استرداد ما كانوا يتمتعون به من استقلال ذاتي[3].

وليس من شك في أن إفتتان المسلمين بشخصية الرسول ثم مفاجأتهم بموته كان من أبرز عوامل الإرتداد، فقد كانت حكومة الرسول ﷺ تعتمد إلى حد كبير في سلطتها التنفيذية على عقيدة الناس، وفي أن هذا النبي إنما يصدر في أحكامه وتصرفاته عن وحي الله وأمره، كما كان في حكمة الرسول وتسويته بين أبناء القبائل المختلفة وعدم خضوعه لنزعات النفس، وميلها إلى إيثار الأهل والعشيرة، وفي محوه العصبية والشعور القبلي، كان في هذا كله ماسهل على العربي طاعته والإذعان له وسهل على القبائل أن تنضوي تحت لوائه وأن تدين له بالزعامة، بل لقد كان من إفتتان بعض العرب بشخصية الرسول أنهم ما كانوا يستطيعون أن يصدقوا بموته، ورأوا أن هذا النبي الذي كان يقوم بالسفارة عن الله عز وجل ويبلغهم أمره ونهيه ويتمتع بالعصمة من الخطأ قد فارقهم إلى ربه،

(١) التوبة (١٠٣).
(٢) الخلفاء الراشدون (دولة الإسلام الأولى د: أحمد مجاهد مصباح) ص ٤١
(٣) الحياة السياسية للدولة العربية (الخربوطلي) ص ١٨

وليس ثمت إنسان فى العالم يتصف بهذه الصفات التى كانت الضمان الوحيد لمساواة القبائل بعضهم ببعض وجعل الناس كأسنان المشط[1] .

و كان من أسباب الردة أيضاً تلك العصبية القبلية التى كانت لها اثر واضح فى حركة المرتدين ، فقد « سئم العرب سيادة قريش التى استمرت فى الجاهلية زمناً طويلا بما كان لها من قوة ومركز دينى ممتاز بلغ ذروته بإرسال النبى صلى الله عليه وسلم من بينها ، واعتقد العرب لطول خضوعهم لقريش أنها سلبتهم حريتهم باسم الدين ، وبدا هـذا الأمر واضحاً فى سلوك تلك القبائل التى أسلمت أخيراً خشية حراب المسلمين ، فإنها عنـدما رأت الفرصة سانحة إلتفت حول زعمائها بغية التحلل من سلطان قريش[2] .

ويستدل الدكتور احمد مجاهد مصباح على أن العصبية القبلية لعبت دوراً كبيراً فى ردة العرب على ما قاله عيينة بن حصن الفزارى زعيم غطفان لقومه بعد الردة[3] . « إنى لمجدد الحلف الذى كان بيننا وبين أسد فى القديم ومتابع طليحة ، والله لأن نتبـع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش » ويدلل على ذلك أيضاً بالتفاف قبيلة أسد حول طليحة والتفاف بنى حنيفة حول مسيلمة الكذاب ، حتى لقد قال له طلحة النمـــرى (أشهد إنك كاذب وإن محمداً لصادق ، ولـكن كذاب ربيعة أحب إلينـا من صادق مضر)[4] .

وليس من شك فى أن هذه القبائل لم تـكن على بينة من أمر دينهم ولم تـكن تعاليم الإسلام قد ثبتت فى نفوسهم كما ثبتت فى نفوس المتصلين برسول

(١) تاريخ الإسلام السياسى (حسن إبراهيم) ص ٣٤٤ جـ ١
(٢) الخلفاء الراشدون (د : أحمد مجاهد مصباح ص ٣٨٢
(٣) المرجع السابق
(٤) « « ص ٣٩

الله وأصحابه من أهل مكة والطائف والمدينة ، بل كانت حالهم كما بين الله تعالى ذلك بقوله (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم[1]) .

فلا عجب أن يتخذ هؤلاء القوم من موت الرسول فرصة للتخلى عن بعض الفروض الإسلامية .

ولقد كانت هذه العصبية القبلية موجهة بصفة خاصة إلى قبيلة قريش ، وقد ظنت بعض القبائل أو لعلها اعتقدت أن قريشا إذا وليت الخلافة فسوف تحيلها ملكا عضودا ، ومعروف أن القبائل العربية كانت دائما تتنافس وتتنازع على السيادة وعلى أن يكون لها دائما مكان الصدارة ، ولعلهم ظنوا أن من يخلف النبى فى الحكم سيحكم على هواه ومن أجل مصلحة أهله وعشيرته . والخلافة ستعلى من شأن القبيلة التى ينتمى إليها الخليفة وتغض من شأن غيرها من القبائل فيميل ميزان العدل بين الناس .

ولعل محاولة الأنصار إختيار واحد منهم والاستئثار بالحكم دون القرشيين دليل على وجود هذه العصبية فى الجزيرة العربية والتى ظلت موجودة فيها برغم أن الإسلام جاء لتفتيت هذه العصبية (وإن كان الإسلام قد استطاع أن يخفف من حدتها إلى حد كبير) وقد رأت هذه القبائل المهاجرين والأنصار يتنازعون هذا الأمر فيما بينهم ، يقول المهاجرون منا الأمراء ومنكم الوزراء فيقول الأنصار بل منا أمير ومنكم أمير ، فيئست هذه القبائل وضاع أملها فى الخلافة ، وأعلنت العصيان ورفض أكثرهم أن يخضعوا لسلطان أبى بكر[2] ولعل بعض هذه القبائل كان يتمنى أن تكون له السيادة بعد وفاة النبى ﷺ

---

(١) سورة الحجرات : ١٤

(٢) التاريخ الإسلامى حسن إبراهيم ص ٣٤٥ ج ١ .

فلما رأوا قريشا قد استأثرت بها ، وأقنعت الأنصار وهم أهل المدينة الأصليين بضرورة أن تكون الخلافة في قريش ، وأيقنوا أن لا أمل لهم فيها أعلنوا التمرد والعصيان ، خصوصاً وقد رأينا بعض القبائل حين كان الرسول ﷺ يعرض عليهم الإسلام يشترطون على رسول الله أن يكون الأمر لهم من بعده .
فقد عرض النبي ﷺ نفسه في مكة على بني عامر بن صعصعة ، ودعاهم إلى الله فقالوا له (أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك يكون لنا الأمر من بعدك؟) إلا أن الرسول رفض وقال « الأمر لله يضعه حيث يشاء » فقالوا له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك[1] ، ولم يسلموا .

ولقد كانت هذه العصبية سببا من أسباب الثورة على عثمان، وكانت هي السبب المباشر في القضاء على الخلافة وتحول الحكم إلى بني أمية ، ثم بني هاشم ثم بني أمية ، وبرغم كراهية كل فريق منهما الآخر إلا أنهم إتفقوا على أبي بكر حين ما تولى الخلافة[2] .

ولما كانت النبوة هي السبب المباشر في سيادة قريش في نظر مذحج وبني حنيفة وبني تميم، فليكن لهم أنبياء، ليكونوا ملوكا، وإذا لم تقر قريش والمدينة خاصة، بنبوة هؤلاء فيجب أن يفرضوا نبوتهم بحد الحسام، هكذا فكر أدعياء النبوة الكاذبة وقبائلهم المغيظة المحنقة من خلو أيديها من السلطان الذي أنعم الله به على مهاجرة قريش بالإيمان والإسلام لا بالخداع والتضليل والبهتان[3] .

---

(١) حياة الصحابة ص ٨٤ ج ١
(٢) الدولة العربية (الخربوطلي) ص ٣٦ .
(٣) عصر الراشدين (دكتور عبد الحميد بخيت) .

والمعروف أن الإسلام لم تعرفه هذه القبائل إلا في أخريات عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . بعد حضور وفودهم في العام التاسع من الهجرة لإعلان ولائهم للرسول وخضوعهم للإسلام ، ولاشك أن كثيرا من هذه القبائل كانت لا تعرف من الإسلام غير اسم محمد والقرآن، ولم يكن في كل الحجاز من متحمس لدين الإسلام غير أهل المدينة من الأنصار وأهل مكة من المهاجرين[1] .

ويقول الدكتور (فيليب حتى) الواقع أن المقاطعات التي أسلمت في حياة النبي وخضعت لسلطته لم تتجاوز على ما نعتقد ثلث الجزيرة وذلك لصعوبة المواصلات ، ولعدم قيام الدعوة المنظمة ولقصر المدة الواقعة بين البعثة ووفاة النبي ، والحجاز نفسه لم يسلم بأكمله حتى سنة أو سنتين قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم[2] .

ولقد هم أهل مكة نفسها بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ على أم القرى ، فتوارى منهم ، ولولا أن قام فيهم سهيل ابن عمرو ، فقال لهم بعد أن ذكر لهم وفاة النبي ﷺ إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رأينا منه خروجا ضربنا عنقه[3] لترددوا في موقفهم، على أن سهيلا أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيباً كان له أثره فقال (والله ليتمن عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ[4]) .

---

(١) التاريخ السياسي للدولة العربية (د : عبد المنعم ماجد ص ١٤٥) .
(٢) العرب ص ٦٣ .
(٣) حسن ابراهيم ص ٣٤١ ج ١
(٥) المرجع السابق .

وربما كانت العصبية أيضاً هى السبب فى رجوعهم إلى الاسلام بعد ردتهم بعد سماعهم بهذه الكلمات التى قالها سهيل ، خصوصا وقد رأوا الأمر فى المدينة قد آل إلى أبى بكر وإلى أبناء مكة من قريش ، فاطمأنوا إلى ما ذكره سهيل من حديث رسول الله ﷺ فاستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه .

وكادت ثقيف أيضاً بالطائف أن ترتدلولا أن عثمان بن أبى العاص عامل النبى عليهم وقف موقفاحازما وأخذ يستثير حميتهم وحماستهم للإسلام ويذكرهم بموقف الرسول منهم بعد حنين ، ويذكر لهم ما بينهم و بين أهل مكة من أواصر النسب والقربى ويقول لهم : يأبناء ثقيف كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتد[1] .

لتستسلم ثقيف بالإسلام ولعل قيام أبى بكر بالخلافة ونهوض أهل المدينة إلى جانبه فى أمرها قد كان له من الأثر فى ثقيف مثل ما كان له فى أم القرى[2] .

وليس غريبا أن تحمل العصبية العرب على ركوب هذا الأمر الصعب والإرتداد عن دين الله من أجل حرمانهم من الخلافة فنحن نعلم أن العصبية من أهم العوامل وأبعدها أثرا فى القبائل التى أسلمت أو حاربت الإسلام فى عهد الرسول فالأوس والخزرج قبلوا الإسلام لأنهم سيعتزون به على اليهود الذين كانوا يدلون عليهم بدينهم وكتبهم ، ويتوعدونهم بقتلهم قتل عاد وإرم حينما يبعث نبى آخر الزمان وهؤلاء اليهود والنصارى إنما أعرضوا عن الإسلام

---

(١) المرجع السابق ٣٤٦ .
(٢) الصديق أبو بكر (هيكل) ص ٧٦
(٣) حسن ابرهيم ٤٤٧ .

ونفروا منه لأنه لم يوح إلى رجل منهم وحاربت القبائل الأخرى المشهورة مثل هوازن وثقيف الإسلام ، خشية أن يظهر عليها فيخضعها كما أخضع القبائل الأخرى .

ولا يعنينا هنا أن نتحدث عن المعارك التى دارت أو الجيوش التى أرسلها لقتال هؤلاء المرتدين وفهذا محله كتب التاريخ ، ولـكن يعنينى هنا فقط ذكر ما يتعلق بوصايا أبى بكر لقوادة الذى عقد لهم ألوية القتال ورمى بهم إلى المرتدين ، فقد عقد أبو بكر ألوية القتال وكلف أحدعشر قائداً أمرّهم على أحد عشر جيشا ، لمحاربة هؤلاء الخارجين على الدولة ودينها ، وإن كان لايخفى أن هذه الجيوش التى أرسلها أبو بكر لمحاربة المرتدين كانت قليلة جداً بالنسبة للقبائل التى ارتدت ، فقد كان عـدد المحاربين فى بعض القبائل الخارجة على الدولة يفوق أضعاف الجيش الإسلامى كله ، فقد كان عدد المحاربين مع مسيلمة المتنبىء ٤٠ ألفا من بنى حنيفة وأتباعهم الذين ألتفوا حوله . (١)

يهمنى هنا بخصوص هذه الجيوش كتاب أبى بكر الذى كتبه إلى المرتدين من العرب وعهد أبى بكر إلى قواده الذين أرسلهم لحرب المرتدين .

قبل أن يتفرق الناس ويتحرك الجند كتب أبو بكر إلى أهل كل قطر تردد أوارتد كتاباً يحذرهم فيه من التورط ويقول بعد البسملة والمقدمة وذكر وفاة النبى (ﷺ)(٢)(وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ما أقر بالإسلام وعمـــل إغترارا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان، قال تعالى :

---

(١) التاريخ الإسلامى أحمد شلبى ص ٢٤٠ .

(٢) الخلفاء الراشدون ص ٤٥ (النجار) والخلفاء الراشدون (د: أحمد مجاهد مصباح) ص ٤٥ .

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ، وإنى قد بعثت إليكم فلانا (ويذكر إسمه) فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحداً فلا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه . وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى مجمع لكم والداعية الأذان فإن أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وأن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى) .

أما العهد الذى كتبه إلى قواده فقد كان عبارة عن تعليمات صريحة لهم بالخطة التى يسيرون عليها ويتبعونها . فقد كتب العهد عاما (أى صورته واحدة) لكل القواد وقال لهم فى هذا العهد[1] .

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله إلى القائد (ويذكر إسمه) حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله . سره وعلانيته . وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وأن لم يجيبوا شن

(١) الخلفاء الراشدون (النجار) ص ٤٥ ، ٤٦ ، نشأة الدولة الإسلامية (أمين سعيد ص ٢١٨)

غارته عليهم ، حتى يقروا له،ثم ينبؤهم بالذى عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم ، ولا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما إستسر به ، ومن لم يجب داعى الله قتل وقوتل حيث كان ،وحيث بلغ مراغمة، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الاسلام . فمن أجابه وأقر عليه قبل منه وعلمه ، ومن أبى قاتله ، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليهم إلا الخمس فإنه يبلغنا ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم حتى لا يكونوا عونا ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل،ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى - بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول .) .

وفى كتب أبى بكر إلى المرتدين والتى هى عبارة عن منشور عام أمر أن يقرأ فى مجامع الناس وأنديتهم ، ما يدل على أن أبا بكر رضى الله عنه كان يبغى من وراء هذه الحملات التى أرسلها لقتال المرتدين العودة بالدين إلى صفائه ونقائه ، والإعتراف بجميع الفرائض التى فرض الله تبارك الله تعالى على المسلمين وعدم الخروج على طاعة ولى الأمر أو الانفصال عن الدولة الأم التى يعتبر الخروج عليها خروجا على الإسلام ، ولم تكن رغبة أبى بكر من إرسال هذه الحملات عودة هؤلاء إلى حظيرة الدولة والخضوع لسلطانه حتى وإن ظلوا على ردتهم وإنخلاعهم من الإسلام ، ولكنه كان لا يقبل كما رأينا فى عهده لقواده،من أحد منهم غير الإسلام ،ولم يكن ليرضى بمجرد إعلان خضوع المرتدين للدولة الإسلامية حتى وإن عرضوا جزية يدفعونها إليه كالجزية التى يقبلها المسلمون

من أهل الكتاب ، ولذلك لم يكن لهؤلاء الخارجين غير التخيير بين إثنين ، إما الإسلام وإما القتل .

ولقد كان قتال أبي بكر للمرتدين واشتراط عودتهم إلى حظيرة الإسلام والخضوع لسيادة الدولة الإسلامية ، دليلا آخر من أدلة كون الإسلام دين ودولة .. أما العهد الذى كتبه لقواده فقد كان دليلا آخر من أدلة تحمل المسلمين جميعاً لمسئولية الدعوة إلى الله ، والعمل بقدر إستطاعتهم لإعلان كلمة الحق ، فقد أثبت هذا العهد أن أبا بكر لم يكن يبغى من قتال هؤلاء المرتدين ، الإنتقام منهم أو تشتيتهم وتشريدهم ، أو إخضاعهم لحكمه ولو لم يعودوا إلى الإسلام .

وإنما كانت هذه الجيوش وهؤلاء القواد . دعاة يدعون إلى الإسلام ويقبلونه من هؤلاء المرتدين بلا أدنى عقاب برغم هذا التمرد ، ولمجرد أن يؤذنوا إذا ما أذن المسلمون وأن يقروا بالإسلام ، وهم الذين خرجوا عليه بعد إعتناقه ، وأبو بكر يطلب من قواده فى أول هذا العهد ، أن يتقوا الله ما استطاعوا فى سرهم وعلانيتهم ، ويطلب منهم أن يدعوهم بداعية الإسلام ويقول (فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له) .

ثم ينصح أبو بكر هؤلاء القواد أن يمنعوا أصحابهم ، أى جندهم من العجلة والفساد ، فالقصد كما قلنا ليس الإنتقام ولا إفشاء الغليل ولا القتل ولا التعذيب ولا التمثيل بهم وإنما رَجْعُ هؤلاء إلى حظيرة الإسلام وعفا الله عما سلف ، ولا عقاب ولا حساب وكأن شيئا لم يحدث .

وبرغم أن خروج هذه القبائل على الدولة الإسلامية والحكومة الإسلامية

بلغ من الخطورة مبلغا كبيراً جعل كبار الصحابة يتصورون أنه من العسير التغلب عليهم وينبغى التفاهم معهم ، إلا أن أبا بكر رفض أن يفاوضهم ووطد العزم على مقاتلتهم وإخماد حركاتهم مهما كانت النتيجة .

ولو كان أبو بكر ينظر إلى الحكم بمجرد نظرة كثير من الحكام إليه لو كان ينظر إلى الحكم نظرة الراغب فيه لمجرد إشباع شهوة الحكم ونزعة التملك ، لتفاهم وتفاوض مع هؤلاء الخارجين على الدولة ضمانا لبقائه فى الحكم ولعدم التورط معهم فى حرب قد لا تجدى وتكون نتيجتها القضاء عليه وعلى ما تبقى له من أقاليم لاتزال خاضعة لحكمه ونفوذه .

ولكن أبابكر كان يؤمن بمسئوليته عن الدعوة الإسلامية ومسئولية نشرها وانتشارها ومسئولية الدولة التى أقامها الرسول ﷺ وأرادها الله أن تظل حامية لهذه الدعوة محافظة عليها . ولذلك قلنا إن أبا بكر لم يكن ليرضى بمجرد إعلان ولاء هؤلاء للدولة دون الاعتراف بالاسلام والايمان به وبجميع ما فرضه الإسلام من الفروض .

وقد كانت هذه الجيوش التى سيرها أبو بكر لمحاربة هؤلاء المرتدين قوافل دعوة، لكنها قوافل مسلحة تقبل الإسلام ممن يعلنون إسلامهم وتحارب وتقتل كل من يرفض إعلان هذا الإسلام بهذا السلاح الذى حملوه معهم حامين الدعوة وأنفسهم به .

وليس لانسان أن يقول : إن الإسلام يفرض هنا بقوة السيف والسلاح . فليس هؤلاء إلا خارجين على الدولة متمردين عليها . وحق على الإمام أن يقاتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله .

فهى حركة إنفصالية ، يمكن تسميتها بمفهوم العصر الحديث حركة رجعية غالبا ما تظهر عقب كل انقلاب سياسى يحدث لبلد من البلدان أو قطر من الأقطار فيغير نظامه وشرائعه ، ويحاول القائمون بها الرجوع إلى النظام القديم وإحيائه والتملص من النظام الجديد والقضاء عليه .

وأى إنقلاب سياسى أو إجتماعى أعظم من هذا الانقلاب الذى جاء به الإسلام فبعث فى جزيرة العرب روحا جديدة ، ونشر فيها دينا جديدا لم تكن تعرفه ولا عهد لها بمثله قط ؟ .

فالغاية من حركة الردة فى نظرنا هى الرجوع إلى النظام القديم وإحيائه والتخلص من الإسلام وما يتطلبه من واجبات ثقل بعضها فى نفوس بعض القبائل فقام يطالب بتعديلها ، أملا أن يعود إلى ماكان عليه فى الجاهلية حيث كان يعيش مطلق السراح لا يعرف دائرة أوسع من دائرة قبيلته ولا يجد نفسه مكلفا بشىء إلا فى داخل دائرتها الضيقة (١)

وبرغم ماصنعه المتمردون مع المسلمين الموجودين فى قبائلهم وقتلهم لمن ثبت منهم على الإسلام والتنكيل بهم ، طلب أبو بكر من قواده ألا يتعرضوا لهم بسوء إذا رجعوا إلى الإسلام ولم يرفضوا ركنا من أركانه ، بل طالبهم بالكف عن قتالهم لمجرد سماعهم الأذان منهم .

أثر الدعاة فى إعادة المرتدين الى الإسلام :

والحقيقة أن بعض المسلمين المخلصين للدعوة والإسلام عملوا للدعوة والدولة أكثر مما عملته الجيوش واستطاعوا أن يقنعوا قبائل بأكملها بالعودة إلى حظيرة الاسلام والانضمام إلى جيوش الدولة لمحاربة قبائل أخرى لازالت على ردتها متمسكة بانفصالها .

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية راجع ص ٢٠٧ أمين سعيد جـ ١

فقد استطاع على بن حاتم الطائى أن يقنع قبائل طىء الكبرى والتى تنزل على مقربة من بنى أسد بالتزام الحياد وعدم الانضمام إلى بنى أسد. ثم يقنعهم بالانضمام إلى المسلمين لحرب المرتدين، ويؤكد بعض الرواة أن بنى طىء قدموا إلى خالد بن الوليد ألف مقاتل ضمهم إلى جيشه[1].

كذلك استطاع الجارود بن المعلى «وكان له صحبة برسول الله وفقه فى الدين وصحة عقل ويقين أن يقنع قومه عبد القيس بالرجوع إلى الإسلام لما ارتدوا بعد وفاة النبى ﷺ وقالوا: لو كان محمد نبيا لم يمت، لكن الجارود وكان داعيا لبقا ذكيا مخلصا جمع قومه ووقف يسألهم ويقول لهم: يامعشر عبد القيس إنى سائلكم عن أمر فخبرونى إن علمتم ولا تجيبونى إن لم تعلموا قالوا: سل ما بدالك، فقال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم. قال: تعلمونه أو ترونه، قالوا: لا. بل نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا ماتوا. قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، قالوا: ونحن اشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا، وثبتوا على إسلامهم[2].

كذلك استطاع صفوان بن صفوان. والزبرقان بن بدر. أن يقنعا الكثيرين من قومهما من تميم بالتمسك بالإسلام والوقوف فى وجه من ارتد من أحياء تميم والانحياز مع ذينك الشهمين إلى المسلمين[3].

---

(١) راجع المرجع السابق ص ٢٢١.

(٢) أشهر مشاهير الاسلام (رفيق العظم) ص٢٨ ج١، الخلفاء الراشدون النجار ص ٥٧

(٣) رفيق العظم ص٩ ج١

لكن هل أفادت حركة الردة ؟

إذا كان بعض المؤرخين قد صور حركة الردة بأنها أخطر ما حدث فى صدر الإسلام موجها إلى الدعوة الإسلامية ، فإنى أرى أنها كانت أحسن ما وجه للدعوة الإسلامية فى الصدر الأول ، وأرى أن هذه الحركة كانت خيرا وبركة للإسلام والمسلمين وسببا مهما من أسباب توطيد دعائم الحكم الإسلامى وتقوية أركان الدولة الفتية التى أسسها محمد ﷺ ، فإن الهزات العنيفة التى توجه للدول ، كثيراً ما تكون فيها المصلحة والخير لهذه الدول ، وقد كانت هذه الهزة امتحانا للقادة ومدى تحملهم للمسئولية خصوصا بعد وفاة المؤسس الأول لدولة محمد ﷺ كما أنها « صقلت العرب وطهرت نفوسهم من الشرك والنزوع إلى الجاهلية الأولى وجعلت الاسلام (بحق) دين العرب جميعهم[1] .

والباحث المنصف حين يبحث فى أمر من الأمور . يجب أن ينظر إلى ما هو أبعد وأعمق من السطح الخارجى ، فلولا هذه الحركة ما استطاعت الدولة الإسلامية أن تقف فى وجه دولة الرومان ، ولا أن تحارب دولة الفرس الامبراطورية ، التى كانت نتيجة الحرب بينها انهزام الدولتين الكبيرتين بل إلى إنهيار إحداهما نهائيا ، وهى دولة الفرس الامبراطورية ، وإجلاء الرومان عن الشام ومصر وإفريقيا ، فقد أدت نتائج حرب الردة إلى إخضاع المرتدين ، وتوحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية المدينة الاسلامية ، وإلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية ونشر حضارة الإسلام خارج جزيرة العرب . وقد أدى انتصار الدولة العربية الاسلامية على دولتى الفرس والروم إلى انتشار المبادىء الاسلامية والحضارة العربية خارج الجزيرة ، وعرفت شعوب فارس

---

(١) الخلفاء الراشدون (د : أحمد مجاهد مصباح)

بعد أن تخلصت من الحكم الإقطاعى الإمبراطورى على يدى المسلمين ، وعرفت أيضاً شعوب مصر والشام وإفريقيا سماحة الاسلام وعدالته ، وارتاحوا إلى العرب وحكمهم - واطمأنوا إلى عدلهم وحسن معاملهم ، وانتعشت الأحوال الاقتصادية واستتب الأمن فى جميع الجهات فى عهدهم ، فأقبلوا مختارين على معرفة المبادىء الإسلامية ، ووازنوا بينها وبين العقائد الفاسدة كالمجوسية ، وتأليه المسيح وغيرهما والتى كان الأكاسرة والقياصرة يفرضون استبدادهم على شعوبهم بإسمها .

كذلك فالاسلام لا يريد اتباعا مقلدين ، (يقولون إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، كذلك فهو لا يريد حكاما محترفين للسياسة والحكم لا يبحثون إلا عن مصالحهم ، ولا يفكرون إلا فى بقائهم فى مناصبهم وإن أدى ذلك إلى استعباد الناس أو إلى ضياع الدين ، وإنما يريد الاسلام حكاما مخلصين ، يستحقون عن جدارة استخلافهم لرسول الله ﷺ فيما تولوه من حكم ، ويريد اتباعا يؤمنون بالاسلام عن عقيدة راسخة واقتناع كامل .

ويمكن أن نقول إن فتنة الردة كانت امتحانا نجحت فيه الدعوة الاسلامية وقويت بسببه (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب[1]) صدق الله العظيم .

(١) آل عمران آية [١٧٩] .

إهتمام الخلفاء بالقرآن الكريم

باعتباره الدستور الدائم للدولة والأصل الأول لتوانينها وتشريعاتها

القرآن الكريم هو دستور الأمـــة الإسلامية والأصل الأول لقوانينها وتشريعاتها . عرف ذلك الخلفاء . فالتزموا بما فيه ولذلك بايعهم الناس على أساس (الالتزام بالكتاب والسنة) .

وعرفوا هم أنفسهم ذلك فطلبوا من رعاياهم النصح لهم وطاعتهم ما أطاعوا الله ورسوله .

ولم يكن وصول هؤلاء الخلفاء للسلطة إلا من أجل الدين والحفاظ عليه وقد يؤثرونهم على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة كما يقول ابن خلدون .[1]

وإذا كان الدين هو الأصل وقيام الدولة وتأسيسها كان من أجل هذا الدين ، بل كانت الحروب التى خاضوها والأعمال التى قدموها لدولتهم من أجل الدين ورفع شأنه وسلطانه . كان لابد من المحافظة عليه والعمل على ذلك بقدر ما وسعه من جهد . وأساس هذا الدين أو الطريق الموصل إليه والأصل الذى تعرف منه حقيقته . هو (القرآن الكريم) الذى عرف الخلفاء والمسلمون جميعاً أنه الكتاب الذى انتظم من العادات الصحيحة والآداب الحميدة والأخلاق العالية والأعمال الصالحة ما هو كفيل بسعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم . وأن هذه السعادة لا تأتى إلا إذا دانوا بما أوجب . وتأدبوا بما سن وتخلقوا بما فيه

---

(١) المقدمة ص ١٠٧ .

وعملوا بمـا شرع وأنه الدواء لعلل البشرية وأمراضهم الخلقية ومشاكلهم الإجتماعية »[1] .

وكانوا يعرفون أيضاً عن القرآن أنه ذلك التشريع الفسيح الذى يتسع للناس جميعاً مهما اختلفت لغاتهم وتباينت بلادهم وتفاوتت عاداتهم وتنافرت طباعهم .

فهو لايكلف الناس بما لايطيقون،ولايدعوهم إلى ما فيه حرج لهم . فيه من الحاجات والضرورات من الشرائع والأحكام مايذلل الصعاب . ثم إن الأساس الذى من أجله قامت الحكومات والدول . وهو إقامة الحق والعدل جمعته آياته وكلماته . وما فيها من تشريعات وعظات وإرشادات حيث لايأمر إلا بمعروف ولا ينهى إلا عن منكر .

وإذا كان هذا شأن القرآن ، وهو دستور الأمة متى ولى الخلفاء أمرها من أجل صلاحهم وسعادتهم وتوجيههم إلى طريق الخير وحملهم على ذلك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وكان منصبهم موضوعا كما قال الماوردى[2] (لخلافة النبوة فى حراسة الدين والدنيا) فهـل يترك هؤلاء فرصة للحفاظ على الدستور والمحافظة عليه إلا صنعوها ؟ . خصوصاً وأن هذا الدستور ليس تعاليم مجردة عن المعانى أو هو مجرد تعليمات حرفية جوفاء يكفى فيها المضمون ويكتفى منها بمعرفة المقصود وإنما اختلف هذا الدستور عن كل الدساتير الوضعية المعروفة فى كل بلاد الدنيا . بأنه دستور جامع لم يوضع لمجموعة معينة

---

(١) القرآن وصفه وهدايته وإعجازه (مطبوعات جماعة الوعظ والدعوة الاسلامية) تأليف المرحوم محمد عبد العزيز الخولى ص ٦

(٢) الأحكام السلطانية ص ٥

من الناس أو عصر معين من العصور ، وإنما وضع هذا الدستور للعالمين وليشمل كل الأجناس والألوان . وليصلح لكل العصور ، بل يصلح كل العصور ، وهو زيادة على ذلك قد سلك مسلكا خطابيا يأخذ بالنفوس والألباب ، قصد به التأثير فيها وهدايتها وإبعادها عما يشقيها ، وقرر الحقائق ودعمها بالآيات البينة والحجج القوية التى لا تقبل فى شرعة الإنصاف جدلا ولا مناقشة ولا حوارا ، وجعل براهينه لطيفة الملمس طيبة المخبر واضحة المقصد، تجارى الفطر وتساير العقول ، مع تأثير فى النفس غريب يأخذ بها إلى مراكز الكمال[1] .

عرف الخلفاء ذلك وعرفوا أن هذا الدستور الإلهى تكفل الله بحفظه حيث قال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[2] .

وعرفوا أنه المتعبد بتلاوته المعجز بأسلوبه وفصاحته وما فيه من أسرار وتشريعات ولذلك ما أن لاح فى الأفق إمكان فقد بعض القرآن لتيجة قتل عدد من القراء فى حرب اليمامة حتى أسرع عمر إلى أبى بكر يعرض عليه أن يجمع القرآن خوفاً عليه من الضياع وأعطوه ما أمكنهم من جهد من حق العناية والرعاية والحفظ .

وإذا كان الناس يحاولون جمع تراثهم المادى ، وحفظه والمحافظة عليه لمجرد الاستدلال به على تقدمهم أو إثبات حضاراتهم فكيف بالقرآن الكريم وهو مصدر الشريعة الإسلامية ودستورها القائم أبد الآبدين . الذي لا يستغنى عنه المسلمون ، ولا يأخذون لدينهم ودنياهم إلا ما توحى به إليهم كلماته .

---

(١) القرآن . وصفه وهدايته (الخولى) ص ٢١ ، ٢٢

(٢) الحجر ٩

وتوحى به إليهم آياته ؛ وهو ليس مجرد تراث يحتفظون به فى مخازن المتاحف كعمل من أعمال السابقين ، ليكون تاريخا مضى أو دليلا على حضارة كانت ثم انتهت ، ولـكنهم يحتاجون إليه دائما وأبدا ، ولا يستغنون عنه صباحا أو مساء للدين وللدنيا على السواء .

ولا يستقيم هذا القول الذى نقوله بأن القرآن هومصدر التشريع الإسلامى إلا بفهم صحيح سليم لكتاب الله وتذوق لأساليب بيانه ووقوف على بعض أسراره . وبهذا الفهم لـكتاب الله يتحقق لنا أمران[1] :

أولهما : تصوير مسائل الدين تصويرا واضحا دقيقا محددا بلا ذيول ولا معلقات وبهذا يعرف المسلم الحـكم قاطعا فيا أحل الله وما حرم .

ثانيهما : جعل مسائل الدين واقعة فى مفهوم المسلمين . واضحة لتصورهم إن لم يـكن لهم ذلك جميعاً فللجمهرة العظمى منهم حيث تعرض مسائل الدين فى كلمات يسيرة مفهومة لا تتجاوز آية كريمة من آيات الله ـ فان احتاجت إلى شرح فلا يتجاوز ذلك أكثر من بضع كلمات تزاد عليها .

عرف الصحابة ذلك جميعا فأقبلوا على القرآن يحفظون ما شاء لهم أن يحفظوا ، وكانت ملازمة معظمهم للنبى ﷺ تعينهم على حفظ الـكثير منه ، ومشاهدة الأسباب التى دعت إلى نزول الآية وإن كان حفظ القرآن جميعه لم يـكن شائعا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ بسبب أنهم كانوا يحاولون فهم المعانى حتى إذا حذقوا شيئاً من القرآن انتقلوا إلى غيره ، فـكان حفظ القرآن موزعا على الصحابة[2] .

---

(١) إعجاز القرآن (الخطيب) جـ ١ ص ١١ ، ١٢

(٢) راجع فجر الإسلام (أحمد أمين) ص ١٩٧

وقد قال عبد الرحمن السلمى [1] حدثنا الذين يقرؤون القرآن عثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . وقد قام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين ، ذلك لأنه إنما كان يحفظ ولا ينتقل من آية إلى آية حتى يفهم .

وقد ظل الأمر على ذلك فترة من الزمان ، القرآن كله محفوظ فى الصدور وأعداد كبيرة من الصحابة يحفظونه فى صدورهم ، والقراء المشهورون يرسلهم الخلفاء إلى المراكز المختلفة لتعليم الناس قراءة التنزيل الحكيم كما كانوا يعدون الفقهاء المشهورين أيضا لإرسالهم إلى جميع أرجاء الامبراطورية لتعليم الفقه ، وإن كانت دراسة القرآن احتلت المكان الأول وتلته دراسة الفقه ، الذى لم يقم بتدريسه غير الأشخاص الذين أذن لهم بذلك واستعملت المساجد لتعليم القرآن والفقه [2] .

وحين اضطر أبو بكر لحرب المرتدين للقضاء على الردة فى أرجاء شبه الجزيرة العربية كانت النتيجة استشهاد حوالى ١٢٠٠ من المسلمين وكان فيمن استشهد عدد من حفاظ القرآن الكريم فى موقعة اليمامة ، وقد لفت استشهاد عدد كبير من القراء فى حروب الردة واليمامة . نظر عمر بن الخطاب ، فاذا به يفكر فى أمر جليل ، بل هو من أجل الأمور فى حياة الإسلام والمسلمين جميعا فما عسى أن يكون الأمر إذا تلاحقت الغزوات فقتل فيها مثلما قتل من الحفاظ باليمامة ؟ ويهدى الله عمر إلى أمر ثم يذهب إلى أبى بكر . وهو بمجلسه من المسجد ويقول له : إن القتل قد استحر بقراء القرآن يوم اليمامة ، وإنى

---

(١) فجر الإسلام ص ١٦٧ .
(٢) الادارة العربية بتصرف ص ١٠٧

أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن[1].

صحيح أن القرآن يجب أن يصان وأن يحافظ عليه وأن يحمى من الضياع أو التغيير أو التبديل ، وصحيح أن الله تكفل بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [2] ، لكن لابد من الأخذ بالأسباب .

وإذا كان الخلفاء والصحابة في عهدهم يحفظون القرآن ويفهمون معانيه وما يرمى إليه، ويعتمدون عليه اعتماداً كبيراً ، بل هم يستفتون فيه عن كل شيء لدينهم ودنياهم كما قلنا ، بما توحى به إليهم كلماته وتومىء به إليهم آياته ، إلا أن الصديق رضى الله عنه ، فوجىء بهذا الإقتراح من عمر ، وهو وإن عرف أن رأى عمر رأى معقول ومقبول ، إلا أنه وقف حائراً أمام عمل عظيم خطير ، لم يرى الرسول ﷺ قد عمله أو أشار به .

ولعل الله تبارك وتعالى أراد بذلك أن يفتح للخلفاء باب الإجتهاد في حدود الشرع ومصلحة الدين دون التقيد بالحرفيات ، ووجود نص صريح من القرآن أو السنة لعمل ما ، وإلا فمعنى ذلك الوقوف جامدين دون إجتهاد أو إبتكار ، مع أنهما هما محور الحياة الإسلامية السياسية والإدارية على الخصوص ، ولكن عمر وأبا بكر أيضاً برغم تردده في بادىء الأمر بخصوص جمع القرآن بل للمسلمين جميعاً في ذلك العصر ، كانوا يعرفون أو أراد الله لهم أن يعرفوا أن يأخذوا بما هو نافع لهم ، والعمل بالمصلحة التي يقتضيها التيسير على المسلمين ، وتستلزمها حاجة الدولة والدعوة على السواء ، طالما لم يخرجهم هذا العمل عن حدود الشريعة .

ولعل هذا العمل هو أول عمل أراد الله تبارك وتعالى به أن يبدأ الخلفاء الإجتهاد في الدين في حدود الشريعة الإسلامية ، ومن أجل صالح الدعوة الإسلامية ، وصالح الدولة التي تدعو باسمها وتحمل لواء نشرها وانتشارها

---

(١) راجع القصة (الفاروق عمر) ص ٨٣ هيكل ج ١

(٢) الحجر ٩ .

ولقد كان هذا على ما أعتقد أول عمل يرى أبو بكر عدم وجود نص ثابت فيه، من كتاب الله وسنة نبيه ، ولهذا تردد فى بادىء الأمر وقال : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله (ﷺ) [1]

ثم لم يلبث بعد تأييد عمر لرأيه بالحجة أن اقتنع، فدعا زيد بن ثابت وذكر له ما دار بينه وبين عمر وقال له (إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله (ﷺ) فتتبع القرآن فاجمعه) [2] .

فتردد زيد بن ثابت فى أول الأمر كما تردد أبو بكر ثم شرح الله صدره للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فقام فتتبع القرآن يجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال . [3]

وكأنى بهذا العمل وقد فتح الباب لخلفاء الرسول الذين ولاهم الله حكم المسلمين فابتكروا فى النظم الإدارية . واستعملوا نظماً جديدة . إستلزمتها حاجة الدولة واقتضتها مصلحة للمسلمين تيسيرا لهم . كتدوين الدواوين ومسح الأرض وإحصائها ووضع الخراج عليها، بل اقتبسوا من كل الأمم التى فتحوها نظما إدارية استفادوا منها وسياسات تنظيمية طبقت فكانت من مصادر قوتهم ومن دعائم وثبتهم [4] ، إيمانا منهم بأن الاجتهاد وحرية العقول والتمشى مع

---

(١) الخلفاء الراشدون (النجار) ص ١٠٤، الفاروق عمر (هيكل) ص ٨٣

(٢) المرجع السابق .

(٣) راجع حديث زيد بن ثابت وقصة جمع القرآن ص ٢٠٩ ج١ تيسير الوصول وقد أخرجه البخارى والترمذى .

(٤) راجع منهج عمر فى الحكم (الخلفاء الراشدون د أحمد مجاهد مصباح) ص ١٩٧

مصالح الناس هو القاعدة المقررة في الاسلام لسياسة الحكم ووسائله ، ولذلك قال العز بن عبدالسلام ، [1] « تحدث للناس أحكام بقدر ما يحدثون من السياسات والمعاملات و يتصرف المسلمون في هذه القضايا على نهج المصلحة، فأينما وجدت المصلحة العامة فثم سياسة الاسلام حكماً و تشريعاً » .

ولقد كان هذا العمل (جمع القرآن) وحفظه في مصاحف خوفا عليه من الضياع من أعظم الأعمال التي يجب أن تضاف إلى أعمال الخلفاء ، بل هو أهمها على الإطلاق ، وإذا كان أبو بكر قد أمر بجمع القرآن ، وعمر هو الذي أشار عليه به فإن عمل عثمان رضي الله عنه لا يقل عن عمل سلفيه وما قدماه للقرآن .

فإن عثمان رضي الله عنه قد جمع المسلمين على مصحف واحد، ذلك بعد أن تفرق الصحابة في الأمصار ، وكانت لهجاتهم العربية مختلفة في نطق بعض الكلمات وكان أهل الأمصار غالباً من الصحابة ، ودخل أقوام جدد من أهل هذه البلاد المفتوحة في الاسلام، وظن أهل كل مصر أن قراءة صاحبهم هي القراءة الصحيحة ولا يكون قرآنا غيرها ، وظهر ذلك بجلاء عندما اختلط الشاميون بالعراقيين في أثناء غزو أرمينية والباب وأذربيجان ،ورأى ذلك حذيفة بن اليمان وكان ذلك في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة عثمان[2] .

وقد رأى حذيفة أن كل فريق قد بالغ في تفضيل قراءتهم ،ودب الخلاف لذلك بينهم حتى قال بعضهم لبعض إن قراءتنا خير من قراءتكم ، و بلغ أن كادت تكون فتنة ،وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه ، فذهب حذيفة إلى عثمان ودخل عليه قبل أن يدخل إلى بيته وقال (أدرك هذه الأمة قبل أن

---

(١) دولة القرآن (سرور) ص ١١٧ .
(٢) عثمان بن عفان (هيكل) ١٢٩ .

تملك) قال : عثمان فى ماذا ؟ قال : فى كتاب الله ، وحكى له ما رآه من إختلاف الناس فى قراءة القرآن ، وأردف يقول وإنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما إختلاف اليهود والنصارى .(١)

وقد انتهت مشاورة عثمان للصحابة وإستماعه لرأيهم وإستماعهم لرأيه الذى قال فيه (الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد إختلافا) وانتهى الأمر بالموافقة على رأى عثمان واتفاقهما على توحيد المصحف ، ثم طلبوا النسخة التى جمعها أبو بكر والتى كانت محفوظة عند أم المؤمنين ، حفصة بنت عمر وانتدبوا كاتب الوحى زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث لنسخ بعض النسخ فكتبوها باللهجة القرشية ثم وزعها عثمان على الأمصار ففرحوا بها وعرفوا فضل هذا العمل الجليل ، وقد أوجب الخليفة القراءة بما فيها وأن يجمع ما سواها من المصاحف فجمع وأحرق .(٢)

ولا شك أن عثمان عمل بجمعه القرآن عملا جليلا ، وقدم بهذا العمل للإسلام ولوحدة المسلمين خدمة من أجل الخدمات ، وقد كان جمعه الشعوب الاسلامية على مصحف واحد ، جمعا لهذه الشعوب فى وحدة قوية لا انفصام لها ، ولولا ذلك العمل لتعدد القرآن كما تعددت التوراة والانجيل ، ولكن الله سلم لسابق وعده (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وهكذا كان جمع المصحف فى عهد أبى بكر بمشورة عمر ، وجمع المسلمين على مصحف واحد فى عهد عثمان . عملا تطلبته الدعوة واحتاجت إليه الدولة لتوحيد

---

(١) راجع القصة بالكامل فى المرجع السابق .
(٢) راجع الخلفاء الراشدون (فياض) ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، عثمان بن عفان ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

كلها بحفظ دستورها الأوحد (القرآن الكريم) فأضاف ذلك إلى أعمال الراشدين عملا عظيما بل قل تشريعاً جديداً . حيث وضعوا أساس ضرورة رعاية القرآن الكريم والمحافظة عليه وعدم التقصير فى ذلك . فإنه بقدر اقتراب المسلمين من كتابهم الكريم ، وبقدر رعايتهم لحقه ومحافظتهم عليه كان نصيبهم من الخير ، وحظهم من السلام والأمن . فى أنفسهم وأموالهم وأوطانهم ، وعلى عكس ذلك بقدر بعدهم عن كتابهم وتفريطهم فى حقه واستخفافهم فى شأنه بقدر ما كان بعدهم من الخير وابتعادهم من السلامة والأمن والله أعلم..

الوعاظ والبلاد المفتوحة

حمل الإسلام[1] منذ البداية طابع الدين الذى يقوم على الدعوة ، ويعمل لجذب قلوب الناس وتحويلهم إليه وحثهم على الدخول فى زمرة المؤمنين ، وكما كانت الحال فى مبدأ الأمر ، كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم .

كان الإسلام ينتشر فى أى بلد يدخلها جيش الاسلام ، وكانت بساطة العقيدة الإسلامية التى لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان ولا تثير مصاعب عقلية خاصة وتدخل فى نطاق أبسط دركات الفهـم والفطنة ، وخالية من الخوارج والحيل النظرية اللاهوتية ، والتى كان فى إمكان أى فرد أن يشرحها حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية ، سببا من أسباب انتشار الاسلام وعاملا من عوامل نجاح المسلمين الذين بلغ حماسهم فى نشر الدعوة إلى حد أنهم كانوا على استعداد للتحدث عنها فى مناسبة وغير مناسبة[2] .

وكانت بساطة العقيدة الإسلامية تتمثل فى عـدم مطالبة الداخلين فى الاسلام إلا بقبول الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وإذا قبل الداخل فى الاسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلمها لم يكن هناك بد من أن يتعلم فرائض الدين الخمس المتمثلة فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى الإسلام على خمس . . الخ .

وكان لابد من وعاظ ومعلمين لتعليم هـؤلاء الذين دخلوا حديثاً فى الإسلام ، فرغم بساطة العقيدة الاسلامية كما قلنا ، كانت الشعائر الدينية فى

---

(١) الدعوة إلى الاسلام (ارنولد) ص ٦٢

(٢) المرجع السابق .

حاجة إلى تعليم وتلقين وتدريب ، كذلك فهم فى حاجة إلى معرفة الحلال والحرام ورأى الدين فى كل أمر من الأمور ، لذلك أمد الخليفة عمر هؤلاء الذين دخلوا حديثاً فى الإسلام بعلماء يلقنونهم مبادىء الدين ، فانتشار الاسلام بهذه السرعة كان يستلزمه ضرورة أخذ الحيطة والحذر خشية ما قد يحدث من أخطاء ، سواء من ناحية العقيدة أو الشعائر الدينية خصوصا إذا ما ترك هؤلاء الذين دخلوا فى الاسلام وهم لا يعرفون تعاليم الدين الذى اعتنقوه معرفة صحيحة كاملة ، ومن ثم نرى الخليفة عمر يعين فى كل بلد مفتوح معلمين مهمتهم أن يعلموا الناس القرآن ويفقهوهم فى الدين وكذلك أمر العمال أن يستيقنوا من أن جميع المسلمين صغارا وكبارا يواظبون على حضور صلاة الجماعة لا سيما فى أيام الجمع وفى شهر رمضان [(١)].

وكان عمر يهتم اهتماما كبيرا باختيار من يعهد إليهم بهذا العمل ، وحين ننظر فيمن عهد إليهم بهذا العمل فى مدينة الكوفة مثلا ، نجد أن شخصيتهم لا تقل عمن عهد إليهم بالولاية على بيت المال ، فقد كتب عمر إلى أهل الكوفة (إنى بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا وآثرتكم به على نفسى فخذوا عنه[(٢)] .

وقد روى عن سالم بن عبد الله قال[(٣)] : (كنا مع عمر يوم مات زيد ابن ثابت فقلت مات عالم الناس اليوم، فقال ابن عمر : يرحمه الله اليوم . فقد كان عالم الناس وحبرها . فرقهم عمر فى البلدان .

---

(١) ارنولد ص ٦٩
(٢) فجر الاسلام ص ١٥٢ .
(٣) المرجع السابق ص ١٥١ ، ١٥٢

وقد تعمد عمر أن يوزع فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية من يعلم أهلها الاسلام ووزعهم على الأمصار قصدا إلى تعليمها[1] كما صنع الرسول صلى الله عليه وسلم فى مدن جزيرة العرب فأرسل إلى اليمن وإلى البحرين وإلى مكة بعد فتحها ، كذلك فعل أبو بكر فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام : لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه وما كان يفتيهم به ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى عليه وقال : رجل أراد جهادا يريد الشهادة فلا أحبسه ، فقلت : والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه[2] .

وقد أورد البخاري فى التاريخ[3] أن يزيد بن أبى سفيان كتب إلى عمر: وقد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأرسل معاذا وعبادة وأبا الدرداء . فكان هؤلاء أول مؤسسى المدرسة الدينية بالشام .

وقد كان عمر يأمر الناس بالتفقه فى الدين ، ويجد فى إرسال الفقهاء إلى الأمصار يفقهون المؤمنين ويعلمونهم دينهم ، وقد لا يرسلهم إلا بعد أخذ رأيهم ، ولما أراد أن يرسل سعد بن عبيد ، وكان لا يسمى القارىء من الصحابة غيره قال له : هل لك فى الشام؟ فان المسلمين نزفوا وإن العدو قد ذئروا عليهم[4] .

وقد كانت المدينة فى أيامه أشبه بمدرسة يتخرج فيها القضاة والعمال والقواد والأمراء ، فلا يبعث إلى الأمصار إلا من اختبره فى الجملة وقلما أخطأت فراسته فى الناس[5] .

(١) المرجع السابق ص ١٥١ ، ١٥٢
(٢) نفس المرجع .
(٣) فجر الاسلام ص ١٨٨
(٤) الإدارة الإسلامية ص ٤٨
(٥) نفس المرجع

ولقد أنشأ هؤلاء الصحابة العلماء الذين تفرقوا فى الأمصار حركة علمية فى كل إقليم نزلوا فيه ، وكونوا لهم مدارس علمية ، وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم ، فتخرج عليهم التابعون ثم تابعوهم ، وعندئذ دخل عصر الموالى وأولادهم فى الحركة العلمية ، واتسع نطاقها ، فكان منهم كثير من سادة التابعين وتابعى التابعين[1] .

والعجيب أن أكثر حملة العلم فى الأمصار المفتوحة ، خصوصا عصر التابعين وتابعيهم كانوا من الموالى أو أبناء الموالى ، مما يدل على رسوخ العقيدة الإسلامية ، عند أهل البلاد المفتوحة ، وفهمهم لطبيعتها ويسرها ، وإيمانهم هم الآخرون كمسلمين بضرورة الدعوة إلى الله قدر استطاعتهم ، حتى رأينا صاحب صناعة النحو كسيبويه ، والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما ، كلهم عجم فى أنسابهم ، كذلك رأينا منهم كثيرين من حملة الحديث وأصول الفقه وحملة علم الكلام وأكثر المفسرين ، وهذا لا يمنع من وجود علماء مشاهير من العرب خصوصاً فى العصر الأموى كسعيد بن المسيب وعلقمة وشريح ومسروق النخعى وغيرهم ، إلا أن الأكثرين كانوا موالى أو مافى حكمهم ، فكان فى المدينة سليمان بن يسار وكان من أعلم الناس وأفقههم فى الدين وهو مولى ميمونة زوج النبى ﷺ ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، والذى روى عنه أكثر أحاديثه وأصله من الديلم ، وربيعة الرأى وهو شيخ الإمام مالك وأبوه فروخ من الموالى[2] ، هذا عدا علماء مكة فمجاهد بن جبر ، وكان مولى لبنى مخذوم وهو من أكثر رواة التفسير عن ابن عباس وعكرمة مولاه ، والذى روى عنه أكثر علمه ، وعطاء بن أبى رباح مولى بنى

---

(١) فجر الاسلام ص ١٥٢ .
(٢) ص ١٥٢ فجر الاسلام :

فهو من موالى الجند باليمن وغيرهم من الموالى الذين اشتهروا فى زمانهم وعرفوا بعلمهم فى الكوفة والشام ومصر[1] .

ومن المؤكد أن الصحابة خصوصا فى الأمصار المفتوحة والذى أوكل إليهم تعليم الناس القرآن الكريم اضطروا إلى تفسير بعض آيات القرآن الكريم نتيجة أسئلة الناس ومحاولتهم فهم بعض أسراره ، بل إن الصحابة أنفسهم لم يكن فى استطاعتهم جميعاً أن يفهموه إجمالا وتفصيلا بمجرد أن يسمعوه خصوصاً وأنهم كانوا يختلفون فى مقدار فهمه حسب رقيهم العقلى، وقد كان الصحابة على العموم أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم ، ولأنهم شاهدوا الظروف، التى نزل فيها القرآن، وإن كانوا كما قلنا قد اختلفوا فى الفهم على حسب اختلافهم فى أدوات الفهم .

المهم أن تفرق الصحابة فى الأمصار بعد فتح الممالك وذهابهم إليها، قد أثر فى هذه الأمصار تأثراً كبيراً وكانوا أساتذة هذه المدارس، وكان لهؤلاء الصحابة العلماء شخصيات علمية مختلفة ، كان لها أثرها فى مدارسهم ، وكان أكبر الشخصيات تأثيراً فى الأمصار عبد الله بن عمر فى المدينة وعبدالله بن مسعود فى الكوفة وعبد الله بن عمر فى مصر[2]

ولقد كان أكثر اعتماد الخلفاء الأول فى نشر الدعوة على اقتداء الناس بالمسلمين وخاصة بالمقاتلة . فأصدروا تعليمات أخلاقية مشددة لجند الإسلام ولقوادهم بأن يلتزموا الحدود الأخلاقية،وأن يكونوا آدميين فى حربهم وقتالهم وألا يسلكوا مسلك الوحوش الضارية ، ولعل وصية أبى بكر لأسامة بن

---

(١) راجع ص ١٥٣ إلى ١٥٥ من المرجع السابق ٩

(٢) المرجع السابق :

زيد وقواد فتح الشام مما يجب أن يسجل بحروف من الذهب[1] .

ولعل في هذه الوصية أو قل الأوامر العسكرية التي أرسل بها — عمر ابن الخطاب إلى قائد جيشه ، سعد بن أبي وقاص ، ما يثبت مدى اهتمام الخلفاء بأخلاقيات الجنود والتأكد من مدى تثبتهم في الدين وإيمانهم الكامل بالله ، وابتعادهم عن المعاصي وهم في سبيل الله .

فقد كتب عمر إلى سعد يقول[2] (أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني اسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس (فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا[3] ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى لنا ولكم ، وترفق بالمسلمين ولا تجشمهم سيراً يتعبهم ، ولا

---

(١) ذكرناها في فصل الجهاد فليرجع اليها .

(٢) أخبار عمر (الطنطاوين) ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٣) الاسراء آية ٥ .

تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم . . . . الخ)

ثم أخذ عمر رضى الله عنه يعطى قائد جنده الأوامر العسكرية بإراحة الجيش وإرسال العيون لمعرفة أخبار العدو ، وأخذ الحذر ، وعدم إرسال سرية استطلاع غير مطمئن لسلامتها ، وإبعاد معسكره عن قوى أهل الصلح والذمة وغير ذلك من الأوامر العسكرية التى لا تصدر إلا من خبير بها عالم لها[1] .

ولقد كان الخلفاء الراشدون جميعا يصدرون تعليمات مشابهة لذلك بين حين وآخر ، فالروح العاليـــة التى تميز بها الجنود المسلمون ، واستقامتهم ، ومواساتهم للفقراء والمظلومين ، ومعاملتهم الإنسانية للمهزومين والضعفاء والأرقاء هو مما أكسبهم إعجاب الملايين بدينهم والنظام الإجتماعى الجديد الذى كانوا يمثلونه[2] .

ولقد كان الحج وقيام الخلفاء بأنفسهم سنويا بالاشراف على أداء مناسكه أو تعيين من ينوبون عنهم فيه ، واجتماع المسلمين جميعاً فى مكة فى موسم الحج وتدارسهم لمشاكل الجماهير واستماع الخلفاء أو من ينوبون عنهم إلى شكاياتهم من ولاتهم ، والتعرف على أحوالهم وأحوال بلادهم « حيث كان الخلفاء يكتبون إلى الأمصار أن يوافيهم العمال فى كل موسم ومن يشكوهم[3] . كل هذه الأمور كانت تزيد المسلمين إعجابا بدينهم خاصة مسلمى البلاد المفتوحة وتجعلهم يقومون جاهدين مخلصين لنشر الدعوة والعمل على انتشارها .

---

(١) راجع نص الكتاب بالمرجع السابق :
(٢) الإدارة العربية ١٠٥ .
(٣) الاذارة الاسلامية ص ٥٤ .

وقد شيدت مســاجد كبيرة وجميلة فى سائر أرجاء الامبراطورية الإسلامية وأعدت الترتيبات لصيانتها ورعايتها ، فقد بنى منها فى بلاد العرب وحدها أربعة آلاف مسجد فى عهد الخليفة عمر مما يدل على مدى اهتمام الخلفاء بإقامة الشعائر الدينية والثقافة الإسلامية[1] .

ولما نمت الثروة والموارد بدرجة كافية فى عهد عمر أعدت الترتيبات لإضاءة المساجد كلها فى الإمبراطورية وتأسيسها بالحصير والبسط ، ولم تكن الإضاءة فى المساجد موجودة فى السنين الأولى للإسلام [2] ، والله أعلم .

---

(٢) المرجع السابق .

«أسباب ظهور أنظمة جديدة
فى سياسة الحكم الإسلامى»

قلنا فى فصل سابق أن جميع ما حدث فى حياة الرسول (ﷺ) وبعد مماته وطريقة تولية الخلفاء وما حدث فى زمانهم من أحداث ، وسياستهم فى الحكم وتنظيمهم الإدارى للدولة وإختيارهم للولاة ، والتغييرات التى طرأت نتيجة الفتوحات الإسلامية وإتساع رقعة الدولة،واختلاف الأنظمة الإجتماعية. فى الدولة الإسلامية فى عصر كل خليفة من الخلفاء . حتى الفتن التى حدثت كانت مقدرة محددة وكانت تشريعاً سماوياً وتدريباً عملياً على يد هؤلاء الذين أمر الرسول (ﷺ) بالاقتداء بهم والأخذ بسنته وسنتهم ـ فقد كان عصر النبوة منقسما إلى فترتين .

١ ـ فترة ما قبل الهجرة .　　٢ ـ وفترة ما بعد الهجرة .

ولم يكن بين الفترتين كما يزعم بعض المستشرقين تمايز أو تغاير . بل كانت الأولى منها ممهدة للثانية . ففى الأولى وجدت نواة المجتمع الإسلامى وقررت قواعد الإسلام الأساسية بصفة عامة ، وفى الثانية تم تكوين هذا المجتمع وفصل ما أجمل من القواعد وأكمل التشريع بإعلان مبادىء جديدة، وبدىء بتنفيذ وتطبيق المبادىء جميعا حتى ظهر الإسلام فى هيئته الاجتماعية وحدة منسجمة عاملة تهدف إلى غاية واحدة . [1]

ولكنه برغم ذلك فقد كان عصر النبوة بفترتيه مرحلة تأسيس وعهد بناء

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية (د. ضياء الدين الريس) ص ١٤ ، ١٥

ونشاط فهي ذات أهمية كبرى بالنسبة إلى تولية مصائر الحوادث ووضع السنن التى تسير عليها الأجيال فى كل العصور المستقبلة .[١]

ولما انقضى عصر النبوة وكان كما قلنا عصر تأسيس ، وعرفت الروح التى تسيطر على الحياة السياسية ، وأقام النبى (ﷺ) النموذج للقدوة والقياس كان لابد من ظهور نظريات سياسية أخرى لكنها لم تخرج إطلاقا عن الأصل والأساس ، حيث أن القاعدة التى وضعها الرسول (ﷺ) لنظام الحكم وضعت لتكون أساسا لأى نظام للحكم يرتضيه المسلمون وتتطلبه حاجتهم إليه ، فى أى زمان وأى مكان ، وأصبحت هذه القاعدة هى النقطة التى تلتقى عندها كل المناهج مهما اختلفت أو تباينت .

إلا أن هذه النظريات السياسية الإسلامية التى ظهرت فى عصر الراشدين لم تظهر نتيجة لتباين النزعات ، أو نتيجة الشعور بالنقص والرغبة فى الاعتراض على النظام القائم بالفعل والذى أقامه الرسول (ﷺ) ، وإنما كانت هذه النظريات عبارة عن تطبيق عملى لنظام الحكم الإسلامى العام الذى وضعه الرسول (ﷺ) وقام على أساس تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم وإقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم على بعض . أو نقول كانت فروعا من هذا النظام الأم الذى وضعه الإسلام ، لأن الإسلام لم يشرع لأتباعه نظما مفصلة للحكم وما يتعلق بها من مناهج إدارية ومقومات سياسية .

كذلك فإن طبيعة التشريع الإسلامى كانت تحتم ظهور آراء فرعية خاصة فى نظام الحكم الإسلامي لكنها لا تخرج عن النظام العام للحكم فى الاسلام الذى وضعه الرسول (ﷺ) .

---

(٢) المراجع السابق ص ١٥ .

وظهور أنظمة أخرى جديدة لم تكن موجودة فى عصر النبوة . لاتلغى النظام الأصلى الذى قررت قواعده الأساسية بصفة عامة .

وقد كان من حكمة الشارع ترك الأحكام التفصيلية لجزئيات هذه النظم والمعاملات بما يتناسب مع الزمان والمكان وبما يراه ولاة الأمر فى كل أمة من تفصيل فقعدت القواعد الأساسية لنظام الحكم الذى يقوم على أساس إقامة حكومات لتحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم ، ومقصود هذه الحكومات إقامة العدل بين الناس ، ومنع عدوان بعضهم على بعض . فقام نظام الحكم فى عصر الرسول وعصر الراشدين على هذه القاعدة الأساسية وسار هؤلاء الخلفاء فى حكمهم ملتزمين بأحكام الكتاب والسنة ، وأن يسير واسيرة النبى (ﷺ) ماوجدوا إلى ذلك سبيلا ، وقد كان قوامها تحقيق العدل الخالص المطلق بين الناس .

(لماذا ظهرت هذه الأنظمة

في عصر الراشدين بالذات؟)

نظرا لأن الحياة الاجتماعية فى عصر الرسول (ﷺ) كان لها طابع خاص حيث كانت الدولة الاسلامية لا تتعدى حدود الجزيرة العربية وهى كلها تقريبا فى مستوى إجتماعى واحد، وكان النظام الإدارى فى حياة الرسول (ﷺ) يتفق مع حجم الدولة ومع الحياة الإجتماعية الموجودة فى الجزيرة العربية ، كان لابد من ظهور أنظمة إدارية جديدة تتفق من حجم وتطور الدولة الاسلامية بعد وفاة الرسول (ﷺ) . خاصة وقد كان معروفا أن الدولة الاسلامية ستتسع وأنها ستضم أجناسا شتى وأن الحكام والمسلمين الفاتحين . سيواجهون أنظمة سياسية وإدارية تختلف عما عرفوه من نظام إدارى وسياسى فى حياة الرسول ، ولأن السياسة والإدارة تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان فكان لابد ولو لمجرد ضرب الأمثال أن تظهر نظم سياسية جديدة لم تكن موجودة فى عصر الرسول ، ومناهج إدارية لم يعرفها عرب الجزيرة لإثبات أن الاسلام دين عالمى يتسع لكل عصر ويصلح لكل مكان.

ولو جاءت هذه النظم فى عصر متأخر عن عصر الخلفاء الذين رباهم النبى ﷺ وتخرجوا على يديه ، لتصور الناس . أن ذلك مما لايجوز فى الاسلام ولو قفوا عاجزين جامدين أمام حرفية العمل النبوى ، ولذلك كان من الحكمة الإلهية أن تظهر هذه النظم الادارية والسياسية فى عصر صحابة محمد ﷺ وعلى يد أقرب الناس إليه ، ليكون هذا العصر إمتداداً لعصر النبوة وتكملة للتشريع الاسلامى الذى أسس له محمد ﷺ ولهذا كان الأمر باتباع سنة

الذين لم يخرج نظام حكمهم عن القواعد الأساسية لنظام الحكم الأسلامى الذى قعدوا هم له مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأراده الله تبارك وتعـالى نظاما كاملا متكاملا صالحاً لكل العصور والأزمان .

ولقد جاء الجانب التعبدى فى الإسلام مفصلا محددا . لأن العبـادات أوامر إلهية مطاعة لا شأن للعقول بها ولا رأى للناس فى طرائقها ومناهجها .

أما ما يتعلق بحياة الناس من معاملات وسياسات ونظم فقد ترك عاما بلا تفصيل، ووضعت له القواعد العامة التى تتسق ورسالته الخلقية والاجتماعية والعقلية وفى طليعتها العدالة المطلقة ، وجعل الأمر شورى بين المسلمين دون تحديد للوسائل التى تؤدى إلى العدل أو يطبق بها نظـام الشورى . كطريقة الانتخاب أو نظم المبايعة ، وترك هـذا كله للناس وعقولهم حسب العرف والعادات والزمان المتحرك والحياة المتطورة .

ولم يكن غريبا أن يختلف نظام البيعة وتولية الخليفة من واحـد لآخر ، أو أن يـكون هناك اختلاف فى طريقة سياسة الدولة ومعاملة الولاة ، وأن يـكون هناك ابتكار من خليفة لخليفة فى بعض الأنظمة الإدارية ، فقد جعلت السياسة فى الإسلام سياسة مدنية حرة التصرف حرة الحركة فى نطاق عام متسق الآفاق مرن الجنبات من القواعد الـكلية [1] .

ولهذا كانت حياة الخلفاء وما ابتكر من أنظمة سياسية وإدارية فى حياتهم تشريعاً أراد الله تبارك وتعالى أن يوجه الأنظار إليه ، وأن تكون طريقة الإنتخاب ونظام المبايعة الذى يتم للخلفاء الأربعة . بعض أنماط نظم الحـكم

---

(١) راجع دولة القرآن . عبد الباقى سرور ص ١١٢

التي يجيزها الإسلام ، والنظام الإدارى هو الذى إختلف من خليفة لآخر وكان أيضا تصويراً لبعض أنماط النظم الإدارية التي يجيزها الإسلام .

بل أنه حين تغير نظام الخلافة إلى ملك ، إنما كان ذلك إقرارا بجوار النظام الملكي ، وإن كان نظام الحكم فى عهد الخلفاء يعتبر من أفضل النظم وأحسنها ، ولذلك لفت الرسول ﷺ النظر إليه فى حديثه (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى) . حيث يعتبر هذا النظام من أرقى ما وصل إليه أنظمة الحكم من إبداع . حيث تحقق فيه مبادىء العدالة المطلقة والمساواة التامة ، وتصان فيه الحدود وتنفذ الشرائع . وهو نظام حكم متطور يراعى العرف والعادة ومصالح الناس المتحركة ولون الثقافات المحيطة به وطابع الحياة التي يدور فى فلكها .

وعلى هذا يمكن أن نقول « إن الإسلام بأصوله العامة وبما فرضه من الشورى فى أمور الأمة ، قابل تماما لكل نظام يؤدى إلى تبين أهل الرأى والبصر مافيه الخير للأمة وما يحقق المصلحة العامة فى جميع أمورها ، ولكل أهل عصر من العصور أن يتخذوا النظام الذى يرونه كفيلا بتحقيق تلك الغاية الجليلة معتمدين على إجتهادهم ومستلهمين روح الإسلام وشريعته »[1]

ونستطيع هنا أن نقرر أن الطريقة التي تم بها إنتخاب هؤلاء الخلفاء إنما كانت صورا وأنماطا تمت على يد صحابة رسول الله ﷺ وأقرب الناس إليه تكميلا للتشريع أو توضيحا له ولبعض ما غمض فيه ، وتدريبا للأمة على حكم

---

(١) راجع نظام الحكم فى الإسلام د. محمد يوسف موسى ص ٨٠ ، ٨١ .

لنفسها بنفسها ، أو التصرف بما تراه صالحا حسب الزمان والمكان دون خروج على التعاليم الشرعية .

مقصود الحكم الاسلامى والغاية من إقامته :

والغاية من الحكم عموما هو كما قلنا: تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم وإقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم على بعض ، وحين نعرف هذه الغاية ونعرف الغاية التى يريدها الاسلام من نظام الحكم الذى يرضاه والذى لا يقل إطلاقا عن غاية كل حكم صالح والذى يظهر من حكم التشريع نفسها والتى نص عليها مع الأحكام كقوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) [١] ، وحتى فى العبادات نفسها حيث قرن التكليف بها ، بالحكمة التى تدل على أن المقصود من هذه العبادات وهى إصلاح حال الناس ، كقوله تعالى : فى حكمة الصلاة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) . [٢]

وفى الصيام (لعلكم تتقون) [٣] وفى الزكاة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) [٤] وغير ذلك من الحكم التى قرنت بالعبادات جميعها. حين نعرف الغاية ، نعرف إلى أى مدى كانت الغاية من نظام الحكم الاسلامى، والاسلام كما نعرف دين عام عالمى لم يأت لقوم دون قوم، أو لأمة دون أخرى، ولذلك كانت الغاية من نظام الحكم فى الاسلام غاية شاملة واسعة تشتمل على أهداف كثيرة، وحين نعرف أن الاسلام لا يريد الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة لأبنائه فحسب، بل لسائر أمم الأرض وأجناسها وشعوبها . لا فرق بين من تقدم بهم الزمان أو تأخر ولا بين القوى والضعيف ، ولا بين المسلمين وغير المسلمين ، حين نعرف ذلك

---

(١) البقرة ١٧٩ (٢) العنكبوت (٣) البقرة ١٨٣ (٤) التوبة ١٠٢

جيدا نعرف السبب الذى جعل ابن خلدون مثلا يعرّف الخلافة التى هى الرئاسة الكبرى فى الدولة بأنها هى :—

(حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية والراجعة إليها) ثم يعلل ذلك بقوله (إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى إعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به) . (١)

وكذلك فإن الماوردى يقول عن الإمامة التى هي الرياسة العليا للدولة (بأنها موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا) . (٢)

ومن هنا يتضح أن مقصود الحكم الاسلامى هو إقامة الحق والعدل ، ولا يكون ذلك إلا بتنفيذ الشرع ، ولهذا كان نظام البيعة والذى وصل الخلفاء الأربعة إلى مراكز السلطة العليا عن طريقه ، هو أسلم الطرق لاختيار الحاكم الذى نصب لحراسة الدين وسياسة الدنيا ، وحمل الناس على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية على السواء . حتى وإن كان طريق وصول كل خليفة من الخلفاء الأربعة إلى مركز السلطة قد تم بوسيلة تختلف من خليفة لآخر ، وإن كانت البيعة العامة هى التى أعطتهم فى النهاية شرعية تولى هذه السلطة وقد تمت البيعة لأبى بكر فى ثقيفة بنى ساعده . ثم تمت له البيعة الكبرى فى المسجد فى اليوم التالى ، وتمت بيعة عمر بن الخطاب بترشيح من أبى بكر ، وتمت بيعة عثمان بعد ترشيح عمر لستة كان عثمان منهم ، وتمت بيعة على حين عرضت الخلافة عليه بعد مقتل عثمان رضى الله عنهم .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٩١

(٢) الأحكام السلطانية ص ٥

بل حين انقلبت الخلافة إلى ملك وأصبح الملك يوصى لولى عهده بالملك من بعده . كان لا يعتبر حاكما فعليا إلا بعد مبايعة العامة له خصوصاً فى عصر بنى أمية الذى كان يعرف أن تولى الحكم لا يأخذ صفة الشرعية إلا بعدمبايعة الناس للحاكم الجديد ، ولهذا رأينا معاوية بن أبى سفيان يطلب البيعة لإبنه يزيد فى حياته، وكان بنو أمية يأخذون البيعة لمن صدر له كتاب العهد فى حياة الخليفة الذى عهد إليه ، ثم تجدد البيعة بعد وفاته ، ومعنى هذا أنهم كانوا يعرفون تماما أن مجرد العهد ليس ملزما شرعاً، بل لابد من البيعة العامة بعده : [1] .

وقد وقف عمر بن عبد العزيز على المنبر بعد قراءة كتاب العهد الذى عهد فيه سليمان بن عبد الملك بالخلافة له بعد وفاته وقال (إنى والله ما استؤمرت فى هذا الأمر وأنتم بالخيار) ، أو كما جاء فى رواية أخرى (أيها الناس إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى منى ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين وإنى قد خلعت مافى أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم . [2]

وهكذا حين ندرس الوقائع التى تمت بها تولية كل واحد من الخلفاء الأربعة دراسة تحليلية، وهى كما قلنا تختلف من واحد لآخر . نرى أن الأساس الأول لتولى كل خليفة مهام سلطاته كان هو البيعة العامة عن رضا واختيار ، ونرى أن عهد الخليفة السابق للخليفة اللاحق لم يكن إلا مجرد ترشيح لمن يراه أهلا للخلافة فإن وافقت الأمة على ترشيحه بايعوه ، وإلا كان لهم أن يبايعوا غيره .

« والخليفة بناء على هذه المبايعة كان يستمد سلطانه من الأمة الممثلة فى

---

(١) راجع نظام الحكم فى الاسلام ص ٧١
(٢) المراجع السابق ص ٧٢

أولى الحل والعقد ، ويعتمد فى بقاء هذا السلطان على ثقتهم به ، ونظره فى مصالحهم ، ولهذا قرر علماء المسلمين أن الأمة خلع الخليفة بسبب يوجبه وإن أدى إلى الفتنة إحتمل أدنى المضرتين » (١) .

عرف الخلفاء الأربعة أنهم وكلاء عن الأمة فى إدارة أمور الدولة وفى تنظيم شئونها حسب شريعة الله ورسوله ، وعرفوا أنهم يستمدون سلطانهم من الأمة وأنه إذا كانت لهم سيادة فى الدولة فليس ذلك لصفتهم الشخصية ، وإنما لأنهم يشغلون منصب الخليفة ، وعرفوا أن شرط بقائهم فى هذا المنصب توجيه الأمة إلى ما فيه الخير والصالح ، وتدبير شئون الدولة بالأمانة والعدل وقيادتها إلى حياة العزة والكرامة ، وأن لهؤلاء الذين يستمد الخليفة سلطانه منهم حق نصحه وتوجيهه وتقويمه إن أساء . بل حق عزله من المنصب الذى وليه عنها باختيارها إن جد ما يوجب عزله .

ولذلك نرى فى خطبة أبى بكر وعمر ما يوضح هذا المعنى جيداً . وما يبين فهم هؤلاء الخلفاء لطبيعة موقفهم ومنصبهم ، فهم أنفسهم أعلنوا للناس بعد بيعتهم بأنهم أفراد عاديون من أبناء الأمة ، وليس لهم أن يستبدوا بالأمر دونهم ، وطلبوا منهم أن يعاونوهم حين يحسنون العمل وأن ينصحوا لهم حين يخطئون ، وأنهم ليست لهم طاعة عليهم إن عصوا الله ورسوله . (٢)

---

(١) السياسة الشرعية (عبد الوهاب خلاف) ص ٥٨

(٢) لما تولى أبو بكر الخلافة وقف على المنبر وألقى خطبته الأولى التى يمكن إعتبارها بيان حكومى أو سياسة الحكومة الجديدة والتى توضح مدى التزام الخلفاء بالقرآن والسنة ، وتعتبر هذه الخطبة على اختصارها برنامج سياسى ودينى وأخلاقى جامع انطوت على مبادىء سامية وروح شريفة عالية (قال أبو بكر بعد حمد الله والثناء عليه) (أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى =

وقد سار الحكم طيلة عهد الخلفاء الراشدين لم يستبد واحد منهم برأيه مهما كان هـذا الرأي ، يلتزمون بالـكتاب والسنة ،ويعملون جاهدين لخير الإسلام والمسلمين ، فـكانت أعمالهم وأحوالهم وإداراتهم أسلوباً آخر أضافوه إلى أساليب الدعوة الى الإسلام ، وأثبتوا أن تعاليم الاسلام جديرة بالبقاء وباعتناقهـا والعمـــل من أجلها ، بل المـــوت فى سبيل نشرهـا وانتشارها .

= وإن أسأت فقوموني ... الخ) راجع ابن هشام القسم الثانى ١ ص٦٦ ولم تخرج خطبة عمر عما تضمنته خطبة أبى بكر وقد جاء فيها (أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم .. الخ) راجع الفاروق عمر (هيكل) ص ٩٣ .

إلى أى النظم ينتمى نظام الحكم الإسلامى؟

حاول بعض الكتاب والباحثين أن يقارن بين نظام الحكم الإسلامى فى عصر الرسول والراشدين وبين نظم الحكم المعروفة ، واختلف هؤلاء الباحثون فى تحديد انتماء النظام الإسلامى إلى أحد النظم المعروفة ، فبعضهم نسب نظام الحكم الاسلامى إلى الديمقراطية، وبعضهم قال عنه : إنه نظام السلطان الفردى العادل، وبعضهم حاول أن يوجد تشابها بينه وبين نظام الحكم الرومانى أيام الجمهورية، وبعضهم قال إنه كان نظاما إلهيا وأن الحكومة الإسلامية كانت حكومة تيوقراطية مقدسة .

ونحن حين قلنا إن كل ما حدث من أحداث وما جد من نظم فى عصر الخلفاء يعتبر تشريعا أو امتداداً للتشريع أو تفسيراً وتأويلا للتشريع الذى أقام صرح بنائه محمد ﷺ ، وتمسكنا بقول رسول الله ﷺ (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى) لم نكن نعنى إطلاقا أن نثبت أن الحكم فى هذه الفترة كان حكما ثيقراطيا إلهيا ، بل إنى أنفى عن النبى نفسه أن يكون حاكما تيوقراطيا، أى أن الحكومة التى كانت تحكم المسلمين فى هذا العهد إنما كانت تستمد سلطانها من الله وحده ولا ترى للناس شأنا فى هذا السلطان .

فبرغم أن الله تعالى أوحى إلى النبى بمجملات ومفصلات عن الحكم ، وقال عن الرسول (ماضل صاحبكم وماغوى وما ينطق عن الهوى[1]) وبرغم أن الله أمر المسلمين أن يطيعوا الله ورسوله . برغم هذا كله . « كان من حق

---

(١) النجم ٢ ، ٣

الناس أن يشاركوا فى هذا الحكم وأن يعترضوا عليه أحيانا ، بل ينكروا منه البعض أحيانا أخرى ، لأن الحكم لو كان متنزلا من السماء لأمضى النبى كل شىء بأمر ربه لم يشاور فيه أحداً ولم يأمر فيه وليا من أوليائه ، فكيف والله يقول (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر[1]) .

ولو كان الحكم متنزلا من السماء ما قبل النبى مشورة الحباب بن المنذر فى بدر وما قبل رأى أصحابه بخصوص الأسرى بعد موقعة بدر ، بل إن النبى تعرض للوم من الله بسبب ما صنعه مع الأسرى ، فنزل القرآن (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض[2]) .

ويقول الدكتور طه حسين[3] ، (ولو كان إلاهيا يتنزل دائما من السماء لما استطاع المسلمون أن يستكرهوا رسول الله على مالا يريد ، ولما قبل النبى منهم ذلك مهما تكن الظروف ، ويقول : وعن المشورة وعن الاعتماد على رأى أصحابه ، صدر أمر النبى حين أمر بحفر الخندق فى غزوة الأحزاب ، فقد كان الإسلام وما زال ديناً قبل كل شىء وبعد كل شىء يوجه الناس إلى مصالحهم فى الدنيا والآخرة بما بين لهم من الحدود والأحكام التى تتصل بالتوحيد أولا وبتصديق النبى ثانياً وبتوخى الخير فى السيرة بعد ذلك ، ولكنه لم يسلبهم حريتهم ، ولم يملك عليهم أمرهم كله ، وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها ولم يحص عليهم كل ما ينبغى أن يفعلوا وكل ما ينبغى أن يتركوا ، وإنما ترك لهم عقولا تبصر وقلوبا تستذكر ، وأذن لهم فى أن يتوخوا الخير

---

(١) آل عمران ١٥٩

(٢) الانفال ٦٧

(٣) الفتنة الكبرى (عثمان) ص ٢٢

والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا[١] .

وإذا كان ذلك شأن حكومة النبي فكيف بحكومة الراشدين أو حكومة غيرهم وهم ليسوا بأنبياء ولا يوحى اليهم .

ولو كان للمسلمين نظام سياسي منزل من السماء لرسمه القرآن أو لبين النبي ﷺ حدوده وأصوله ، ولفرض على المسلمين به الإذعان له في غير مجادلة ولا مناضلة ولا مماراة ، إنما رسم لهم حدوداً عامة ثم ترك لهم تبليغ أمورهم كما يحبون على ألا يتعدوا هذه الحدود ، والنبي نفسه لم يرسم بسنته نظاما معينا للحكم ولا للسياسة ، وترك ذلك للمسلمين حسب ظروفهم وصالح أمرهم[٢] .

وحين نحاول دراسة جميع أنواع نظم الحكم التي عرفها العالم القديم والحديث ، نجد أن النظام الإسلامي ، نظام فريد في نوعه ليس له شبيه مع نظم الحكم التي نعرفها ، وإن كانت الأيام تأتي إلينا كل يوم بجديد وتظهر نظم حكم جديدة لم تكن معروفة من قبل وأصبح هناك تداخل بين نظم الحكم المعروفة والتي اصطلح عليها العالم لفترة طويلة من الزمان .

فمثلا كان عندنا نظام الاتحاد الاشتراكي وفي أعلى قمته اللجنة التنفيذية العليا التي ترشح من بينها رئيسا للجمهورية ، يعرض اسمه على الشعب للاستفتاء فيه ، وهو شبيه إلى حد كبير بنظام البيعة الذي كان موجوداً من زمن الخلفاء خصوصاً بعد قتل عمر وتعيين ستة كلجنة تنفيذية عليا تختار من بينها واحداً يعرض على الشعب ويؤخذ موافقته على هذا الترشيح عن طريق البيعة وهذا النظام نظام حديث ومبتكر وليس واحداً من النظم المعروفة عند رجال القانون الدستوري .

(١) المرجع السابق ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) « « ص ٢٤

ويمكن أن نقول فى نظام الحكم الإسلامى ما قاله الدكتور طه حسين: لم يكن نظام الحكم الإسلامى فى ذلك العهد إذا نظام حكم مطلق ولا نظاما ديمقراطيا على نحو ما عرف الرومان ، وإنما كان نظاما عربيا خالصاً بيّن له الاسلام حدوده العامة من جهة وحاول المسلمون أن يملؤا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى[1] .

ورب سائل يسأل ويقول : إذا جاز لنا أن ننفى عن نظام الحكم الإسلامى بأنه ليس نظاما تيوقراطيا حيث لا يجعل لرئيس الدولة أو الإمام أى صفة أو حق إلهى فى تولى سلطته ، وإذا جاز لنا أيضاً أن ننفى عنه أنه كان نظاما ملكيا حيث لا توارث ، وننفى عنه أنه كان نظاما دكتاتوريا أو استبداديا على تعدد النظم الاستبدادية واختلاف صورها ، فكيف ننفى عن الحكم الإسلامى أنه ليس حكما ديمقراطيا ؟ مع أن معنى الحكم الديمقراطى هو حكم الشعب للشعب وقد قلنا إن الخليفة أو الإمام نائب عن الأمة يحكم باسمها ويستمد سلطاته من الشعب الذى له الحق فى النصح والتوجيه والتقويم إن أساء، بل حق العزل إن كان فى بقائه إضرار بالأمة بسبب خروجه عن الدين وعدم التزامه بما عاهد الأمة عليه .

فكيف لا يكون بناء على هذا حكما ديمقراطيا لأنه (حكم الشعب للشعب) نقول أن التصور المعاصر للديمقراطية الآن يختلف اختلافاً كبيراً عن التصور الذى كان سائدا فى أذهان واضعى هذا التعبير فى الأصل وهم الأغريق القدماء ، فبالنسبة للإغريق كانت عبارة حكم الشعب وهو جوهر الديمقراطية يقصد بها على وجه التحديد حكومة طبقة خاصة لا حكومة الشعب كله . ففى حكومة الولايات التى سادت فى عصرهم . كانت كلمة الشعب تعنى طبقة

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥ .

المواطنين الأحرار الذين كانوا لا يزيدون فى العادة على عشر مجموع السكان على حين لم يكن للباقين على الرغم من أدائهم قسرا فريضة الدفاع عن الوطن أية حقوق مدنية على الإطلاق ومنها الحقوق السياسة طبعا ، هذه الحقوق التى كانت تتركز فى المواطنين الأحرار وحدهم[1] .

ويتحدث الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه نظام الحكم فى الإسلام[1] عن معنى الديمقراطية بمفهومها الحديث فيقول : (إن هذا المصطلح يستعمله الغرب غالباً بالمعنى الذى أعطته إياه الثورة الفرنسية ، وهو الدلالة على مبدأ المساواة فى الحقوق السياسية والاجتماعية والإقتصادية لجميع المواطنين ، ورقابة الأمة على الحكومة بواسطة نوابها وممثليها ، وكذلك من مفهوم هذا المصطلح عند الغرب بعد الثورة الفرنسية أن من حق الشعب أن يضع ما يشاء من التشريعات لأغلبية أصوات نوابه ، وعلى هذا تكون إرادة الشعب عرفت لا معقب لها ولا تتقيد مطلقا بقيود خارجة عنها، ولا تسأل أمام سلطة أخرى .

وحين نحاول المقارنة بين نظام الحكم الإسلامى والديمقراطية بمعناها القديم والحديث نجد أن الإسلام ينادى بأن الناس جميعاً متساوون من الناحية الإجتماعية ، ولهذا فلابد أن يعطوا فرصاً متساوية ، كذلك للتطور والتعبير عن إرادته .

وبهذا تفارق الديمقراطية الإسلامية ديمقراطية الإغريق .

ومن ناحية أخرى يفرض الإسلام على المسلمين أن يخضعوا أفعالهم لتوجيهات الشريعة الإلهية . التى نص عليها القرآن والتى كانت حياة الرسول مثالها الحى ، ومثل هذا الالتزام يفرض على المجتمع حدودا لحريتهم التشريعية .

---

(١) نظام الحكم فى الإسلام (محمد يوسف موسى) ص ١٣٧

وينكر على إرادة الشعب صفة السيادة المطلقة ، هذه السيادة التى تشكل جزءا جوهرياً بمفهوم الديمقراطية فى الغرب المعاصر .

وبهذا تفارق الديمقراطية العربية الاسلامية ، الديمقراطية الإغريقية والديمقراطية فى الغرب الحديث والمعاصر معا ، فإرادة الشعب فى النظم الديمقراطية فى القديم والحديث لا معقب لها ، على حين أن إرادة الشعب التى لها أعتبارها فى نظر الاسلام هى التى لا تخالف عن أمر الله ورسوله وشريعته فإن الشريعة هى صاحبة السلطان والسيادة العليا[1] .

فليس من الدقة أن يقال بعد هذا أن حكم الراشدين كان حكما ديمقراطيا بمعناه الدقيق ، فلم يكن كل المسلمين قد اختاروهم لأمر الخلافة ، اختارهم فريق بعينه من المسلمين ، وهم أولوا الحل والعقد من المهاجرين والأنصار . واختارهم أهل المدينة فقط دون غيرهم من البلاد ، ثم لم يكن للشعب ولا حتى لهذا الفريق من المهاجرين والأنصار نظام معين يراقبون به حكامهم ويحاسبوهم على ما يصنعونه ، وعلى هذا فليس لنا أن نقول إن نظام الحكم الاسلامى كان نظاماً ديمقراطياً بمعناه الدقيق فى الفقه الدستورى عند القدماء والمحدثين .

أما إذا أطلق لفظ الديمقراطية على هذا المعنى العام الذى يفهم منه حاجة الحكام إلى رضا الشعب عنهم وثقة الشعب بهم وأخذ الحكام أنفسهم بأن يسيروا فى الشعب سيرة تقوم على العدل والمساواة ، وتبرأ من التسلط والاستعلاء ، فأنت تستطيع أن تقول أن نظام الحكم فى الصدر الأول فى

---

(١) راجع نظام الحكم فى الاسلام (د. محمد يوسف موسى) ص ١٣٨ ، ١٣٩ وهوامشها وكذا ص ١٤٤

الإسلام قد كان نظاماً ديمقراطيا بهذا المعنى العام الذى ليس له مقاييس ولا معايير ولا حدود[1] .

أما الذين يظنون أن نظام الحكم فى ذلك الصدر من الإسلام كان نظام الحكم الفردى العادل فإنما هم يقولون ذلك لأنهم كما يقولون لم يجدوا للنبي ولأصحابه من بعده شركاء فى الحكم[2] .

ولكن إذا دققنا النظر واستعرضنا أهم الأحداث التى حدثت فى عصر الرسول وخلفائه من بعده لوجدنا أنه لم يكن هناك سلطة فردية أو سلطان فردى حق وإن حتمت الضرورة وجود فرد واحد فى قمة السلطة مسئول وحده أمام الشعب عن كل التصرفات .

ولم يكن أصحابهم مجرد مشيرين لا يلزمون لمشورتهم أحداً كما قال الدكتور طه حسين[3] . وإنما كان هناك مجلس شورى من طبقة من الرجال ارتفعت مكانتهم الاجتماعية . لا عن طريق الثروة أو المولد ، ولكن لإبلائهم فى سبيل الإسلام ، واتصالهم بالنبى وقربهم منه أيام حياته ، والإذعان لما كان يأمر به وينهى ، وأكبرتهم عامة المسلمين مع أنه كان منهم الرقيق الأصل كبلال وصهيب ومن كان من المستضعفين قبل الهجرة كعمار بن ياسر وغيره ، هؤلاء الناس الذين مات النبى ﷺ وهو عنهم راض وبشر كثيراً منهم بالجنة ، واختار الرسول ﷺ منهم للمدين والفقهاء والأئمة وأرسلهم إلى أحياء العرب يعلمون الناس دينهم، أصبح هؤلاء بعد وفاة النبى ﷺ أصحاب الحل والعقد فى أمور المسلمين كلها ، واعتمد الخلفاء عليهم إعتماداً كبيراً وأصبحوا هم مجلس الشورى

---

(١) راجع الفتنة الكبرى (عثمان) طه حسين ص ٢٩ .
(٢) المرجع ص ٢٩ الفتنة الكبرى (عثمان) .
(٣) الفاروق عمر ص ٩٣ (هيكل) ج ١ .

الحكومة الإسلامية ، يلجأ الخليفة إليهم حين يحتاج إلى التشاور وإدارة الرأى، وإن كان هذا لم يكن ليمنع أن يكون من حق أى فرد من الناس أن يشير وينصح للإمام وأن يعترض على ما يعمله الإمام أو يرى عمله .

وهذا هو عمر المعروف بالشدة حين يقف على المنبر فى أول خطاب له ويقول : (من رأى فىّ إعوجاجا فليقومه) فإذا برجل من عامة الشعب يرد على الفور ، والله لو رأينا اعوجاجا لقومناه بسيوفنا[1] .

كان الخلفاء يعرفون جيداً أن صاحب السيادة الحقيقة ليس هو الحاكم وأن السيادة هى حق الأمة وحدها والوالى يمارس هذا الحق كأجير أو وكيل عنها ويمكنها عزله إن وجدت مبرراً ، ولذلك رأينا عمر يقف على المنبر ويقول والله ما أنا بملك فأستعبدكم بملك أو جبرية . وما أن إلا كأحدكم منزلتى منكم كمنزلة والى اليتيم منه ومن ماله[2] .

فكيف بعد ذلك يتصرف الخليفة برأيه دون موافقة الآخرين .

لم يثبت إطلاقا أن خليفة من الخلفاء استبد برأيه ونفذه مخالفاً رأى الأكثرية . بل إن العمال الذين كان يستعملهم الخلفاء ، وللخلفاء حق عزلهم كتوليتهم كانوا يعترضون على الخليفة حينما يطلب منهم عملا يرون فيه أنه ليس من صالح المسلمين .

فقد روى أن عثمان رضى الله عنه أراد مرة أن يعطى رجلا من ذوى قرابته مقداراً من المال فاستكثره خازن بيت المال ولم يخرجه وألح عثمان رضى الله عنه ، وصمم الخازن على الرفض ، وحين لامه عثمان وقال له : ما أنت ؟ إنما

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠ .

(٢) نظام الحكم فى الاسلام (موسى) ص ٧٥ .

أنت خازن لنا ، إلا أن الخازن (صاحب بيت المال) رد على عثمان الحاكم قائلا (ما كنت أرى أنى خازن لك ، وإنما خازنك أحد مواليك ، لقد كنت أرانى خازناً للمسلمين) ثم أقبل بمفاتيح بيت المال فعلقها على منبر النبى وجلس فى داره[1] .

ولو صحت هذه الرواية لكان ذلك دليلا على مقدار الحرية فى الرأى ومراعاة الصالح العام عند المسلمين، حتى وإن أدى ذلك إلى إقالتهم من وظائفهم أو فصلهم من أعمالهم .

وقد روى أيضاً أن عثمان اضطر فى يوم من الايام بعد أن غاظه إتهام الناقمين عليه وأنه يأخذ من بيت مال المسلمين ليعطى من يشاء بلا حسيب أو رقيب ، اضطر إزاء ذلك أن يعلن (أنه سيأخذ من المال حاجته وإن رغمت أنوف الكارهين لذلك ، لكن عليا رضى الله عنه رد عليه قائلا : إذا تمنع من ذلك[2] .

حتى عمر بن الخطاب المعروف بشدته فى الحق والذى كان يرهبه الجميع . لم يستطع وهو الحاكم ، أن ينفذ ما رآه من تأميم الأرض المفتوحة أرض العراق وجعلها ملكا للأمة دون الأفراد الفاتحين ، إلا بعد موافقة الصحابة على هذا الرأى الذى طالت المناقشات بسببه بين المؤيدين والمعارضين أياماً حتى وافقت الأغلبية على رأى عمر[3] .

واقد تزعم معارضة عمر الحاكم ، بلال بن رباح ، العبد الحبشى الأسود الذى رفعه الإسلام إلى هذه المرتبة ، وأصبح زعيما للمعارضة فوقف فى وجه الحاكم القوى عمر بن الخطاب يعترض على ما رآه من عدم تقسيم الأرض على

---

(۱) الفتنة الكبرى ص ۹٤ .
(۲) المرجع السابق ص ۱٥٥ .
(۳) راجع القصة بكتاب الخراج لأبى يوسف ص ۲٥ ، ۲٦ ، ۳٥ .

الجيش الفاتح ولم يستطع عمر وهو الحاكم المسئول ، أن يصدر أمره بالتنفيذ وبلال وعبد الرحمن بن عوف وبعض الصحابة يرون خلاف ما يراه، مع أن علياً وطلحة كانا يريان رأى عمر، ولم يزد عمر على قوله (اللهم اكفنى بلالا وأصحابه) .

وقد مكثوا على ذلك أياماً حتى جاء عمر بن الخطاب وقال لهم قد وجدت حجة فى تركه وألا أقسمه ، ثم أخذ عمر يدلل من القرآن الكريم على أن عدم تقسيمه على الجيش الفاتح أصلح للأمة ، وأفيد لها ، وأجدر بالتنفيذ لأن تقسيمه على الفاتحين سيؤدي إلى ظهور الاقطاع واستئثار عدد قليل من الشعب بالأرض دون غيرهم ، وأن ذلك سيؤدى إلى التهاون والتراخى فى الجهاد وانشغال المحاربين بالأرض وتملكها عن الجهاد فى سبيل الله[1] .

ولم يستطع عمر بن الخطاب وهو الحاكم الفرد أن ينفذ ما رآه رغما عن مجلس الشورى قبل أن يقنعهم برأيه ويثبت لهم بالحجة والبرهان صحة هذا الرأى وصوابه .

وقد أرسل عمر بن الخطاب إلى المهاجرين الأولين يسألهم ويستشيرهم ويسترشد بآرائهم فى هذا الموضوع فاختلفوا ثم أرسل إلى عشرة من كبراء وأشراف الأوس والخزرج وعرض عليهم الرأى وقال لهم (بعد أن حمد الله وأثنى عليه) (إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أمانة ما حملت من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

قالوا : قل نسمع يا أمير المؤمنين .

قال : (قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وأنى

---

(١) المرجع السابق

أعوذ بالله أن أركب ظلماً ، ولأن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ـ وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين ، المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم ، أرأيتم هذه الثغور ؟ لا بد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة ، والكوفة ، والبصرة ومصر من أين تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ .

فقالوا جميعا الرأي رأيك فنعم ما قلت وما رأيت، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به ، رجع أهل الكفر الى مدنهم)(١) وهكذا لم يشأ عمر أو قل لم يستطع أن ينفذ أمراً رآه وهو الحاكم إلا بعد أخذ الموافقة عليه، وحين أكثر المعارضون على عمر بعد أن رأوا رأيه قبل استشارة المهاجرين والأنصار ، وأخذ رأيهم وموافقتهم على رأيه في النهاية بعد إقتناعهم بوجهة نظره ، حين أكثروا عليه وقالوا له أ تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟ .

لم يقل لهم أنا الحاكم وأنا المسئول وسأنفذه رضيتم أم أبيتم . ولكن عمر كان لا يزيد على أن (يقول هذا رأي(٢)) .

وهكذا كان عمر والخلفاء جميعا في كل الأمور يتبعون نهج الإسلام في الحكم فلا يبرم أمر إلا عن مشورة تنفيذ لقوله تعالى (وشاورهم في الامر)(٣).

---

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٥ .
(٣) آل عمران ١٥٩ .

وقوله سبحانه (وأمرهم شورى بينهم)[١] .

وحين أراد عمر الخروج إلى العراق جمع الناس فى المسجد واستشارهم وقال لهم (أخبرونى الرأى فإنى سائر . فقال العامة : (سر وسر بنا معك)[٢] وربما ظن بعض الناس أن أبا بكر حين حارب المرتدين إنما استأثر برأيه ونفذ ما أراده دون الأخذ بشورة أحد . برغم اعتراض المعترضين ؟ .

وربما أخذوا من موقف التصميم الذى ظهر من كلام أبى بكر حين قال : (والله لو منعونى عقالا (أو عناقا) كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه) فظنوا منه أن معناه أنه سيحارب رضوا أم لم يرضوا ووافقوا أو لم يوافقوا ، ولكن الأمر على خلاف ذلك ، فالرجل بموقفه هذا إنما كانت قد آثرته ردة المرتدين لأنها مسته فى كل ما يثيره ، وأصابته فى كل ما يعزه ويغار عليه ، وهو حريص على الإسلام ودولة الإسلام ، ورأيه الذى يراه هو أن يحارب حتى وإن منعوا عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ .

أما أنه نفذ ما رآه برغم عدم موافقة أهل الشورى واعتراض عمر عليه ، فإن هذا لم يثبت ، لأن عمر رضى الله عنه الذى كان له وجهة نظر فى عدم مقاتلة هؤلاء الناس قال لصاحبه (يا خليفة رسول الله تألف النـاس وارفق بهم ، كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم) ما لبث أن قال: (والله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق)[٣].

ومع اختلاف أبى بكر وعمر فى الرأى إلا أن ذلك لم يغير ما بين الرجلين

---

(١) الشورى ٣٨ .

(٢) المرجع السابق (الطائفين) ص ٩٥ .

(٣) المرجع السابق عمر (هيكل) .

من ود ، ولم يوغر صدر أبي بكر على عمر ، وإنما أجابه على اعتراضه وأقنعه بوجهة نظره، وأثبت له أن الحديث الذي استدل به إنما يؤيد وجهة نظره هو ، حيث قال : إلا بحقها والزكاة حق المال واقتنع عمر بالرأى وشرح الله صدره للقتال كما قال : وظل برغم ما حدث،الوزير الذى يسمع لقوله وتقدر مشورته .

صحيح أن الإجماع على رأى واحد من الأمور النادرة خصوصاً فيما يتعلق بمسائل الحكم ، والسياسة وليس على الحاكم أن ينتظر إجماعا على الرأى حتى يوافق عليه ، ولكن عليه أن يحاول إقناع مستشاريه بوجهة نظره ، ثم ينزل فى النهاية على رأى الأغلبية حتى وإن كان الرأى مخالفاً لرأيه شخصيا .

وهكذا تعلموا من الرسول وعلموا الناس فكانوا المثل الذى يجب أن يحتذى والقدوة التى يجب أن يقتدى بها .

(١) آل عمران آية [١٨٩] .

(المقومات الأساسية للدولة الإسلامية)

يعتبر القرآن الكريم من أهم المقومات الأساسية للدولة الاسلامية ؛ باعتباره الدستور الأوحد والأساس الأول لقوانينها وتشريعاتها . ولذلك اهتم الرسول ﷺ به . وبتدوينه وتحفيظه للصحابة وتعليمهم إياه . كذلك اهتم الصحابة به وبجمعه وتوحيد قراءته فى جميع بلاد الإسلام . باعتباره التشريع الفسيح الذى يتسع للناس جميعا مهما اختلفت لغاتهم وتباينت بلادهم .

ونظراً لما بذله الخلفاء فى جمعه والمحافظة عليه : فقد تحدثت عنه فى هذا الجزء وهو الخاص بالخلفاء الراشدين .

ولقد ركزت على موضوعات معينة بالنسبة للمقومات فى الدولة الإسلامية . وذلك لأهميتها وأثرها الكبير فى نشر الإسلام وانتشاره وكذلك لاعتراض كثير من المستشرقين وأتباعهم على بعض هذه المقومات كالجزية التى قالوا عنها إنها كانت طريقا من طرق الضغط الإقتصادى لحمل غير المسلمين على إعتناق الإسلام . ودليلا على أن الاسلام قد انتشر بقوة السيف .

ولذلك اضطررت لشرح الجزية بتفصيل . والتحدث عن الفتوحات الإسلامية وأسبابها . ثم أثبت أن الجزية لم تكن ضغطا على غير المسلمين لإكراههم على إعتناق الاسلام ، ولأثبت أنها كانت بنظامها الإسلامى الرحيم أسلوبا من أساليب الدعوة المبنية على التسامح وعدم الإكراه ، وأن الفتوح الإسلامية : إن كانت قد فتحت البلاد أمام المسلمين فإن المعاملة الحسنة والطيبة من الفاتحين لأهل البلاد . وحقيقة الاسلام التى اطلع عليها أهل البلاد المفتوحة بعد سماعهم للدعوة ، هى التى جعلت الاسلام ينتشر إنتشارا سريعا . حتى كان معظم أهل البلاد أحرص على الدعوة من أصحابها الفاتحين .

ولذلك سأكتفى فى الحديث عن المقومات الأساسية للدولة الاسلامية على :-

١ - الجهاد والفتوحات الاسلامية ونشر الدعوة :

٢ - القضاء المستقل كأساس للعدل والمساواة المطلقة :

٣ - الموارد الاسلامية بإيجاز وعن الجزية بتفصيل باعتبارها موردا من هذه الموارد لأرد بها على الطاعنين فيها وفى مشروعيتها .

٤ - الحسبة ونظامها وتشريعها الجميل الذى يقر الحق والعدل ويحافظ عليهما .

(الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية)

تمهيد[1] :

تهدف كثير من الدول إلى سيادة شعوبها على غيرها من الشعوب وتحاول كل دولة ما استطاعت أن توسع ملكها بين الدول حتى تكون أعظم دولة فى العالم وحتى تستأثر بكل خيرات الأرض .

ولهذا تقوم الحروب بين الدول ، وأسبابها هذا الطمع المرذول والجشع الممقوت والطغيان الذى يؤدى إلى هذه الحروب ويثيرها بين الشعوب .

أما دولة الإسلام أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم الدولة العربية الإسلامية التى أسسها محمد ﷺ ، وتولى حكمها من بعده الخلفاء الراشدون فكانت أهدافها لا ترمى إلا إلى تبليغ الدعوة الاسلامية ليس طمعاً فى ملك أو إمارة أو لسيادة شعب على شعب آخر ، وإنما كان القصد من الدعوة الإسلامية هو توحيد الله والحكم بالعدل بين الناس وهما غايتان من أشرف الغايات .

وحين ننظر إلى وصية الرسول ﷺ التى أوصى بها أمراء الجيش الذى أرسله إلى خارج بلاد الحجاز لغزو الأراضى الجنوبية لبلاد الشام حيث كان يقيم الغساسنة وكان هذا سنة ٨ هجرية ، نرى فى هذه الوصية قصد الرسول ﷺ من هذه الحرب حيث لم يرسل هذا الجيش بقصد الاستئثار بخيرات الأرض، لا بقصد الجشع والطمع كما تفعل كثير من الدول ، وإنما أرسله كما قلنا يدعو إلى توحيد الله وإلى الحكم بالعدل بين الناس ، وقد جاء فى هذه الوصية (أوصيكم

---

(١) طبع هذا الفصل مع الجزء الأول وقد وجدنا أنه ألصق بهذا الجزء فأعدنا طبعه هنا وسيراعى حذفه من الجزء الأول فى الطبعات القادمة إن شاء الله

بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً أغزوا باسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم ، أدعهم إلى الدخول فى الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، وإن دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين ويجرى عليهم حكم الله ولا يكون لهم فى الفىء ولا فى الغنيمة شىء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)(١) .

فكأن الأصل فى الجهاد هو العداوة التى بيننا وبينهم وإنما جعلت الحرب خروجاً من هذا المأزق ، والإسلام يلغى هذه العداوة وينهى كل المشاكل .

وقد طلب الرسول أن يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام فان اعتنقوه كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وصاروا حينذاك رعايا لدولة الإسلام وبالتالى فلن تكون هناك العداوة الموجودة الآن ، وحينذاك تنتهى الحرب ولا احتلال ولا فرض نفوذ ولا غير ذلك ، حيث صاروا هم والمسلمين سواء ، وإن رفضوا قبول الإسلام فليعطوا الجزية ، وهى عبارة عن ضريبة بسيطة يدفعونها مقابل حمايتهم واعترافاً منهم بخضوعهم لحكم الدولة الإسلامية ، وليست الجزية إلا معاهدة بينهم وبين المسلمين على عدم الاعتداء أو التعرض لنشر الدعوة

---

(١) امتاع الاسماع جـ ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ٣٧

ومقابل دفعهم لهـــذه الجزية يتكفل المسلمون بحمايتهم والدفاع عنهم (وسنتحدث إن شاء الله عن ذلك بتفصيل عند حديثنا عن الجزية) .

ولا تكون الحرب إلا بعد تخييرهم بين هذه الثلاث التي ذكرت في الوصية والغريب أنهم بعد إسلامهم يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ولهم في الفيء والغنيمة إن جاهدوا مع المسلمين ، ويجرى عليهم حكم الله كما يجرى على المسلمين ، فلا يعاملون معاملة المهزومين ، ولا يفرق بينهم وبين الفاتحين ما داموا قد أسلموا .

وتستمر وصية الرسول ﷺ إلى جيشه وقواده ، فلا يأمرهم بالتخريب ولا بالانتقام من هؤلاء المحاربين كما تمنع الدول حين تحتل بلاداً غير بلادها حيث تخرب وتحطم ما شاء لها التخريب والتحطيم ، إذ لا لهذا الشعب المهزوم وتحطيما لمعنوياته واقتصادياته .

أما الرسول صلى الله عليـــه وسلم فيقول لأصحابه لا تقتلوا وليداً ولا تغدروا ولا تغلوا .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على الدعوة من غير أن يضطر إلى القتال ، ولذلك لم يوافق على أن يقاتلهم على غرة ، وكان يخيرهم قبل القتال بين الإسلام أو العهد أو القتال ، بل ويجب أن يتحرى القائد فلا يقاتلهم إلا إذا منعوه من الدعوة ، وأكثر من هذا لا يقاتلهم إلا إذا قاتلوه أولا وقتلوا من أصحابه .

فقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذا بذلك حين أرسله مع طائفة من المؤمنين لفتح اليمن وعرض الدعوة الإسلامية وتأمينها وقال لهم[1] .

---

(١) أبحاث علماء المسلمين (المؤتمر الرابع) خاص بالجهاد ص ٩٦ بحث الشيخ أبو زهرة .

« ولا تقاتلوهم حتى تدعوهم فإن أسلموا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك وقولوا لهم هل إلى خير من هذا السبيل ؟ فلأن يهدي الله على يديك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت » .

وقد جاء فى مبسوط السرخسى[1] . أنهم كانوا يوجبون على القائد إذا أبوا الإسلام أو العهد أو القتال ألا يحارب فور ذلك ، بل يذهب إلى الصلاة مع جيشه حتى إذا أتم الصلاة عاد فجدد الدعوة ، بل قالوا ، أكثر من ذلك إنه يحسن ألا يقاتلهم فور الدعوة والسكوت ، بل يبيتهم أى يتركهم يبيتون ليلة يتفكرون ويتدبرون ما فى مصلحتهم .

ويقول الأستاذ : الشيخ محمد أبو زهرة فى بحث له قدمه لمؤتمر علماء المسلمين الرابع[2] : وهكذا نرى أن المقصود واضح وهو أن يؤخذوا برفق ليسهلوا موضوع وصول الدعوة إلى الشعب ، وكان المسلمون يستمسكون بهذا أشد الاستمساك ويفعلون ذلك عن بصيرة وعدالة ، ويروى فى ذلك أن قتيبة ابن مسلم دخل جزءا من سمرقند من غير أن يخيرهم ذلك التخيير ، فأرسلوا إلى الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز يشكون إليه أن قتيبة دخل أرضهم من غير أن يخيرهم

فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى القاضى بشكواهم وأمر أن يجلس ليستمع

---

(١) المرجع السابق ؛ ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) ص ٩٧ من المرجع السابق .

إليهم فإن ثبت ما قالوا أمر جيش قتيبة أن يخرج من أرضهم ويعود إلى معسكره ، ثم يخيرهم ، فحقق القاضي الأمر وتبين له صحة شكواهم ، فأمر الجند أن يعودوا إلى ثكناتهم ويخيرهم ذلك التخيير ، فدخلوا في العهد آمنين مطمئنين وواضح أن العهد يكون على أساس العدالة وتمكين الدعوة الإسلامية فإن نكثوا وحاربوا الدعوة نبذ إليهم عهدهم لعدم الوفاء من جانبهم ، وإن أخلوا بالعدالة في رعاياهم رد عهدهم ، ووجب ألا يشتمل العهد على تمكينهم من ذلك ، وإلا بطل إشتراطه هذا لأنه شرط على خلاف ما عليه الأحكام الإسلامية المستمدة من كتاب رسول الله ﷺ .

والإسلام ليس دين إستسلام وليست الفضيلة في الإسلام في الركون إلى الدعة . إنما الفضيلة في الإسلام هي رد الإعتداء ومنع الخضوع للأقوياء ، لذلك شرع القتال لمنع الفساد في الأرض إذ أنه لو ترك الأشرار يعيثون فساداً من غير رادع يردعهم ولا مانع يمنعهم ، لعم الفساد في البر والبحر ولصار هو الهوان الذي يسيطر ، والرحمة بالأشرار قسوة بالأخيار ، وأن الذين يهذب فرط حبهم للتسامح مع الأشرار وهم لا يلوون على شيء إلا جعلوه خرابا ، إنما يحرضون على الشر ، ورب تسامح يحوي في ذاته أكبر الجرائم فتكا بالجماعة الإنسانية ، ولذلك قال الله تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين .)[1]

وكما قلنا لابد لكل دعوة من قوة تحميها وترد عنها أذى المعتدين ، حتى لا يذهب الخير ولا يبقى إلا الشر ، ولهذا أذن الله بالقتال دفاعا عن الفضيلة ، (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا

---

(١) البقرة ٢٥١ وراجع الجهاد مؤتمر علماء المسلمين الرابع ص ٢٦٨

من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ..) [١] .

ولقد فرض الجهاد لضرورة التى تلزمه وتحث عليه ضرورة الدفاع عن النفس والدين والحوزة ، ولو لم يمنع المسلمون من الدعوة إلى الله وتركهم الناس فى دعة واطمئنان — ما تعرضوا بالقتال لأحد ، لأنه فى هـــذه الحالة يكون اعتداء (والله لايحب المعتدين) .

فالقتال فى ذاته غير مستحسن بل هو مما تكرهه النفس وتأباه (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) . [٢]

والجهاد باب من أبواب الدعوة ، والقتال لإزالة الحواجز التى تقف فى وجه هذه الدعوة وتمنع وصولها إلى الناس هو آخر درجاتها وأعلى مستوياتها . فالمسلم يقدم نفسه للموت وهى أغلى مافى الإنسان ، وهذه أعلى درجات الإيمان والقتال بالسيف هو آخر درجات الجهاد وأعلى مستوياتها ، لأن جهاد النفس جهاد شاق له ثمراته خصوصا حين يجعل المؤمن أعماله كلها لله لا يبتغى سوى مرضاته ، وقــد أثر عن النبى أنه قال بعد رجوعه من إحدى الغزوات (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر) .

وأول درجات الجهاد الدعوة إلى الحق بالتى هى أحسن والمجادلة بالحسنى وإن كانت هذه هى غايته المقصودة ، وفى هذا يقول الله تعالى (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) [٣]

والقلوب ليست مفتوحة لكل دعوة خير وليست العقول مستعدة لأن

(١) الحج ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) البقرة ٢١٦
(٣) النحل ١٢٥

تزن الحق مجردة من الهوى والتقليد ، وإنما سيقولون دائما (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) .[١]

ولهذا كان الداعية دائما يجد صعوبة بالغة فى توصيل الحق حيث أن تغيير المألوف الذى يكون فيه إتباع للهوى وسيطرة للشهوات ، من أشق الأمور وأصعبها ، ولذلك كان الدعاة إلى الإسلام لا يسلكون سبيلا معبدا بل يسلكون سبيلا وعرا ، ولا يجدون قلوبا صاغية ولا آذانا مستمعة ، فلا يكفى أن يبينوا بل عليهم أن يجاهدوا ، وقد ضرب الله مثلا صادقا فقال سبحانه : (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين ، قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ، قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مشركون)[٢]

وكانت أعلى صورة من هذا النوع من الجهاد هو جهاد النبى ﷺ فى مكة قبل الهجرة وذاق النبى فى سبيل ذلك الأذى والعذاب بهذا الصبر الجميل . وتحمل الأذى كان رفيق الدعوة والجهاد فى سبيل الله ، وليس ذلك عن ضعف فى شخص الداعى ولكن عن رفق فى الدعوة نفسها ليدخل الناس طائعين مختارين مطمئنين إلى الحق ، وليكون من بعد ذلك رجال جهاد صابرين يفتدون الحق بأنفسهم وأموالهم ، وقد كان النبى يتحمل الأذى بالدعوة لتكون رفيقة من جانبه وليكون الإيمان صادرا عن رغبة لا عن رهبة أيا كانت صورتها وشكلها[٣] .

---

(١) البقرة ١٧٠
(٢) يس ١٣ إلى ١٩
(٣) الجهاد أبحاث علماء المسلمين (الرابع) ص ٨٢ بتصرف

وبعد تأسيس الدولة الاسلامية وهجرة النبي إلى المدينة بدأ نوع جديد من الجهاد ، وهو العمل على حماية هذه الدولة التي نشأت ، ومنع الاعتداء على المستضعفين من المسلمين الذين يخضعون لسلطان غير المسلمين ، ومنع استمرار فتنتهم ، فكان ثمت جهادان .

١ — جهاد في تبليغ الدعوة الإسلامية والإعلام بها .

٢ — وجهاد في منع العدوان والإعتداء على الدولة الاسلامية ، وعلى المسلمين عموما في كل مكان .

وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والزعماء يدعوهم إلى الاسلام وأن يخلوا بينه وبين شعوبهم ويدعوهم إلى الاسلام . فأرسل إلى ملوك عصره وزمانه ، كبارهم وصغارهم لتستمر الدعوة في طريقها (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)[1] .

ونحن كمسلمين حملة أمانة الدعوة الاسلامية بعد الرسول والتعريف بها للعالمين مسئولون عن تبليغها وتوصيلها ،وذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فوجب علينا أن ندعو الناس إلى الإسلام ، وأن نبين لهم حقائقه يهتدي به من يهتدي ويضل به من يضل بعد أن نبينه له . وهذه شعبة من شعب الجهاد . تطالب به الأمة ، وعليها ممثلة في ولي أمرها أن يكون فيها طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)[2] .

متى شرع الجهاد ؟

كانت أول آية نزلت في القتال بإجماع المفسرين هي آية سورة الحج :

---

(١) المائدة ٦٧ .

(٢) آل عمران ١٠٤

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير)[١] .

وقد بينت هذه الآية السبب الذى من أجله أبيح للمسلمين القتال ، وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق لأنهم قالوا ربنا الله : يعنى أنهم ظلموا من أهل مكة وأوذوا بسبب اعتقادهم ، وتعتبر هذه بمثابة تفسير لآية الشورى (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق)[٢] .

فقد أراد الله تبارك وتعالى أن يوضح أسباب إذنه لهؤلاء بالقتال والانتصار بعد الظلم فبين أن هذا الإذن ليس مخالفا لما تقضى به سنة التدافع بين الناس حفظا للتوازن ودرءا للطغيان وتمكينا لأرباب العقائد والعبادات من أداء عباداتهم والبقاء على عقيدة التنزيه . ثم وصف المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هى فى الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلمهم ، وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة . ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والآية فى مبناها ومعناها تنطق بأنه ليس فيها شائبة من شوائب الإكراه فى العقيدة ، وهى تقرر أن التدافع بين الناس سنة من سنن الله الكونية لابد منها لحفظ النظام وبقاء العمران .

وقد شغلت الآيات القرآنية فى موضوع الجهاد حيزاً كبيرا يكاد يبلغ نصف القرآن المدنى ، وفى هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية فى العهد المدنى أو أهمها[٣]

---

(١) آية ٣٩
(٢) آية ٤١
(٣) سيرة الرسول (دروزه) ص ٢٢٠-٢٢٤

فقد كان النبي محوطاً بالأعداء من كل جانب ، اليهود فى قلب المدينة وحواليها ولهم حصونهم وقراهم ومزارعهم وأموالهم الكثيرة ، ولهم مركزهم القوى المتغلغل فى حياة العرب ، ومكة بقيادة زعمائها الأقوياء وما كان بينه وبينهم من عداء شديد ، والقبائل العربية الأخرى ينظرون إلى هؤلاء وأولئك فيرون أن النبى ما يزال ضعيفا ومنعزلا مع مسلمى الأوس والخزرج ومهاجرى مكة القليلين . فكان منهم من يقف موقف المتربص، ومنهم من يقف موقف المناوىء ، ومنهم من يجرؤ على الغزو والخيانة ليتقرب بعمله هذا إلى مشركى مكة أو يهود المدينة . وكان هذا كله يحتاج إلى الحرب والدفاع والتنكيل وإرسال البعوث والسرايا والغزوات حسب ظروفه ، وبصورة دائمة ومستمرة ويكفى أن نعلم أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ ٦٥ قاد النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ٢٧[(١)] وكان هذا كله فى حوالى تسع سنوات ولهذا كانت الحكمة من شغل الجهاد لذلك الحيز الكبير من القرآن .

وآيات الجهاد فى القرآن على نوعين : نوع تضمن الدعوة إليه بالنفس والمال والحث عليه والترغيب فيه . وتضمنت بعض صور المواقف من الدعوة إلى الجهاد ، ونوع آخر أشير فيه إلى وقائع جهاد الرسول البارزة وما كان فيها ولم تكن سردا للوقائع وسيرها ونتائجها ، وإنما كانت بمثابة تعقيبات عليها قصد بها التشريع أو التنبيه أو التنويه أو التنديد أو الطمأنة أو التسكين أو غير ذلك مما اقتضته ظروف كل واقعة وسيرها ، بل إن هذه النواحى هى البارزة فيها أكثر من مشاهد الوقائع وسيرها ، وهذا ما يفيد عدم ذكر وقائع حربية مهمة فى حياة الرسول ذكرتها روايات السيرة ، مثل غزوات

---

(١) راجع عدد الغزوات والسرايا والبعوث ابن هشام ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ القسم الثانى .

مؤته واليمن وفتح الطائف . ويفسر لنا أيضا اكتفاء القرآن باشارات خاطفة إلى وقائع مهمة كفتح مكة وخيبر وما تم فى أثناء غزوة تبـوك من شئون[١] .

وقد كانت وقائع الجهاد كلها فى حياة الرسول تسير ضمن المبادىء القرآنية وكل سرية أو غزوة وقعت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم إنما كانت رداً على عدوان وانتقاماً منه ، أو دفعاً لأذى أو تنكيلا بناكث أو غادر ، أو تأديبا لبغاة الأشرار أو ثأراً لدم إسلامى أهدر ، أو ضمانة لحرية الدعوة والاستجابة المهددتين أو المعطلتين بغيا وعدوانا ، ولا يمكن أن يكون قد وقع من النبى صلى الله عليه وسلم نقداً للمبادىء التى قررها القرآن وبلغها صلى الله عليه وسلم[٢] .

بل إن المشركين الذين كانوا يدخلون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم شددت الآيات بالوفاء لهم ماداموا محافظين على عهدهم غير غادرين به . كما أنه كان هناك مشركون يلتزمون الحياد والمسالمة فى حرب بين المسلمين وبين قومهم ، فنبه القرآن إلى أنه لا سبيل عليهم (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين[٣] .

(إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلام فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)[٤]

---

(١) راجع دروزه ص ٢٢١ ج ٢

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) الممتحنة : ٨ (٤) النساء : ٩

ولم يرد في الروايات خبر وثيق بأن النبي صلى الله عليه وسلم رفض طلب صلح أو عهد أمان من أعداء محاربين . كما أنه لم يرد خبر بأنه قاتل أناسا مسالمين وحياديين دون سبب مبرر بدى منهم مما هو متسق مع المبادىء والتلقينات القرآنية التي لاشك في أنه أشد المسلمين وأسبقهم تمسكا بها والتزاما لها [1] .

ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين [2] . (كان النبي صلى الله عليه وسلم يجاهد في مكة بالحكمة والموعظة الحسنة .وقد عرفتم ما كان يلاقيه من المشركين من أذى وماينالون به أصحابه من سوء العذاب حتى هاجر بعض أصحابه إلى الحبشة وهاجر هو وبقية المسلمين إلى المدينة المنورة وهناك تألف حوله حزب من المهاجرين والأنصار ، وأصبح هذا الحزب بين أربعة أصناف من المخالفين . —

١ — معاهدون وهم اليهود وبعض قبائل من العرب كبني مدلج وبني ضمرة .

٢ - منافقون وهم الذين أظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر .

٣ — محاربون : وهم كفار قريش ومن شاركهم في المجاهرة بالعدوان والسعي للقضاء على هذه الدعوة قبل ظهورها .

٤ - متاركون : — وهم القبائل التي لم تتعرض لحربة ولم تدخل معه في عهد

وقد جرى حكم معاملاته صلوات الله عليه لهذه الأصناف الأربعة على مقتضى الحكمة ، وهو رعاية حق المعاهدين مااستقاموا على عهد والأخذ في معاملة المنافقين بظاهر حالهم . ومسالمة المتاركين ماداموا على حيادهم .

---

(١) راجع دروزة ص ٢٢٦ ج ٢ (٢) رسائل الاصلاح ج ٣ ص

وإعلان الحرب على من وقف موقف العدو الذى لا يرعى عهداً ولا يقبض يده عن شر .

ومن درس غزواته صلى الله عليه وسلم ووصاياه وجدها إما حربا لعدو لم يدع عملا وصلت إليه يده إلا فعله كغزوة بدر، أو دفاعا عن عدو مهاجم كغزوة أحد وغزوة حنين ، أو مبادرة لعدو تحفز للشر كغزوة بنى قريظة وغزوة المريسيع وغزوة دومة الجندل وغزوة ذات السلاسل ، أو كسرا لشوكة عدو نقض العهد وعرف بمحاربة الدعوة . واتخذ كل وسيلة للانتقام من القائمين بها والقضاء عليها كفتح مكة) .

ولست هنا فى معرض الحديث عن المراحل المتعددة فى تشريع الجهاد والتى بدأت بالجهاد السلمى قبل الهجرة وانتهت بالأمر بالحرب العامة ضد كل المشركين[1] أيا كان نوعهم وجنسهم ومكانهم وزمانهم حيث صدر الأمر الإلهى (قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)[2] .

ولست هنا فى معرض الحديث عن مراحل الجهاد ولكنى أريد أن أوضح فقط أن مراحل الجهاد لا تخرج عن مبدأ الدفاع التى تؤكده وقائعه المذكورة فى كتب السيرة أو القرآن الكريم .

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرض فى قتاله لغير قريش . ولم يكن بينه وبين غيره من مشركى العرب خلاف أو عداء يؤدى إلى الدخول معه فى حرب . ولهذا نرى أن الدستور أو الصحيفة التى كتبها الرسول الله صلى الله

---

(١) الدعوة الاسلامية وسائلها من القرآن الكريم البحث المقدم للدكتوراه د : أحمد غلوش ص ٤٠٤ .

(٢) التوبة ٣٦ .

عليه وسلم وألزم أهل المدينة بما بما فيهم اليهود. كانت تبيح للمسلمين واليهود أيضاً أن يجيروا من يشاءون إلا القرشيين فقط، وذلك لما بينهم وبين الرسول من عداء، فكانت حالة الحرب تعتبر قائمة بين الدولة الإسلامية في المدينة وبين دولة مكة (القرشيين) فهم قد اعتدوا والمسلمون ظلموا والله يقول (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وأمروا برد العدوان القائم فعلا (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا)[1].

وكان هذا هو السبب في أن الرسول لم يفكر إطلاقا في قتال أي قبيلة من قبائل العرب غير أهل مكة لما اعتدوا أو فكروا في العدوان، إلا ما كان من صد الاعتداء أو منع العدوان، كما حدث حين أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة، واستاق بعضا من إبلها في أثناء غياب الرسول خارج المدينة[2]. وكما حدث من تجمع بني ثعلبة ومحارب من غطفان يريدون الغارة على المدينة مما اضطر الرسول إلى الخروج إليهم في أربعمائة وخمسين من أصحابه بعد أن خلف على المدينة[3] عثمان بن عفان.

وحين اتحد مشركو العرب مع أهل مكة ضد المسلمين كان الأمر الإلهي بقتال المشركين كافة، وصار الجهاد عاما ضد من ليس له كتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)[4] وعندئذ قال الرسول (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم

---

(١) البقرة ١٩٠.
(٢) راجع ابن هشام ص ٦٠٣ القسم الأول.
(٣) مذكرات في التاريخ الاسلامي، محمد حبيب احمد ص ١٠١
(٤) الانعام ص ٣٦.

على الله)(١) ولهذا كان هناك شبه إجماع على أن الرسول إنما قصد بلفظ الناس هنا ليس عموم الناس ، وإنما مشركى العرب خاصة .

« وليس من شك فى أن حروب الرسول صلى الله عليه وسلم قد أفادت كثيراً مع من حاربوه . إذ أسلم بعضهم للرسول بعد أن رأوا حماس المسلمين وإخلاصهم للدين ، وتأكدوا من صحة هـذا الدين حين رأوا سماحته ورفقه بالمحاربين فضلا عن أن وقوع هذه الحروب قد حمل ذكر الإسلام إلى الآفاق البعيدة فـكان دعاية لها . كذلك يمكن أن نعتبر طرد اليهود من المدينة وانتشارهم فى بلاد العرب والشام دعاية صامتة للإســلام رفعت من ذكره فى تلك الآفاق التى شاءت قدرة الله أن تخفق عليها راية الإسلام بعد سنوات(١) .

ويعترض أعداء الدعوة الاسلامية على الجهاد الاسلامى ويذكرون أنه أكبر مظهر من مظاهر الاضطهاد للحرية ، لأنه يعرض حياة الناس للهلاك . فهم إما أن يؤمنوا وإما أن يقاتلوا . وهم يدعون أن الدعوة انتشرت بحد السيف .

ويرى بعض شراح الاسلام الآن أن الجهاد الذى هو مقاومة الاعتداء هو فريضة مؤقتة بوقت الرسالة . أى بوقت الرسول ودعوته أى طلبوا إنهاء العمل بالجهاد بعد قيام الجماعة الاسلامية واستقرارها منذ فتح مكة ، وفسر بعض آخر من شراح الاسلام الجهاد على أنه رياضة نفسية روحية وليس رداً لاعتداء مادى خارجى وكان مؤدى هذا التفسير هو نفس مؤدى توقيت الجهاد(٢) .

---

(١) الحديث بطوله متفق عليه بين البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه وهو صحيح متواتر (الجامع الصغير جـ ١ ص ١١٠) .

(٢) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٣ وما بعدها من الفكر الاسلامى الحديث .

ونحن فى هذه الصفحات نحاول إنشاء الله أن نثبت أن الجهاد ليس فريضة مؤقتة بوقت الرسالة ، وليس رياضة نفسية روحية . ونحاول أيضا رد شبهة أن الاسلام انتشر بقوة السيف ، وأن الدعوة الاسلامية لم تنتشر إلا بضغط الجهاد وغيره من ضغوط أخرى ، كذلك فإن بعض العلماء رأى فى سبب الجهاد أنه طريق من طريق الدعوة إلى الاسلام . وأنه لابد لغير المسلمين أن يدينوا بالإسلام طوعا بالحكمة والموعظة الحسنة ، أو كرها بالغزو ، والجهاد وبناء على ذلك فهم يؤسسوا السياسة الخارجية للدولة الإسلامية على الأسس والقواعد التالية[1].

١ ـ الجهاد لا يحل تركه بأمان أو موادعة . إلا أن يكون الغرض من الترك الاستعداد حين يكون بالمسلمين ضعف وبمخالفيهم فى الدين قوة . فان اعتدى على المسلمين كان فرض عين على كل مسلم أهل للجهاد . وإلا فهو فرض كفاية إذا قام به فريق من الأمة سقط عن الباقين . وإذا لم يقم به فريق من الأمة كانت الأمة كلها آثمة .

٢ — أساس العلاقة بين المسلمين ومخالفيهم فى الدين الحرب ما لم يطرأ ما يوجب السلم بإيمان وأمان .

٣ — دار الاسلام هى الدار التى تجرى عليها أحكام الاسلام ويأمن من فيها بأمان المسلمين ، سواء كانوا مسلمين أو ذميين ، ودار الحرب هى الدار التى لا تجرى عليها أحكام الاسلام ولا يأمن من فيها بأمان المسلمين .

وقد ذكر الأستاذ عبدالله غوشه فى بحثه المقدم للمؤتمر (مؤتمر علماء المسلمين الرابع) تحت عنوان الجهاد طريق النصر . الأدلة التى استدل بها هؤلاء على ما يقولون ، وحددها بأربعة أدلة نختصرها فيما يلى :[2] .

---

(١) الجهاد (غوشه) ص ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٨ .

١ — إن آيات الأمر بالقتال جاءت مطلقة ولم تقيد بدفع عدوان أو مقابلة قتال . مثل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)[١] ومثل (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)[٢] .

٢ — نهى الله فى كثير من آيات القرآن عن اتخاذ الكافرين أولياء والإلقاء إليهم بالمودة) مثل قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) ومثل قوله : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) .[٣]

ويستدلون بمثل هاتين الآيتين على أنه لا يجب أن تكون للمسلمين بغيرهم محالفة أو مودة .

٣ — ويستدلون بحديث الرسول (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) بأنه نص على أن الأمر بقتال الناس هو الدخول فى الإسلام أى أن القتال طريق الدعوة إليه .

٤ — يرون أن من يدعون إلى الاسلام على وجه الصحيح لا عذر لهم فى البقاء فى غيره .

وإذا لم يجيبوا بالحكمة والموعظة الحسنة فلا مندوحة من أن يساقوا إلى خيرهم وصدهم بوسائل قهرية .

ولكن الصحيح وهو ما عليه الجمهور أن الجهاد شرع لحماية الدعوة الإسلامية ودفع العدوان عن المسلمين ولا يصح أن يبدؤا باعتداء على من يحل قتاله طالما أنه لا حاجة إلى دفع عدوان أو لا توجد عوائق وحواجز تمنع وصول الدعوة إلى الناس .

---

(١) التوبة ١٢٣ (٢) التوبة ٣
(٣) الممتحنة ١ (٤) آل عمران ٢

وعلى هذا تقوم السياسة الخارجية للدولة الإسلامية على ما يأتي : -

١ - أن الدعوة لغير المسلمين فرض كفاية على الأمة الإسلامية إذا قام بها فريق سقط عن الباقين ، وإذا لم يقم بها فريق كانت كلها آثمة . إلا أنه وجب على المسلمين في كل عصورهم وأزمانهم ألا ينقطعوا عن هذه الدعوة لتبليغ ما أنزله الله على رسوله إلى كل من لم يبلغه ، وأن يكون أول شئونهم الخارجية تنظيم الدعوة إلى الإسلام وإعداد الدعوة وبثها بين الأمم التي تدين بالإسلام في مختلف البلدان مع مدهم بجميع الوسائل التي تمكنهم من القيام بواجبهم .[١]

٢ - السلم هو أساس العلاقة بين المسلمين ومخالفيهم في الدين إلا إذا طرأ ما يوجب الحرب .

٣ - دار الإسلام [٢] هي التي تسود فيها أحكامه ويأمن فيها المسلمون على الإطلاق ، ودار الحرب هي التي تبدلت علاقتها السلمية بدار الإسلام بسبب إعتداء أهلها على المسلمين أو على بلادهم أو على دعوتهم ودعاتهم وعلى هذا إنما يتحقق إختلاف الدارين بين بلاد الدولة الإسلامية وبلاد غير المسلمين الذين بدأوا المسلمين بالعدوان ، أو حالوا بينهم وبين بث دعوتهم وأقام بما يجب عليهم من دفع العدوان عنهم وحماية دعوتهم وقطعوا بتلك البلاد علاقتهم .

وانقطعت العصمة بينهم بحيث يصبح أهل البلدين لا يأمن واحد منهم في بلاد الآخر .

أما الأمة غير الإسلامية التي لم تبدأ المسلمين بعدوان ولم تعترض دعاة الإسلام فتركتهم أحرارا يعرضون دينهم على من يشاءون ويقيمون براهينهم

---

(١) الجهاد ص ١٩٠ عبد الله عرشه .
(٢) نفس المرجع السابق

بما يريدون لا تقاوم داعيا ولا تفتن مدعوا ، أو لم ترسل إليها بعثة من الدعاة، فهذه لا يحل قتالها ولا قطع علاقتها السلمية ، كما أن الأمان بينها وبين المسلمين ثابت لا يبدل ولا يكون عقد ذمة ، وإنما هو ثابت على أساس أن الأصل السلم ولم يطرأ ما يهدم هذا الأساس من عدوان على المسلمين أو على دعوتهم .

وحين نحاول الإستدلال على صحة هذا الكلام ونؤيد به رأى الجمهور فإنما نستدل على ذلك بما جاء فى القرآن الكريم، وبما صنعه الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدون من بعده، فبخصوص السبب الذى من أجله أذن فى القتال والذى ذكر فى كثير من آيات القتال فى القرآن الكريم ، فإنما يرجع ذلك لأحد أمرين .

إما دفع الظلم والعدوان ، أو قطع الفتنة وحماية الدعوة ، فقد كان اليهود والمشركون فى زمن الرسول (ﷺ) يؤذون المؤمنين ويحاولون ما استطاعوا فتنهم عن دينهم ويحاولون تثبيط عزيمة من يفكر فى الدخول فى الإسلام وكانوا يريدون إخماد الدعوة وسد الطريق فى وجه الدعاة، ولهذا أوجب الله على المسلمين قتالهم لاعدوانا عليهم ، وإنما دفعا لإعتدائهم وإزالة للعقبات التى يضعوها فى طريق الدعوة والدولة ، ولذلك كان الأمر الالهى بقتال من يقاتلهم وبعدم العدوان (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) [١]

قال تعالى (ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء)[٢] وقال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .)[٣]

(١) سورة البقرة ١٩٠
(٢) سورة النساء ٧٥
(٣) الإنفال ٣٩

فليس في هذه الآيات كلها وفي غيرها من آيات القتال شائبة من شوائب الإكراه في العقيدة والتي ذكرناها من قبل ، وهي تقرر أن الحرب أمر لابد منه حفظا للنظام وتقويضا لدعائم الظلم والبغي والعدوان .

بل إنها لم تنظر إلى المسلمين خاصة وإنما أشار القرآن الكريم فيها إلى أنه لولا الحرب لفسدت الأرض ، وهدمت أماكن العبادة للمسلمين وغيرهم ، وفي هذا يقول :-(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . [1]

الإسلام لا يوافق على قتل النفس لمجرد أنها لاتدين بالإسلام كما أنها لا يوافق على قتال غير المسلمين إلا إذا وقع منهم عدوان على بلاد المسلمين أو على دعوتهم، والقاعدة عندهم أن الإسلام هو الأصل الذي يجب أن يكون عليه الناس . ولهذا أمرنا بإيثار السلم على الحرب إذا جنح له العدو ورضي به . قال تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله .)[2]

والأصل في الدعوة عدم القهر والإكراه وليس هذا من طرقها ، فالإيمان القلبي والإعتقاد هو أساس الدين ، ولايمكن أن يكون هذا الإيمان والإعتقاد بالقوة ولا بالسيف ، وإنما يكون بالحجة والإقناع . فالعقائد لاتغرس بالإكراه لأن العقيدة إنفعال النفس بقضية من القضايا والنفس تأبى أن تهضم شيئاً تمجه طبيعتها .

كما أن الإكراه على اعتناق الأفكار قضاء على الحرية التي مجدها الإسلام وهو طعن أيضا في كرامة الانسان وأهليته للخلافة في الأرض . لذلك قال الله تعالى (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي . [3]

---

(١) الحج ٤٠ (٢) الانفال ٦١ (٣) البقرة ٢٥٦

ولقد رأينا فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره لقادة الجيش المتوجهين إلى بلاد الشام الأمر بعدم قتل النساء والصبيان وكبار السن والرهبان ونحوهم.

ولو كان الغرض فرض الدعوة واعتبار القتال طريقاً من طرقها ما استثنى هؤلاء ، ولكن استثناؤهم إنما هو دليل على أن القتال لم يكن إلا دفعا لعدوان .

أما استدلال من يرى أن القتال قد شرع لفرض الدعوة . وبأن آيات الأمر بالقتال جاءت مطلقة ولم يقيد فيها القتال بسبب، فإنا نقول لهم إن إطلاق هذه الآيات ليس دليلا على حجتهم ، وذلك : لأن كثيرا من الآيات جاءت مقترنة بالسبب الذي من أجله شرع القتال، وفى هذه الحالة يمكن حمل المطلق على أن الله تعالى أذن فى القتال لقطع الفتنة وحماية الدعوة ودفع الإعتداء . فتارة يذكر القتال مقرونا بسببه، وتارة يذكره مطلقا اكتفاء بعلمه السبب فى آيات أخرى[1] .

أما حديث (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله) . فإن جميع المسلمين متفقون على أن المراد بالناس فى هذا الحديث مشركوا العرب الذين غدروا بعهودهم وأهدرت دماؤهم لأن غيرهم من أهل الكتاب كمشركى غير العرب . حكمهم يخالف ماجاء فى الحديث . وهو أن يقاتلوا إذا رفضوا الإسلام ولم يعطوا الجزية فالحديث فى طائفة خاصة والقتال فيه لدفع الشر لا للدعوة، ولو كان للدعوة لكانوا هم وغيرهم سواسية .

---

(١) راجع الجهاد (المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية) عبد الله قرشه . . .

ولقد كان مع الأمر بقتال الذين يقاتلون المسلمين نهى قاطع محكم غير قابل للنسخ بعدم الإعتداء في قوله (ولا تعتدوا) لأن الله لا يحب المعتدين . ولو أن بعض الناس تصور أنه كان فى بعض غزوات وسرايا الرسول بدء من المسلمين فإنما كان هذا أيضاً دفاعا ومنعا لعدوان واقع فعلا ، فقد كانت حالة الحرب بينهم وبين المشركين مستمرة ، وكان عدوان المشركين إبتداء ومستمرا على للسلمين الذين لم يتمكنوا من الهجرة . والدفاع لا يشترط أن يكون فى كل حركة ، فإن المشركين لم ينفذوا عهودهم مع الرسول حتى بين الله للمسلمين بأنهم إنما نقضوا العهد ونكثوا الأيمان ، لأنهم لا عهود لهم يلتزمونها بعقيدة وجدانية ولا نظام متبع فقال :

(ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة) أى بالقتال ثم بنقض العهد فهم معتدون[1] .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : / كان المشركون يبدأون المسلمين بالقتال لأجل إرجاعهم، ولو لم يبدأوا فى كل واقعة لكان اعتداؤهم لاخراج الرسول من بلده وفتنة المؤمنين وإيذائهم ومنع الدعوة ، كل ذلك كان كافيا فى اعتبارهم معتدين)[2] .

ونحن لا ندرى على أى أساس أتهم الإسلام بنشر الدعوة بالقوة ولا ندرى أيضا فى أى عصر كان هذا الإرغام والإجبار .

وقد وضحت آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم والتى ذكرناها منذ

---

(١) الوحى المحمدى ص ٢٦٤ (رشيد رضا) .
(٢) الجهاد ص ١٩٦ غوشة .

قليل بأنه لم يكن ثمة إكراه فى الدين بعد أن تبين الرشد من الغى وكان الأمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

(أدع إلى سبيل ربك) [١] (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر . [٢]

(فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) [٣] (لكم دينكم ولى دين) [٤].

وهل كان الرسول وهو فى مكة وقد بدأ دعوته وحيدا لامال معه ولاسلاح يجبر الناس على اعتناق دينه؟ وهل يمكن أن نقول إن اعتناق أبى بكر وعمر وحمزة وطلحة والزبير وعثمان وسعد بن أبى وقاص وغيرهم من عظماء الرجال كان بالقوة وقد دخلوا فى الاسلام واعتنقوه مرغمين تحت تهديد السلاح ؟

إن الواقع يشهد بأن القوة والسيف كانا يقفان فى وجه الدعوة حملا للناس على عدم إعتناقها لاعلى إعتناقها، وهل يمكن أن نقول إن الاسلام قد انتشر بالقوة بين سكان المدينة .

وسأثبت عند حديثى عن الفتوح الاسلامية أن الاسلام إنتشر بين الشعوب بذاته ومبادئه ، وليس عن طريق القوة والقهر كما ادعى المغرضون

أما أولئك الذين يرون أن الجهاد فريضة مؤقتة بوقت الرسول ودعوته، ومن يرون أنه رياضة نفسية روحية وليس ردا لاعتداء مادى خارجى ، فأعتقد أنه من خلال إثباتنا خطأ دعوى إنتشار الاسلام بالقوة وإثبات أن الجهاد شرع

---

(١) النحل آية ٢٩ . (٢) الغاشية ٢١ ، ٢٢ .
(٣) الرعد ص ٤٢ . (٤) الكافرون ٦ .

لرد الاعتداء ومنع الدعوة من الانتشار والوقوف فى طريقها وطريق دعاتها . إنما هو دليل على أن الجهاد قائم طالما وجدت مجابهة ومحاربة للإسلام والدعوة الإسلامية .

إن الجماعة الاسلامية جماعة مستقلة لها كيانها واستقلالها ولها هدفها وغايتها ومنهجها فى الحياة ، وهى مترابطة بترابط أفرادها بعضهم ببعض حتى تحرص على هذا الاستقلال، ولابد من أن تكون عندها القوة والقدرة على رد العدوان عليها وعدم التهاون فى ذلك، ولهذا طلب الاسلام من الجماعة الاسلامية أن تكون على حذر واستعداد مادى وروحى معا لمقاومة من يحتك بها قاصدا إضعافها وإذهاب إستقلالها، ولكن هذه التعبئة المادية والروحية التى يطلبها الاسلام من المؤمنين به ليضعها دائما فى خدمة السلام لا للغزو والاعتداء .[1] فيقول القرآن الكريم . (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلم)[2] .

مادامت الجماعة الاسلامية كما قلنا جماعة مستقلة فى مواجهة غيرها من الجماعات الأجنبية عنها، وطلب الله منها أن تعيش مع الجماعة الأجنبية الأخرى على أساس من إقرار مبدأ السلم بادىء ذى بدء (يا أيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة)[3] .

إلا أنه قد يقع اعتداء عليها فى أى وقت ولأى سبب من الأسباب، حينئذاك يكون الجهاد الاسلامى الذى هو دائما دفاع ورد لعدوان، والذى كان الأمر فيه

(١) الفكر الإسلامى الحديث ٢٢٣
(٢) سورة الانفال .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٠٨ .

بعــدم الزيادة في الإعتداء (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثــل ما اعتدى عليكم) .

والمفروض فى الجماعة الإسلامية أن تـكون لهـا غاية وشخصية مستقلة وهى حينذاك لاتسعى إلى تأمين إستقلالها فقط، وإنما الواجب عليها كذلك أن تؤمن فـكرتها وغايتها فى الحياة، بل يجب عليها (ألا تهادن الـكفر بفكرتها إذ فى الـكفر وحده يكمن العداء لها والخطر على وجودها، والـكفر أينما وجد هو مصدر عدائها ، والـكفر يتمثل فى الشرك كما يتمثل فى الإلحاد) [1]

ومن هنا كان دفع هذا الخطر فرضا لازما لقيام الجماعة الإسلامية فى أطوار حياتها وفى كل أجيالها، وعليها أن تـكون متهيأة بصفة مستمرة للقدرة على دفعه وفى ذلك يقول القرآن الـكريم .

(كتب عليكم القتال وهو كره لـكم وعسى أن تـكرهوا شيئا وهو خير لـكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لـكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) [2]

وما دام المفروض فى الجماعة الإسلامية أن يكون لها استقلالها من التهيؤ لإمكان صيانة إستقلال الجماعة وإمكان تنفيذ إقرار السلم العالمى فإن هذا الامر يجب أن تـكون له صفة الإستمرار والدوام فى حياة الجماعة نفسها) [3] .

وما دمنا مطالبين بتنفيذ الأمر الإلهى (ولتـكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف) .[4] ملتزمين بنشر الإسلام ونحن حماته فإن مبدأ الجهاد لا

(١) الفكر الاسلامى الحديث ص ٣٢٤

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

(٣) الفكر الاسلامى الحديث ص ٢٢٦ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٤ :

يسقط أبدا ولم يكن وقفا على وقت الرسالة . كما أنه ليس رياضة نفسية روحية، حتى يمكن لنا رعاية هذه الرسالة وإستقرارها وتمكينها .

فالجهاد جزء لا يتجزأ من الإسلام ليس مقصورا على الأفراد دون الجماعة وإلا ألغيت شخصية الجماعة الإسلامية .

والواضح من قول الله تعالى (كتب عليكم القتال) أن هذا فرض للجهاد على المسلمين، فهذا التعبير يفهم منه هذا الفرض، تماما كما استعمل نفس التعبير في فرض الصيام (وبذلك توطد الجهاد في الإسلام كركن من أركانه إذا لم يقم به المسلمون حينما تدعو الحاجة إليه، وقعوا في الإثم فهو ضمن المبادىء العامة التي وضعت وفي نطاق الحدود التي رسمت له في الآيات القرآنية .[1]

ودعاة هذه الأفكار كانت لهم أغراض شخصية وكان هذا تخطيطا مرسوما وسياسة مقصورة من الإستعمار، خصوصاً إذا عرفنا أن صاحب فكرة وقتية الجهاد هو السيد أحمد خان زعيم الحركة الإصلاحية في الهند في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وصاحب فكرة أن الجهاد رياضة نفسية، غلام أحمد زعيم (القديانية) دعوة الولاء للتاج البريطاني .

وأخيرا :

ليس الإسلام وحـــده هو الذي جاء بالجهـاد والحرب للدفاع وتأمين الحريات، فقد كانت الحرب في القديم وما تزال وسيلة من الوسائل لحل المشاكل الإجتماعية إلى عهدنا هذا، مع بلوغ الإنسانية أشدها ونيل العقول رشدها .

فالحياة لا تبقى والحقوق لا تصان إلا بقوة تحميها ...

---

(١) دروزه ص ٢٢٢ سيرة الرسول ج ٢

«الفتوحات الإسلامية وانتشار الدعوة»

لم تكن الإلتزامات الدولية معروفة حين جاءت الدعوة المحمدية، فكانت الحرب إذا نشبت بين القبائل والأمم، أسفرت عن ذبح الأقوياء للضعفاء، واسترقاق الأبرياء والنهب والسلب، فلا وازع يردعهم ولا قانون يمنعهم ولا مجتمع دولي قائم يقف في وجوههم ويندد بأفعالهم.

وكان الرومان والفرس وهم رعايا أكبر دولتين عرفتا في زمان ظهور النبي، لا يدركون ما يقال الآن عن مقتضيات الأخلاق الدولية والواجبات الإنسانية، فكانوا يشنون الحرب لا لشيء إلا لإخضاع الأمم المجاورة، وحينما نجحوا في ذلك فرضوا إرادتهم على الأمم بصورة مطلقة. وكانوا لا يعرفون معنى لقدسية المعاهدات، ويبرمون المواثيق وينقضونها طبقا لما تمليه عليهم المصلحة، ولم يكن لحرية الأمم أي وزن في نظرهم[1].

وكانت هذه هي طبيعة الفتوحات أو الإستعمار بالمفهوم الحديث عند غير المسلمين.

أما الفتوحات الإسلامية، ولا مانع من أن أطلق عليها الاستعمار الإسلامي بمفهومه الحقيقي لا بمفهومه الشائع[2]، فإنه يختلف إختلافاً بينا عن استعمار الدول التي تفرض على الشعوب التي يستعمرونها نظام الدولة المستعمرة وخنق حرية الفكر وحرية الاعتقاد وسلب حريات وخيرات البلاد، وكتب التاريخ مليئة بالأمثلة الكثيرة على هذا في القديم والحديث.

«وكان المغلوبون يعاملون معاملة خاصة غير معاملة المحتلين المستعمرين،

---

(١) راجع (روح الاسلام) ج ٢ ص ٨٤ (أمير علي).

(٢) الاستعمار. يعني في حقيقته التعمير والإصلاح، إلا أنه أصبح مصطلحا للسيطرة والاستغلال وفرض السلطان. (المؤلف)

ودائماً ما تحاول الدول المنتصرة فرض للمعتقد الديني لها ، وأحيانا تحاول ذلك بالقهر والإكراه كما حدث في عهد قسطنطين، حين فرض على اليهود والمراطقة والوثنيين إعتناق المسيحية بالقوة، وكانوا يعذبونهم بكل قسوة بالغة ويحرقونهم في نار بطيئة حتى يطول بهم وقت التأمل فيما تتحلى به كنيسة المسيح من المحبة والإنسانية[1] .

وقد أصدر البابا في القرن الخامس عشر مرسوما رخص فيه للبرتغاليين والأسبان أن يقتسموا العالم غير المسيحي مناصفة وفرض لهم السلطة في تنصير الناس كيف شاؤا وسجل التاريخ كيف توسعوا في تفسير هذا الترخيص[2] .

ولقد تصور بعض المؤرخين أن الفتوحات الإسلامية كانت من هذا القبيل وإذا أعترفنا أن بعض الفتوحات الإسلامية في غير عصر الراشدين كان فيها في بعض الأحيان عدوان وطمع، أو حرب تطلبتها طبيعة الملك وسيادة الدول فإنه مما لا شك فيه أن هذا لم يحدث على الإطلاق في عصر الراشدين بالذات ، الذي يعد إمتداداً لعصر النبوة ، وفعل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين المهديين من بعده هو الحجة عندنا في هذا الموضوع ،وما يحدث من غيرهم ليس حجة على الإسلام ، فإنما هو تصرف شخصي قد يخطيء ويصيب فلم تحفز الراشدين في فتوحاتهم روح الإعتداء ولا الطمع كما حفز بعض المسلمين في غير عصرهم .

يقول السيد أمير علي : كان من المتعذر بعد ما أحرزه هؤلاء (يقصد الحكام بعد الراشدين) من التقدم الذي لا مثيل له في بلاد أعدائهم والمعتدين عليهم ، وبعد شعورهم بضعف الأمم المحيطة بهم، أن يظلوا محتفظين بروح الاعتدال وأن يلتزموا حدود القانون ، ويقول . ولقد جرت بين المسلمين

(١) المرجع السابق ص ٨٨ . (٢) المرجع السابق ص ٨٩ .

أنفسهم حروب لا تقل قسوة عما جرى بين النصارى ولكن هذه، الحروب كانت بسبب التنازع على الملك[١] .

أما الخلفاء الراشدون فهم قريبو العهد بالنبوة ويعرفون أن الشريعة الإسلامية لم يسر إليها روح العدوان ، وأن هذه الشريعة جعلت قانون الأمم جزءاً من الدين، وكان المسلمون فى عز أيامهم على استعداد دائماً لأن يقولوا لأعدائهم (لا تقاتلونا وحالفونا نكن أصدقاءكم، أو أدوا الجزية نؤمنكم على جميع حقوقكم أو ادخلوا فى ديننا تتمتعوا بكل ما نتمتع به من الامتيازات[٢] .

وكان أصحاب النبى يمتازون بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم ، وكان يمكن لهم بفضل تربيتهم الخلقية والروحية الثابتة واعتدالهم الغريب الذى قلما اتفق للإنسان ، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن، واستعدادهم المادى الكامل وعقلهم الواسع أن يسيروا بالأمم الإنسانية إلى غايتها المثلى والروحية والخلقية والمادية[٣] .

وكان الراشدون يعرفون أنهم حملة رسالة، ويعرفون أيضاً أنهم مشرعون لمن يأتى بعدهم ويعرفون أن الأحكام الرئيسية التى تقوم عليها قوانين الحرب فى الإسلام تدل على روح الحكمة والإنسانية التى ينطوى عليها روح الاسلام ، (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)[٤] .

---

(١) هامش روح الإسلام ص ٩١   ( ) المرجع السابق ص ٩٢ .

(٣) راجع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) (الندوى) ص ١٠٠ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

وما يقوله بعض المؤرخين من الأجانب[١] من أن الذى جعل أبا بكر يقدم على فتح الشام . هو حدوث اتفاق بين عرب الروم وعرب الحجاز للغارة فى الشام كما حدث فى العراق، خاصة بعد أن منعت بيزنطة الإعانة السنوية التى كانت تعطيها لهم بسبب ماحدث من اضطراب نتيجة لهجوم الفرس الأخير ، يلغيه ما كان معروفا من عداء واضح بين عرب الحجاز وعرب الشام الذى استمر فى عهدى النبوة وأبى بكر . كما أن عرب الشام قاوموا حملات أبى بكر مع حلفائهم البيزنطيين . وساعدوا العرب المرتدين ضد الدولة[٢] .

« كما أن كثيرا من المؤرخين العرب يرون أن أبا بكر أراد شغل العرب بقتال هاتين (الدولتين الفرس والروم)، وشغل أذهانهم عن التفكير فى المسائل الداخلية والدينية . وكما يقولون لأن الأنصار كانوا لايزالون مستائين من المهاجرين ـ لفوزهم بالخلافة . كما أن عوامل الخلاف بين القبائل العربية لم تصح آثارها بعد[٣] كذلك فقد سار معظم المؤرخين العرب وراء كثير من المستشرقين فى أن العوامل الاقتصادية وتأثر حالة بلاد العرب اقتصاديا، بسبب الحروب التى وقعت فى زمن النبوة وحركة الردة وعدم إبعاد فكرة الغزو التى كانت وسيلة من وسائل الحياة وكسب العيش عند القبائل العربية فى الجاهلية عن هؤلاء الذين أصبحوا خاضعين للدولة الاسلامية والدين الإسلامى اللذين كانا يفرضان من الناحية النظرية على القبائل ألا يغزوا بعضهما بعضاً . ولذلك رأى العرب أنه لابد من إيجاد مايعوض عليهم هذه الخسائر ووجدوا فى الفتح والفتوح مايحقق أغراضهم[٤] .

---

(١) [ستانى] والاسقف الارمنى [سيبوس] الذى توفى حوالى القرن السابع عشر الميلادى وكان الاخير معروفا بتحامله على العرب ، راجع التاريخ السياسى للدولة العربية د / عبد المنعم ماجد ص ١٧٦ ج ١

(٢) راجع التاريخ الإسلامى (أحمد شلبى) ص ٢٤٦ ج ١

(٣) راجع الحياة السياسية فى الدولة العربية (جمال الدين سرور) ص ٣٤

(٤) راجع المرجع السابق ص ٢٢ ، (العرب) فيليب حتى ص ٥٩

والغريب أن معظم الكتاب يرون أن الحاجة الاقتصادية وحلم هؤلاء البدو الذين خرجوا من ديارهم المجدبة للتمتع بخيرات حضارة الهلال الخصيب ونعيمها هي السبب في الفتوحات الاسلامية، ولم يكن ذلك بدافع الغيرة على الدين.

وإذا جاز لقول (فيليب حتى) وهو غير مسلم أن يقول ذلك فإنى أعجب لمثل الدكتور عبد المنعم ماجد الذى يقول بالحرف الواحد فى كتابه التاريخ السياسى للدولة العربية عند الحديث عن رأيه فى سر حركة الفتوح[1] (لكننا لا نوافق بعض المستشرقين فى قولهم أن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتوح بالحس الدينى، وأن الحروب التى قاموا بها تعتبر حروب دينية، فنحن لا نظن أن العرب ومعظمهم من البدو كانت تسودهم الروح الدينية والرغبة فى نشر الاسلام، فقد رأينا كيف انتقضت العرب، وأنها لم ترجع إلى الإسلام إلا بحد السيف، ومهما تكن الدوافع الدينية قوية عند الخلفاء وبعض أتقياء المسلمين فى المدينة ومكة فإنه من غير الممكن أن يخرج البدوى وهو الذى لا يهتم بالدين لنشر الإسلام) .

ولقد صور الدكتور عبد المنعم ماجد هؤلاء العرب عند حديثه عن الردة تصويراً يجافى الواقع وهو يقول[2] ، بعد أن تحدث عن العرب فى غير مكة والمدينة .

ولم يكن العرب يعرفون من الإسلام غير اسم محمد والقرآن، ولم يكن فى كل الحجاز من متحمس لدين الإسلام غير أهل المدينة من الأنصار وأهل مكة من المهاجرين ثم يقول: فى الواقع لم تحفل العرب بالإسلام كما لم يحفلوا من قبل بأى دين من الأديان السماوية الأخرى ولم يحاول فهم قوانينه أو القيام بظاهره من

---

(١) ص ١٦٣ .

(٢) راجع عبد المنعم ماجد ص ١٤٤ ، وما بعدها .

صلاة وصيام ووضوء حيث تعرف قسوة الحياة فى البادية وقلة الماء، ويقول :
وإهمال العرب للإسلام ظهر فى حياة النبى نفسه ، وهم يطالبونه بإسقاط الصلاة أو الزكاة وكلاهما من تعاليم الاسلام وأركانه ، ثم يقول : وقد قدر القرآن هذه الطبيعة العربية لجافاة الدين وعدم الاحتفال به بقوله (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم)[١].

ثم يقول ولا ريب أن النبى نفسه تعب من استهتار العرب بالدين وعدم ميلهم إليه ، فوصف القرآن العرب بالعبارة الآتية (الأعراب أشد كفرا ونفاقا)[٢]. لذلك كانت العرب فى ذلك الوقت تلوم بإسلامها ...

ولقد خلط سيادة الدكتور ماجد بين العرب والأعراب ، وبين الذين دخلوا فى الاسلام والذين لم يدخلوا بعد . وعمم الحديث عن العرب جميعاً ووصفهم بما وصفهم به من عدم فهمهم لقوانين الاسلام وعدم اهتمامهم به وإهمالهم له حتى فى حياة النبى نفسه كما يقول ، لهذا نرى سيادته يقول ما يقوله ولا يوافق حتى بعض المستشرقين الذين قالوا إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتح بالحماس الدينى ، ولم تكن تسودهم الروح الدينية أو الرغبة فى نشر الاسلام حتى اعتنقوه هم بالقوة من وجهة نظره حين حاربهم أبو بكر .

والحقيقة أن العرب بعد عودتهم إلى الاسلام أخلصوا له إخلاصا كبيراً وصقلتهم حروب الردة، وطهرت نفوسهم من الشرك والنزوع مرة ثانية إلى الجاهلية الأولى، وحين سمح لهم بالاشتراك فى عمليات الفتح التى سنذكر أسبابها

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٤

(٢) سورة التوبه الآية ٩٧

الحقيقية والتى لاتخرج عن كونها حروبا دفاعية وليست للعدوان أو الاعتداء . قاتلوا بشجاعة وحمية ، إرداء التكفير عما فرط منهم فى حق الإسلام)[1] .

لكن ماهى الأسباب الحقيقية وراء هذه الفتوح ؟ .

الحقيقية التى يجب أن يؤمن بها الجميع أن الحروب الإسلامية كلها خارج الجزيرة العربية فى الصدر الأول الإسلامى كانت كلها حروب دفاع وليس فيها حرب هجوم الإعلى سبيل المبادرة بالدفاع ، أو ردا على اعتداء سابق (وقد بدأت هذه الحروب فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم بغزوة دومة الجندل الأولى التى أرسلها لتأديب أبنائها لاعتدائهم على تجار الحيرة . ولأنهم كانوا يستعدون للهجوم على المدينة . وغزوة مؤتة التى كانت طلبا لثأر رسول للمسلمين قتله الغساسنة ، وغزوة تبوك التى كانت لملاقاة الروم الذين يتأهبون لمهاجمة المدينة كما يقول الرواة ويستعدون للاستيلاء عليها ، ومعنى ذلك أن المسلمين فى زمن النبى كانوا فى جميع غزواتهم وزحفهم على حدود الشام مدافعين لامهاجمين .

وكان عدم تجريد النبى لأى بعث لمحاربة فارس كما فعل مع الرومان دليلا على أن الرسول صلى الله وسلم ما كان يوجه بعوثه إلا لضرورة وأنه ما كان يرسلها لمجرد التحرش والاعتداء .

وإذا كان أبو بكر وهو أقرب الناس صلة برسول الله صلى الله عليه وأحبهم إلى قلبه قد بدأ حروبه مع فارس وغزوه للعراق قبل حربه مع الروم وغزوه للشام، فهذا مما يدل على أنه كان هناك من الأسباب ماجعلته يحارب

---

(١) راجع نتائج حروب الردة (الخلفاء الراشدون) ص ٦١ (دكتور أحمد مجاهد مصباح)

هؤلاء الناس لا لمجرد التحرش والاعتداء . ولا لمجرد اشغال العرب عن التفكير في الأوضاع الداخلية كما يقول بعض المؤرخين، ولا للفقر والحاجة الاقتصادية كما يقول بعضهم أيضاً .

وإنما لأن الدولتين قد قدمتا للعرب الثائرين على الحكم الإسلامي بعض المساعدات وآوت المتمردين منهم، فإن ردة الجزيرة العربية بعد وفاة النبي جدد الأمل عند الفرس والروم بأن العرب سيقضون على الإسلام فساعدوا الثائرين وآووا المتمردين[1] .

ولذلك يقول أحد المؤرخين[2] . لم تكن العوامل الأجنبية أقل أثراً في هذا الانتقاض من العوامل السابقة (كان قد ذكر عوامل أخرى من عوامل أسباب الردة) أما شمال شبه الجزيرة المتصل بالشام والعراق وجنوب شبه الجزيرة القريب من الحبشة والمتصل بالفرس فقد كانا متأثرين بسلطان الفرس والروم وكان لهما مناطق نفوذ فيهما. فلا عجب أن يحاول أصحاب النفوذ مناوأة الدين الجديد بشتى أساليب الدعاية ، وقد بدت هذه المناوأة واضحة حينما أرسل النبي الكتب إلى كسرى الفرس وقيصر الروم وغيرهما من الملوك والأمراء .

وأعتقد أنه كان لابد من هذا الصدام . فالغساسنة العرب كانت تربطهم بالروم أواصر الدين والمصالح المشتركة وإن كانوا يعادونهم من الناحية السياسية إلا أن المناذرة كانوا يستظلون بحماية الأكاسرة . وكان من الطبيعي أن يكون للمعارك الأولى بين المسلمين والروم رد فعل في أهل الحيرة وهم رعايا للمناذرة

---

(١) راجع التاريخ الإسلامي (الدكتور أحمد شلبي) ص ٤١٢ ج ١ .
(٢) (الدكتور أحمد مجاهد مصباح) راجع ص ٤٠ ، الخلفاء الراشدون ودولة الإسلام الأولى .

إذ كانت أراضى الحيرة تشمل مساحة كبيرة من البلاد تمتد من شواطىء الفرات غربا وتشتمل على صحراء العراق وتكاد تصل إلى مراعى العرب الغسانيين الذين كانوا يدينون بالولاء للروم[1] .

ولم يكن لأبى بكر أن يسكت ويتجاهل إعتداءات هذه الإمارة الصغيرة التابعة لأمبراطورية فارس والتى وقفت بجانب المتمردين على الدولة الإسلامية بعد أن أخمد ثورة البدو المرتدين، فأصدر أمره بحرب المناذرة الذين استسلموا واستسلم واليهم العربى للمسلمين بقيادة خالد بن الوليد دون قتال[2] .

وقد أدى سقوط الحيرة فى يد المسلمين مع أنها عربية إلى تجريد قوة فارسية كبيرة لمحاربة المسلمين ، وقد عرض عمر بن الخطاب الذى كان يتولى الحكم فى المدينة آنذاك بعد وفاة الخليفة الأول ، عرض بواسطة رسله على امبراطور فارس (يزدجرد) الشروط الاسلامية المعتادة باجتناب الحرب وهى : إما الدخول فى الاسلام،ومعنى ذلك : إصلاح المساوىء السياسية التى أدت إلى تدهور أمبراطورية أهل ساسان،وتخفيض الضرائب والمكوث الفادحة التى استنزفت دماء الأمة،وإقامة العدل طبقا للشريعة الاسلامية التى تجعل الناس سواسية أمام القانون دون تمييز بينهم بسبب درجاتهم أو وظائفهم . وإما دفع الجزية مقابل حماية المسلمين لهم ، لكن الملك الفارسى رفض هذه العروض فكانت معركة القادسية وكان فتح المدائن، وأصدر عمر أوامر مشددة بعدم عبور المسلمين نهر دجلة إلى الشرق بأى حال ، وأن يكون هذا النهر هو الحد الفاصل إلى الأبد بين الفرس والعرب وتم الصلح على هذا الأساس ، لكن فارس نقضت العهود والمواثيق ودارت حروب بين المسلمين والفرس انتهت بتمزيق عرش كسرى

---

(١) راجع الإسلام ص ٩٢ ج ٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٣ .

وذهابه إلى غير رجعة[1] . وكانت النتيجة أنه لم يكد المسلمون يدخلون البلاد ويبشرون بالقانون والنظام حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا واصطبغت بلاد فارس بالصبغة الإسلامية إلى الأبد[2] .

أما أسباب حروب الروم فهى نفس أسباب حرب الفرس ، فقد بدأت أيضاً بمحاربة الغساسنة وهم عرب وكانوا يكيدون للإسلام ويتربصون به ويعملون على القضاء عليه . وساعدوا المتمردين أيضاً فى تمردهم على الدولة الإسلامية ، ولما كان الروم هم أصحاب الكلمة العليا فى هذه البلاد فقد دخلوا فى معارك مع المسلمين انتهت فى النهاية بالانتصار عليهم وإخراج الرومان من الشام ومصر إلى الأبد ودخول هذه البلاد فى الإسلام .

يقول الدكتور (فيليب حتى)[3] وقد رحب سكان البلاد الساميون فى سوريا وفلسطين والحاميون فى مصر بالعرب ،واعتبروهم أقرب نسب إليهم من حكامهم الأغراب الطغاة ، وفضلا عن ذلك فالجزية التى فرضها الفاتحون كانت أقل من التى جباها سابقوهم ،فى حين سمح المسلمون للمغلوبين على أمرهم بممارسة دينهم بحرية أوسع وطمأنينة أكبر ، وهكذا . إستيقظ الشرق السامى من سباته الطويل وملك روعه بعد رضوخه للغرب الأوربى مدة ألف سنة ، ولا غرو فقد كان العرب عنصراً غضــــاً ملتهباً بالحماسة ومتشرباً روح الفتح والانتصار ومستخفاً بالموت بدافع إيمانه الجديد) .

ويعدد فيليب حتى العوامل التى ساعدت العرب فى فتوحاتهم فيقول : (فالحرب المتواصلة بين البيزنطيين والساسانيين لمدة أجيال فتت فى ساعد

---

(١) راجع روح الإسلام ص ٩٣ ، ٩٤ جـ ٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٣) العرب ص ٥٧ .

الفريقين وأضعف قواهما . والضرائب الباهظة الناتجة عن هذه الحروب المفروضة على رعايا الدولتين أخمدت من ولائهم . واستيطان بعض القبائل العربية، الشام والعراق ، والانشقاق فى الكنيسة المسيحية ، واضطهاد الكنيسة البيزنطية للمنشقين عليها، كل هذه مهدت السبيل لتأمين الفتوحات[1].

« وقد رحب أهل العراق كما رحب أهل سوريا بالفاتحين لأن الفريقين إعتبرا أسيادهما غرباء ممقوتين ،لأن الثقافتين اليونانية والفارسية التى فرضتا عليهما لم تتأصلا فى نفوسهما . [2]

لكن ألم تكن للعوامل الإقتصادية أى أثر فى هذه الفتوحات ؟

نحن لا نستطيع أن ننكر تماما العوامل الإقتصادية فى الفتوحات الإسلامية فقد كانت الغنائم من بين العوامل التى دفعت العرب المسلمين للاستبسال فى القتال : لكن لا نستطيع أن نجعل هذه العوامل عوامل رئيسية أو هى العوامل الوحيدة فلا شك أن الدافع الأول للمسلمين هو إيمانهم بضرورة الدعوة إلى الدين الذى يؤمنون بضرورة توصيله ونشره بين جميع الناس على إختلاف أجناسهم وألوانهم ، وإذا كان هذا المقصد قد جر مغنما للعرب ، فإن الكسب الإقتصادى كان فى المحل الثانى عندهم بعد نشر الإسلام، ولم يكن هدفهم التوسع والاستعمار « بمعناه الحديث » .

أما حصول المسلمين على الغنائم أو تمتعهم بخيرات البلاد المفتوحة فهى نتائج حتمية للحروب وليست هى الدافع الرئيسى لحروبهم .

ولعل ما ذكره المستشرقون من أن العوامل الإقتصادية هى السبب فى

---

(١) العرب ص ٥٧

(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

الفتوحات إنما إعتمدوا فيها على ما رواه البلاذرى .(١) الذى ذكر أن أبابكر فى أثناء حشد الجيوش لغزو الشام . كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وكل العرب فى نجد والحجاز يدعوهم إلى الجهاد ليثير فيهم الرغبة فيه وفى الغنائم التى يحصلون عليها من الروم) .

وإذا كان أبو بكر قد رغب المسلمين فى الجهاد واستنفارهم إليه ورغبهم فيه وذكر لهم الغنائم التى سيحصلون عليها من الروم، فلا يعنى ذلك أنه قصد الغنائم وحدها ، وإنما أراد أن يذكر لهم الفوائد التى يمكن أن تعود عليهم إذا ما جاهدوا وانتصروا . فالنتيجة : إما شهادة يرزقونها لهم بها الجنة ، وإما : نصر مشمول بميزات مادية سيغنمونها ويحصلون عليها . مع كونه واجبا يؤدونه وضرورة لابد منها .

ولعل المستشرقين إعتمدوا أيضاً على العبارة التى قالها رستم القائد الفارسى لرسول المسلمين إليه فى أحد المعارك والتى رواها البلاذرى أيضا وهى (قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد) (٢) .

ربما تصوروا أن هذا القول الذى قاله رستم قول صحيح . وفهموا أن قلة الموارد للمسلمين آنئذ هى الدافع إلى هذه الغارات والفتوحات . ولو كان هذا صحيحا ما عرض المسلمون الإسلام على الأمم المفتوحة على الاطلاق ولطالبوهم بالجزية فقط .

ولكن الثابت أن المسلمين كانوا يعرضون الاسلام فى كل مرة يواجهون فيها عدوهم . ويفهمونهم أنهم إذا ما أسلموا أصبح لهم ما للمسلمين

---

(٢) فتوح البلدان ص ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٦ .

وعليهم ما عليهم ، فمعنى إسلامهم أنه ليس للجيوش الغازية أى حق فى هذه البلاد ومعناه أيضاً حرمانهم من الغنائم التى خرجوا كما يقول المستشرقون من أجلها و بسببها .

ولقد غضب خالد بن الوليد حين ذهب إليه وفد من أعراب الحيرة يسألونه عن شروط التسليم . وقبلوا الجزية ورفضوا الإسلام، ولو كان خالد ومن معه يحاربون من أجل المال وطلب الغنائم، ما خيرهم بين الإسلام أو الجزية أو القتال، وما غضب حين اختاروا الجزية، بل كان عليه أن يفرح فرحا شديداً ما دام غرضه من هذه الحروب غرضا ماديا واقتصاديا فقط .

ويروى أرنولد[١] نقلا عن الطبرى أن الوفد حين جاء إلى خالد سألهم (ما أنتم . أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ فقال له عدى وقد فوض إليه الوفد أن يتحدث بلسانهم « بل عرب عاربة وأخرى متعربة » قال خالد لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا؟ قال عدى ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية، قال خالد : صدقت وخيرهم بين الدخول فى دين الإسلام ولهم ما لهم وعليهم ما عليهم هاجروا أم أقاموا أو دفع الجزية أو المنابذة والمناجزة ، وحين اختاروا الجزية قال خالد : تباً لكم ويحكم إن الكفر فلاة مضلة فأحمق العرب من سلكها فلقيه دليلان أحدهما عربى فتركه واستدل الأعجمى) .

وإذا لم يكن الدافع فى الفتوحات الاسلامية هو مجرد التوسع والإحتلال كما هو معروف فى زماننا .

فالراشدون كانوا يفهمون جيداً أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٦٩

ملتزمين بها مؤمنين بما فيها . فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم . ولا يتخبطون فى سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، وهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس على خلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومات فى الماضى والحاضر . فقد مكثوا زمنا طويلا تحت تربية محمد وإشرافه الدقيق ليزكيهم ويؤدبهم ، ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها .

وإذا كان المسلمون قد ظهروا فى عهد الراشدين وانفتحت عليهم الدنيا وتزعموا العالم ، فإنما كانت مهمتهم بإرادة الله وقدرته عزل الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التى استغلتها وأساءت عملها . وساروا بالإنسانية سيرا حثيثا متزنا عادلا . وقد توفرت فيهم الصفات التى تؤهلهم لقيادة الأمم وتضمن سعادتها وفلاحها فى ظلهم وتحت قيادتهم ، وهذا هو ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد يقول له : (الله إبتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام) [1] .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (الندوى) ص ٩٧

« كيف انتشر الإسلام؟ وهل انتشر بقوة السيف؟ »

لاشك أن المسلمين كانوا مطالبين ، كما هم دائما مطالبون بتبليغ الدعوة الإسلامية إلى العالمين ، فهى مسئوليتهم وهم حملة رسالة الإسلام بعد وفاة المصطفى ﷺ وهم معاقبون على ترك هذا العمل الجليل الخطير، وهم مطالبون أيضا بالمحافظة على دولة الإسلام التى تقيم العدل بالقسطاس المستقيم وتهتدى بهدى القرآن وتنشر تعاليمه السامية . ويعرفون أن عليهم واجبا دينيا وإنسانيا وهو إنقاذ البشر من الضلال . وأنهم مسئولون عن نشر الإسلام فى العالم كله بالطريق السلمى إلا إذا عاق الدعوة عائق أو إعتدى على المسلمين أو الإسلام معتد .

وكان أبو بكر وصحابة الرسول ﷺ والخلفاء بعد أبى بكر يعرفون هذا جيدا ويؤمنون به ، ويعرفون أنهم مطالبون بالعمل من أجل نشر الإسلام وإنتشاره لا طمعا فى دنيا أو حبا فى سلطان أو رغبة فى توسع ، وإنما لنشر العدل والحق والخير .

« وإذا كان المسلمون قد إضطروا لحمل السيف ، فإنما كان ذلك دفاعا عن النفس، وهم لم يتعرضوا قط لعقائد أى دين من الأديان، ولم يضطهدوا ولم ينشئوا محاكم تفتيش ، ولم يخترعوا معاصر للتعذيب ، ولا محارق لاعدام من خالفهم فى الرأى أو خنق الضمير الإنسانى أو إبادة أهل البدع والضلال [1] وكان المسلمون يعرضون على الناس الدخول فى الإسلام ولكنهم لم يحملوهم قسرا على إعتناقه قط ، وكان دخولهم فى الإسلام يحولهم لمساواة فى الحقوق مع الفاتحين

---

(١) روح الاسلام ص ٩٥ ج ٢

ويعفى الدول المغلوبة من الشروط التي كان كل الفاتحين يفرضونها دائما منذ بدء الخليقة إلى عهد محمد ﷺ .[١]

ولعل إعتناق هذه الأمم والشعوب للإسلام وإندماجهم مع المسلمين بهذه السرعة يثبت مدى حاجتهم إلى الإسلام وسماحته وحاجتهم الماسة إلى دعوته ودعاته وحكامه، بعد إضطهادهم وإذلالهم على يد حكامهم وكبراء دولهم ، ولا يمكن إطلاقا أن يكون دخول معظم الفرس في الإسلام دليلا على تعصب المسلمين كما يدعى كثير من خصوم الإسلام ، فالمعروف أن العقائد لا تفرض بالقوة والقسر ولكن هؤلاء نسوا في عماية تعصبهم، الأوضاع التي كانت ترزح البلاد تحتها حين فتحها المسلمون . إذ لم يكن بها أي أثر للدين، وكانت عامة الناس تئن تحت وطأة آفتين هما أسوأ الآفات ، آفة الكهنة الذين إنحدروا إلى وهدة الفساد ، وآفة حكم الدهاقين الذين انغمسوا في حمأة الفسق والفجور، وسرى الإنحلال في جسم المجتمع من جراء البدع والضلالات المزدكية والمانوية ، وكل ما فعله كسرى أنوشروان هو أنه أرجأ تصدع المجتمع إلى حين .[٢]

ويقول الشيخ محمد عبده .[٣] لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل في الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به مهددا كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر في شدته بعد مجيء الإسلام . سبعة أجيال أو يزيد، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن، هذا ولم يكن

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧

(٢) روح الاسلام ص ٩٤ ج ٢

(٣) رسالة التوحيد ص ٩٩ .

السيف وحده . بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته مع غيرة تفيض من الأفئدة وفصاحة تتدفق على الألسنة وأموال تخلب ألباب المستضعفين » ثم يقول . [١] إنما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ، ثم كان الإفتتاح بعد ذلك من ضروب الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم فكان الحوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الإنتقال إليه » ...

ويقول العقاد : [٢] (قديما كان الجاهلون بالإسلام يتعللون لانتشاره فى الدعوة بقوة السيف وهى خرافة تبطلها نظرة سريعة إلى خريطة الكرة الأرضية فيعلم الناظر إليها أن القطر الذى فتحه المسلمون بالسيف .. وهو الأندلس ليس فيه مسلم، وأن ثلاثمائة مليون مسلم يقيمون اليوم بين الصين والهند وأندونيسيا حيث لم يبلغ الفتح الإسلامى إلى أبعد الأطراف) .

ولقد انتشر الاسلام إنتشارا واسعا فى القارة الإفريقية أيضاً وسهول الصحراء الواسعة ، ومع ذلك لم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذى لا يجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم فى الوقت الذى نرى فيه أن البلاد التى كانت مسرحا للفتح الإسلامى والحروب الإسلامية كالعراق والشام قد لا يزيد عدد المسلمين فيها عن ١٥ مليونا يعيشون ويعيش بينهم من إختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين وغيرهم .

ولقد ذكر الشيخ محمد عبده [٣] أن غير المسلمين كانوا إذا فتحوا بلدا

---

(١) المرجع السابق :
(٢) فى كتاب (ما يقال عن الاسلام) ص ١٤٨ ، الهلال ديسمبر ١٩٦٦ .
(٣) رسالة التوحيد ص٩٥،٩٦ بتصرف .

هينوا دعاة لنشر دينهم بكل ماأوتوا من قوة، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين بل كانوا يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة . فيغريهم ذلك على الإسلام، وأن الإسلام كان بعد محاولة المغلوبين فضلا وإحسانا عندما كان يعدها الأوربيين . ضمة وضعفا ، وبلغ أمر المسلمين فيما بعد . أنهم لم يقبلوا إسلام راغب فى الدين إلا بين يدى قاض شرعى يقرأ أمامه أنه أسلم بلا إكراه ، ووصل الأمر فى عهــد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الإسلام . لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية . وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محــالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز فى بتعزيز مثل أولئك العمال ، وقد أثر عنه أنه قال : ما بعث محمد جابيا ولكن بعث هاديا .

* حدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلادا غير بلاد العرب . وبلادا لم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير اصطدام، إلا أن هذه الفتوح تأخرت فى الزمن ولم يتم شىء منها قبل استقرار الدولة الإسلامية ، فلا يمكن أن يقال إنها كانت وسيلة الإسلام للظهور، وقد ظهر الإسلام قبلها وتمكن فى أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتتقدم على الموت فى سبيله ، ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها ، فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه، لوجب فى ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التى شاعت فى أرض فارس وفى أرض الروم ، ووجب أن يكف الشر الذى يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما إلى حماة هــذا ، إلى أن الاسلام قــد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع

---

(١) رسالة التوحيد ص ٦٥ ، ٦٦ بتصرف .

أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة، وهو أقوى ما يطلبه غالب من مغلوب[1] .

وفى ظل حكم المسلمين استطاعت الأمم والشعوب حتى المضطهد منها فى القديم أن تنال نصيبا من العلم والدين والتهذيب والحكومة، وأن تساهم مع العرب فى بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب فى بعض القبائل وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين ، حتى قال ابن خلدون[2] من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ،مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى) ، ونبغ من هذه الأمم فى عصور الإسلام ملوك ووزراء وقادة وظهرت فيهم عبقريات فى العلم والدين وغير ذلك .

بل إن العروبة فى أشد أزماتها لم تجد منقذا إلا لدى المسلمين المخلصين من أجناس الأرض الأخرى ، بل إن العرب لما تكسرت صفوفهم تحت سنابك التتار الزاحفين من الشرق وانهارت سدودهم أمام الصليبيين المنحدرين من الغرب وكادت تذوب هـــذه الأمة فى دوامة العواصف السابقة ذوبان الملح فى الماء . . . فى هذه اللحظات العصيبة تقدم المسلمون من الأجناس الأخرى يصدرن العدوان ويدفعون عن ديار العروبة ، ويبسلون حمايتهم المشكورة[3] صحيح

---

(١) عبقرية محمد (العقاد) ص ٢٤
(٢) المقدمة ٥٤٣
(٣) مع الله (محمد الغزالى) ص ٢٥ .

ربما تصور أبو بكر أن هذه القبائل العربية التي خرجت على الدولة في حركة الردة ستحاول الإنقضاض مرة ثانية، ولن تواصل خضوعها للخلافة بعد أن هزمت أمام جيوشها، وخشى أن يكون الدين لا يزال دون المستوى المطلوب فى نفوسهم ، فرأى الخليفة بعينه الثاقبة أن يستغل ذلك الميل الفطرى فى العرب إلى المقاتلة ونشر الإسلام خارج الجزيرة العربية دفاعاً عن القومية والدين .

على أنه مما لا شك فيه أن المرتدين قد لحقهم الندم والحسرة على ما فرط منهم حين ارتدادهم بعد إسلامهم ، فأرادوا أن يكفروا عن خطاياهم فى حق الله ورسوله بالقتال فى سبيل الله علهم ينالون الشهادة فى سبيله . وكان الموت أحب إليهم من الحياة[1] . وقد حكى التاريخ لنا إستبسال هؤلاء العرب الذين خرجوا يوماً ما على الدين ، فى سبيل هذا الدين ، واستبسال بعض من أدعوا النبوة مثل طليحة بن خويلد الذى أسلم فى عهد عمر وحسن إسلامه وكان ذا بلاء فى حرب العراق فيما بعد[2] .

وإذا كان خروج العرب إلى هذه البلاد وحروبهم فيها قد أدى فى النهاية إلى رواج الحال وارتفاع مستوى معيشتهم وحصولهم على مغانم كثيرة فإن هذا لا يمكن إطلاقا أن يكون السبب الأصلى للحرب فى أى عصر من العصور . فان الإنسان لا يقبل إطلاقا أن يضحى بنفسه وروحه فى سبيل أى غرض مادى غير مضمون الحصول عليه خصوصاً إذا كانت حرباً بين قوتين غير متكافئتين فالعربى لم يكن يجهل قوة الجيوش التى يحاربها ، كما أنه يقنع من الحياة بالقليل منها ، لكنه إيماناً منه بضرورة توصيل هذه الدعوة إلى العالمين ومعرفته أو سماعه بتبشير الرسول ﷺ بامتلاك هذه الأرض والاستيلاء على

---

(١) راجع الخلفاء الراشدون (مصباح) ص ٦١ .

(٢) عصر الخلفاء الراشدون (فياض) ص ١٠٢ ، الخلفاء الراشدين (عبد الوهاب النجار) ص ٤٧ .

كنوز كسرى وقيصر ، كذلك فإن انتصار أبى بكر فى حروب الردة أولا، ثم إنتصار المسلمين فى المعارك الأولى التى خاضوها خارج الجزيرة العربية ثانياً . شجع المسلمين على الجهاد ، وأشعل فى عرب الجزيرة الحماس،مما جعلهم يقبلون على الحرب باستبسال منقطع النظير .

وقد كان لانضمام بعض القبائل العربية المسيحية لجيوش المسلمين التى تحارب فى بلاد الشام وتحول كثيرين من المسيحيين إلى الإسلام خلال الفتوح أثر عظيم فى نفوس الفاتحين واستمساكهم بالجهاد فى سبيل الله .

يقول : (سير توماس أرنولد)[1] وقد كان الطابع القومى لهذا التوسع الجنسى يجذب بطبيعة الحال إلى جيوش الغزوات العربية ، ممثلى العنصر العربى الذين كانوا يقيمون فى أطراف الجزيرة والذين كانت جيوش الفتح تتخذ فى بلادهم ممراً تنفذ منه إلى البلاد التى يريدون غزوها ، ومن ثم لم يكن غريباً أن نجد كثيراً من البدو والمسيحيين ينجرون فى التيار الدافع لهذه الحركة الضخمة، وأن نجد كثيراً من القبائل العربية التى كانت قد دانت بالمسيحية قروناً قد نبذتها فى ذلك الوقت لتدين بالإسلام . وكان من بين هؤلاء قبيلة بنى غسان الذين بسطوا نفوذهم على الصحراء الممتدة شرقى فلسطين وجنوب سورية ، والذى كان يقال عنهم إنهم أرباب فى الجاهلية نجوم فى الإسلام .

ويقول أرنولد أيضاً :[2] إنه بعد موقعة القادسية سنة ١٤ هجرية التى انهزم فيها الجيش الفارسى بقيادة رستم هزيمة منكرة ، وفد على قائد المسلمين كثير من المسيحيين الذين ينتمون إلى قبائل البدو التى كانت تقيم على ضفاف نهر الفرات . وقالوا : إن القبائل الذين سبقوا إلى الإسلام كانوا أصوب منا رأياً

---

(١) الدعوة إلى الاسلام ص ٦٥ .

(٢) المرجع السابق :

واليوم وقد قتـل رستم فلندخل فى الدين . هذا وقد انضمت معظم القبائل البدوية بعد فتح شمال الشام إلى الإسلام بعد شىء من التردد .

وقد ثبت أنه أثناء قتال المسلمين مع الفرس فى موقعـــة الجسر وحين أوشكت الهزيمة أن تحل بالعرب الذين أخذ الفزع منهم كل مأخذ وقد حصروا بين الفرات والجيش الفارسى، إذا زعيم مسيحى من بنى طىء ينضم إلى المثنى القائد المسلم ليساعد فى الدفاع عن الجسر الذى كان يتألف من القوارب والذى استطاع عن طريقه أن يرتدوا إرتداداً منظماً[1] .

كذلك كانت تتدفق بعض الإمدادات من قبيلة بنى النمر النصرانية التى كانت تقيم داخل أراضى الدولة البيزنطية أثناء قتالها مع الفارسيين خصوصاً حينما جمع الجيش الإسلامى جموعه لرد عار هزيمته فى موقعة الجسر[2] .

وقد شارك التغلبيون وهم نصارى فى هجوم المسلمين على الفرس فى موقعة البويب وقاموا بأعمال باسلة . واندفع غلام نصرانى منهم إلى قلب الفرس وقتل قائدهم وأخذ يصيح فى إعجاب وهو يمر وسط صفوف المسلمين : (أنا الغلام التغلبى أنا قتلت المرزبان)[3] .

وقد قال بعض المؤرخين العرب[4] : إنه قد وفد بعض أبناء العراق من رعايا الإمبراطورية الفارسية إلى المدينة وقابلوا ولاة الأمور فيها وطلبوا تجهيز حملة على العراق لإنقاذ العرب من سكانه وتحريرهم وضمهم إلى الدولة الجديدة باعتبارهم ذوى عصبيتها . فالعربى إبن عم العربى حيثما كان وأينما وجد .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٦ .
(٢) « « ص ٦٦ .
(٣) « « عصر الخلفاء (بخيت) ص ٩٣ .
(٤) أمين سعيد نشأة الدولة الإسلامية ص ٣٦٣ ج ١ .

ولعل ذلك هو السبب فى إعتناق الكثير من القبائل العربية للإسلام وانضمامها إلى جانب الجيش الإسلامى فى محاربة الفارسيين .

ولو كان نظام العرب قاصراً على ميدان فارس وحده ما قاومتهم هذه المدة الطويلة (١٣ سنة تقريباً)[1] . فقد كانوا ينازلون الروم فى الشام وفلسطين ومصر وطرابلس الغرب وتونس فى نفس الوقت الذى كانوا يحاربون فيه الفرس : ولو تفرغ المسلمون لإحدى الدولتين لصبوا قواهم عليها ولما قاومتهم كل هذه المدة الطويلة ولقصر أمد الحرب .

ولعل سائلا يسأل . هل كان الفتح الإسلامى إنتصاراً للعرب وهزيمة للسوريين والمصريين ؟ .

ولعل أدق إجابة على هذا السؤال : هى التى يذكرها الدكتور فيليب حتى فى كتابه تاريخ العرب ونقلها الدكتور أحمد شلبى فى كتابه التاريخ الاسلامى جزء ١ ص ٢٦٨ وهى :

« كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين ، فالفتوحات الاسلامية من هذه الوجهة هى عند التحقيق إنقلاب إجتماعى سياسى ، إسترد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر ، وقد جاء الإسلام مهيباً بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة إجتاحته فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالاسلام أن يسترجع ماضيه لا فى ميدان السياسة فحسب بل فى ميدان الثقافة أيضاً حيث تسنى أن يعيد قيادته الفكرية » .

ولا أجد دليلا على حسن معاملة العرب للشعوب التى فتحوها وتركوا

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٩ .

الحرية لهم سيختارون الدين الذى يرغبونه وعدم إكراههم على إعتناق دين الإسلام، أبلغ من شهادة رجل أجنبي مسيحي وليس مسلماً. تحدث عن عدالة العرب وسماحتهم وأسباب إعتناق الشعوب للإسلام بسرعة لم يعهدها إنتشار الأديان بالطريق السلمى ومن غير إكراه.

يقول: غوستاف ليبون الفرنسى[1] (والفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله فى فتوح الأمم الأخرى. ذلك أن العرب أنشأوا بسرعة فائقة حضارة جديدة كثيرة الإختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها. وتمكنوا بحسن سياستهم من إقناع أمم كثيرة على إعتناق دينهم ولغتهم وثقافتهم ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود والفرس الذين رضوا أيضاً بمعتقدات العرب وعاداتهم وفن عمارتهم.

ويقول[2]: وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسى، وقد ترك العرب الناس أحراراً فى أمور دينهم وأظل العرب أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم فنال هؤلاء مالم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة.

ويقول ليبون أيضاً[3]: كان يمكن أن تعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على إعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى أنحاء العالم. ولو فعلوا ذلك لتغلبت عليهم جميع الأمم التى كانت غير خاضعة لهم، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد الشام، ولكن الخلفاء الأولين الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة أدركوا أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرا، فعاملوا أهل الشام ومصر وأسبانيا، وكل قطر إستولوا

(١) حضارة العرب ص١٥٣ (٢) المرجع السابق ص ١٦٩.
(٣) المرجع السابق ص ١٢٨.

عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بينهم .

ويقول[1] : والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ورحمة العرب وتسامحهم كان من أسباب اتساع فتوحهم واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التى رسخت وقاومت جميع الغارات عليها . وبقيت قائمة حتى بعـــد أن توارى سلطان العرب السياسى على مسرح العالم وإن أنـكر ذلك المؤرخون) .

(١) المرجع السابق ص ٦٢٨ :

القضاء المستقل كأساس للعدل والمساواة المطلقة

أساس القضاء في الإسلام : المساواة والعدل والإلتزام بالقانون تنفيذاً لقوله تعالى : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل[1]) وقوله تعالى : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . إعدلوا هو أقرب للتقوى[2]) .

وقد حقق الرسول ﷺ أوامر القرآن الكريم في حكمه بين الناس جميعاً بالعدل والمساواة ، لا فرق في ذلك بين أن يكون الحكم بين المسلمين أو بين غيرهم أو بينهم وبين غيرهم، قال تعالى (سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين[3])

بل كان النبي ﷺ نفسه مقيداً بالشريعة وبالقرآن . . (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون[4]) فالنبي نفسه كان مقيداً بالقانون وملتزماً به .

والحقيقة أن أعمال الناس لا تكون صحيحة ولا مشروعة إلا بقدر اتفاقها مع القوانين التي تعيش الجماعة في ظلها .

ومن هنا كان الأصل في القضاء الإسلامي المساواة أمام القانون ، وهذا هو المعنى الذي أكده النبي عملياً وأرسى أساسه بما يرويه الصحيحان عن عائشة رضي الله عنها قول رسول الله ﷺ حينما جاء إليه أسامة بن زيد يستشفع عنده في شأن المخزومية التي سرقت ، فقال : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ،

---

(١) النساء ٥٨ (٢) المائدة ٨

(٣) المائدة ٤٢ (٤) الجاثية ١٨

والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[٢]) . حتى أن بعض اليهود كان يطلب تحكيم النبى ﷺ ثقة فى عدله والتزامه بالحق فى حكمه إن حدث بينه وبين أحد من المسلمين خصومة لدرجة أن بعض المسلمين كان يخشى من الوقوف أمام الرسول للتقاضى إن لم يكن الحق معه خوفا من عدالة النبى فى حكمه وعدم محاباته المسلم على حساب غيره فى قضائه .

فقد روى ابن كثير فى سبب نزول قوله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به[٣]) . أن يهوديا تخاصم مع رجل من الأنصار فقال اليهودى بينى وبينك محمد وقال المسلم بينى وبينك كعب بن الأشرف[٤]

فقد عرف الرسول ﷺ بالتزامه المطلق بالقانون لا يحابى ولا يميل وقد روى بن اسحاق قول ابن عباس « اجتمع قوم من الأحبار منهم صورية وكعب بن أسد وابن صلوبة وشاس بن عدى وقالوا اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا : قد عرفت يامحمد أنا أحبار اليهود وإن اتبعناك لم يفارقنا أحد من اليهود وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فامض لنا عليهم حتى نؤمن بك، فأبى رسول الله ﷺ فنزلت . (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك .) [٥] .

وجاء أبو بكر فسار بسيرة الرسول ﷺ فى كل شىء حتى أنه أبقى

---

(١) المائدة : ٤٩

(٢) صحيح مسلم بشرح النورى ح ١٣ ص ١٨٦ .

(٣) النساء ٦٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ص ٥١٩ ح ١

(٥) » » » ٦٧ ح ٢

على جميع العمال والولاة الذين استعملهم الرسول ﷺ إلا من أبى أن يعمل لغير الرسول فاعتزل العمل[١] .

وحين تولى الخلافة قال له أبو عبيدة أنا أكفيك المال وقال عمر أنا أكفيك القضاء ، فأسند القضاء إلى عمر بن الخطاب وظل سنة لا يأتيه متخاصمان وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور الإسلام يرون من الطبيعي أن يعطى الانسان الحق ويأخذ الحق ويقف عند حدود الله لا يقارف منكرا ولا يسرف على نفسه ويبعد عن الزور وأكل أموال الناس بالباطل ويجعل رائده الصدق فى أقواله وأفعاله[٢] كذلك لما عرف من شدة عمر فى الحق ودقته فى العدل ، إلا أن عمر لم يتلقب بلقب قاضى فى خلافة أبى بكر[٣] .

ولقد أكد أبو بكر مبدأ المساواة أمام القانون من أول يوم تولى فيه الحكم، وبينه فى أول خطاب ألقاه عقب بيعته: (ألا وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه وأقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له)[٤] .

ولم يشذ عمر عن ذلك وإنما ضمن هذا المعنى فى كتابه الذى يعتبر دستورا للقضاء يسير القضاة على هديه ويعتبر أساس علم المرافعات فى القضاء ، والذى بعث به إلى أبى موسى الأشعرى وإلى غيره من قضاته ، فقد جاء فيه[٥] آس بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريك فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .

---

(١) الادارة الاسلامية ص ٢٣
(٢) المرجع السابق ٢٣، ٢٤ .
(٣) التاريخ الإسلامى حسن إبراهيم ص ٤٨٥ ج١
(٤) ضياء الدين الريس ص ٢٥٨ وفى رواية بن هشام حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ص ٦٦١ القسم الثانى .
(٥) حسن إبراهيم ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

ونظراً لأهمية هذا الكتاب وما فيه من أصول تشريعية وقضائية قيمة تثبت إمتياز القضاء الإسلامى وأثره فى إجتذاب الناس إلى الدخول فى الاسلام، حيث كان العدل والمساواة والتزام القانون فى الحكم وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية وانتشارها ، نظرا لذلك فإنا نعرض هنا نص هذا الكتاب الذى وجهه إلى عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعرى) يقول الكتاب . .

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى عبد الله ابن قيس ، سلام عليك ، أما بعد: فالقضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك فانه لاينفع تكلم بحكم لانفاذ له ،وآس بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا،ولا يمنع قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه برشدك،أن ترجع إلى الحق،فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل، الفهم فيما تلجلج [1] فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الأمثال والأشباه،وقس الأمور بنظائرها ، واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى إليه ، فإن أحضر بينة أخذ بحقه ، وإلا وجب القضاء عليه ، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر ، المسلمون عدول بعضهم على بعض الامجلودا فى حد أو مجربا فى شهادة زور أو ظنينا (متهما) فى ولاء أو قرابة ، فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات ، وإياك والقلق والضجر والتأذى للناس،والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى

---

(١) حسن إبراهيم ص ٤٨٧،٤٨٦

يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر ، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شانه) .

والمعروف أن عمر رضى الله عنه هو أول من نظم القضاء تنظيما متقنا، وعين لكل إقليم من أقاليم الدولة قاضيا معروفا بالنزاهة والسداد فى الرأى والإستقامة ، وسعة إلمامه بالفكر والشريعة ، غير متهم فى دينه أو مروءته كما كان يختبر المرشحين للقضاة فى فطنتهم وحذقهم فى تفهم الأقضية ومقدرتهم على الفصل فيها وذلك قبل تعيينهم [1] .

وقد ولى أبا الدرداء قضاء المدينة، وشريحا بن الحارث الجندى قضاء الكوفة،وولى أبا موسى الأشعرى قضاء البصرة ، وولى عثمان بن قيس بن أبى العاص قضاء مصر ، وجعل قضاء الشام قضاءاً مستقلا [2] .

وكان نظامه فى تعيين القضاء إما بنفسه وإما عن طريق الوالى إذا كانت ولايته عامة ، بمعنى أن تكون للوالى الولاية على الخراج والصلاة [3] .

وقد كان القضاة يمنحون المرتبات السخية حتى لا تدفعهم الحاجة إلى أخذ الرشى ، والمصانعات ولم تكن هناك شكوى واحـــدة طوال عهـد الخلفاء الراشدين ، تدل على أن أحدا من القضاة قبل أية رشوة أو تصرف تصرفا يدل على التحيز والهوى [4] .

وقد تشدد الخلفاء فى العدالة تثبيتا لمبدأ المساواة ، ولقد حدث فى خلافة

---

(١) الإدارة العربية ص ١٠٢ ، ١١٣

(٢) حسن إبراهيم ص ٤٨٦ ج ١

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) الادارة العربية ١٠٢

عمر أن أسلم جبلة بن الأيهم آخر ملوك بنى غسان . (١) واتفق أن كان جبلة يطوف بالبيت يوماً فداس أعرابى على طرف ردائه فلطمه جبلة على وجهه لطمة شديدة ، وحين استعدى عليه عمر ، قال له عمر رضى الله عنه : دعه يقتص منك ، فقال لعمر : وهل أستوى أنا وهو فى ذلك ؟ فقال له نعم ، الإسلام سوى بينكما .

ولما رأى جبلة تصميم عمر على تنفيذ العدالة فيه ، طلب منه أن يؤجله إلى الغد ثم هرب إلى ملك الروم وارتد واعتنق النصرانية ، لكنه بعد ذلك ندم وقال هذه الأبيات (٢) .

تنصرت الأشراف من عار لطمة ∴ وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفنى منها لجاج ونخوة ∴ فبعت بها العين الصحيحة بالعور

فيا ليت أمى لم تلدنى وإننا ∴ رجعت إلى الأمر الذى قاله عمر

ويا ليتنى أرعى المخاض بقفرة ∴ وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر

ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة ∴ أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

ولقد عرف الناس جميعا هذا العدل فى القضاء الإسلامى واستقلاله المطلق ، ومساواته بين المتقاضيين حتى ولو كان أحدهما الحاكم نفسه ، وقد إفتقد على كرم الله وجهه درعا له أثناء توجهه إلى صفين ، ولما انتهت الحرب ، ورجع إلى الكوفة أصاب الدرع فى يد يهودى ، فقال لليهودى الدرع درعى ، لم أهب ، ولم أبع ، فقال اليهودى : درعي وفى يدى ، فقال على : نسير إلى القاضى ، فتقدم على إلى شريح القاضى ، فقال له شريح قل يا أمير المؤمنين ، فذكر على رضى الله عنه

---

(١) الخلق الكامل (محمد أحمد جاد المولى) .

(٢) راجع القصة فى كتاب الخلق الكامل ص ١٦٠ ج ١

أن الدرع درعه، — وتمسك اليهودى بأن الدرع ملكه ، وحين طلب القاضى من الخليفة البينة على صدق دعواه : قال عندى شهود، فسأله القاضى ومن شهودك؟ قال على قنبر والحسن يشهدان أن الدرع درعى ، فتمسك القاضى بحرفية القانون ، وقال : شهادة الإبن لا تجوز لأبيه، فقال على : رجل من أهل الجنة لاتجوز شهادته ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، ومع ذلك تمسك القاضى برأيه وبتنفيذ القانون حتى ولو كان المتقاضى أمير المؤمنين نفسه ، ثم أصدر القاضى حكمه وقضى لليهودى بالدرع ، حيث لم يتمكن الخليفة من إثبات البينة على صدق دعواه ، هنا وقف اليهودى مندهشا من هذا القضاء وأخذ يقول : (أمير المؤمنين قدمنى إلى قاضيه وقاضيه قضى عليه أشهد أن هذا هو الحق وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأن الدرع درعك) [(١)]

وهكذا كان قضاء الإسلام سببا من أسباب إنتشار الدعوة واعتناق الإسلام . وحين كان أهل بلاد الذمة والبلاد المفتوحة يرون هذه العدالة المطلقة وهذه النزاهة فى الحكم والقضاء ، والمساواة بين الناس جميعاً لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ولا حاكمهم أو محكومهم ولا مسلمهم وغيرهم من أهل الديانات الأخرى الذين يخضعون لحكم الإسلام وسيادة الدولة الإسلامية ، كانوا يعرفون حقيقته وفضله فيعتنقونه عن رغبة وإقتناع، ولقد حكم عمر للمصرى القبطى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص أمير مصر بالاقتياد منه أمام والده وأمام الناس وعمر رضى الله عنه يقول : إضرب إبن الأكرمين ، وحين إنتهى القبطى من الضرب وقال يا أمير المؤمنين قد إستوفيت واشتفيت يقول له عمر ضعها على صلعة عمر ، فقال يا أمير المؤمنين . قد ضربت الذى

---

(١) راجع القصة بالمرجع السابق ص ٢٢٦، ٢٦٧ .

ضربني، قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع ثم اتجه إلى عمر وقال ياعمر متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، فجعل عمر يعتذر إليه ويقول: إني لم أشعر بهذا[1].

بأمثال هذه المواقف، وبهذا العدل السامي عرف الناس مبادىء الإسلام السمحة وخلاله الحميدة، فاعتنقوا الإسلام ودخلوا في دين الله أفواجا، وانتشرت الطمأنينة بسبب هذه العدالة حتى جعلت الحاكم المسلم ينام هادىء النفس قرير العين، مما جعل رسول قيصر إلى عمر بن الخطاب الذي أرسله لينظر أحواله ويشاهد أفعاله يقول، بعد أن رآه نائما فوق الرمل وقد وضع درته كالوسادة بلا حارس وهو الذي تخشاه جميع الملوك وتهابه الحكام يقع الخشوع في قلبه ويقول: (ياعمر عدلت فنمت وملكنا يجوز فلا جرم أنه لا يزال ساهر خائفا[2]

ويمكن أن نؤكد أن القضاء في عهد الخلفاء الراشدين كان مستقلا محترم الجانب مقيداً بالقانون، وروعى في إختيار القضاة الشروط التي يجب أن تتوفر فيه كما أسلفنا وكان القاضي يحكم في بعض الأحيان بحسب مايوحى إليه اجتهاده إن لم يجد نصا في الكتاب أو السنة معتمدا على قياس الأمور على اشباهها، ومن ثم أصبح الإجتهاد أو الرأى أو القياس مبدءاً يعتد به في الأحكام القضائية في العصور التالية وأصبحت تبنى عليه أكثر الأحكام.[3]

---

(١) راجع القصة بالخلق الكامل ص ٢٢٩ ج١

(٢) المرجع السابق :

(٣) حسن إبراهيم بتصرف ص ٤٨٧ ج١

ظهر نظام الحسبة ووظيفة المحتسب كنظام ثابت معروف فى عهد عمر ابن الخطاب وهو العصر الذى إتسعت فيه حدود الدولة الإسلامية وترامت أطرافها وتشابكت مصالحها ، وكان ظهور هـذا النظام فى هذا العصر إنسلاقا من القاعدة الأساسية الكبرى التى تقرر أن التشريع ينبثق من حاجات المجتمع ويدور مع مصالح الناس .

وقد استمد عمر هذا النظام وهذه الوظيفة من عصر الرسول ﷺ الذى كان يباشر عمل المحتسب بنفسه ، إلا أن عمر نظرا لاتساع الدولة الاسلامية خصص لهذا العمل من يقوم به واعتبره موظفا عموميا وأعطاه من السلطات ما يمكنه من القيام بعمله على الوجه الأكمل ، ولذا تصور بعض الناس أن عمر هو مبتكر هذا النظام لكن الحقيقة أن الرسول ﷺ هو الذى وضع أساسه إذ كان يقوم بنفسه بالتجول فى الأسواق ومنع الغش والتدليس فى البيع والشراء ومعونة الناس على إستيفاء حقوقهم وإلزامهم بما عليهم من واجبات .

وهذا النظام الذى عرفه الماوردى بأنه (أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا أظهر فعله) [1] هو نظام تميز به نظام الحكم الإسلامى على سائر الأنظمة العالمية فى دقته وكفاءته ونبل أغراضه ومقاصده وشموله وإحاطته فهو يسير مـع الناس حيثما ساروا متكفلا بحمايتهم ورعايتهم فى كافة الميادين العمرانية والتجارية والخلقية والإجتماعية ، وبذلك تحرر المسلمون منذ أربعة

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٤٠ .

عشر قرنا من الروتين البطيء الذي تشكو منه الديمقراطيات العالمية ويعتبره رجال الفكر والإصلاح النقطة السوداء في جبينها المشرق . [١] .

ويقول الأستاذ طه عبدالباقي سرور في كتابه (دولة القرآن) نقلا عن كتاب الحكمية لابن القيم (وأما الحكم بين الناس فيما لا يتوقف على الدعوة فهو المسمى بالحسبة ، والمتولى له والى الحسبة وقد جرت العادة بإفراد هذا النوع بولاية خاصة ومنحه سلطات واسعة ليكون سريع الحركة حسن التنفيذ .[٢]

ثم يقول فهو قوة ضاربة على أيدي المنكر حيثما وجد وحيثما كان ، لا يعوقه الروتين البليد ولا يغل يده الإجراء البطيء ، بل هو أشبه بقوة الإطفاء السريعة يهرع إلى أي مكان وجد فيه الشر والحريق ليزيل الشر ويطفيء اللهب بوسائل خاطفة ناجحة [٣] .

ولما كان موضوع الحسبة : إلزام الحقوق والمعونة على إستيفائها . [٤] .
وتعتبر الحسبة واسعة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم ، [٥] . لذلك كان من شروط والى الحسبة أن يكون حرا عدلا ذا رأي , صرامة وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة حتى جوز بعض الفقهاء من أصحاب الشافعي للمحتسب ، أن يحمل الناس فيما ينكره من الأمور التي إختلف الفقهاء فيها على رأيه وإجتهاده . [٦] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٢

(٢) راجع المرجع السابق

(٣) الاحكام السلطانية ص ٢٤٠

(٤) المرجع السابق :

(٥) المرجع السابق :

(٦) المرجع السابق بتصرف :

وقد منح المحتسب بعض سلطات القضاء مثل النظر فى الموضوعات المتعلقة بمنكر ظاهر يمكنه إزالته أو معروف يمكن له إقامته كبخس أو تطفيف فى كيل أو وزن أو منع غش أو تدليس فى مبيع ، أو ثمن أو ما يتعلق بمطل وتأخير لدين مستحق مع إمكان الدفع[١] .

ويقول الماوردى .[٢] وإنما جاز نظره فى هذه الأنواع الثلاثة من الدعاوى دون ما عداها من سائر الدعاوى لتعلقها بمنكر ظاهر هو منصوب لإزالته . واختصاصها بمعروف بين هو مندوب إلى إقامته .

وقد كان من بين مهام المحتسب الإشراف على الأسواق والتجول فى المدينة يوميا ويصحبه جماعة من أعوانه لحفظ المؤن والأطعمة ، وينظر ما إذا كانت فاسدة أم لا ، ويختبر الموازين والمكاييل .

وكذلك إشتملت واجبات المحتسب على منع المضايقات وإزالة العقبات من الطرق العامة أو الإعتداء عليها ومنع دفن الناس فى أرض يملكها الغير ، ومنع القسوة مع الخدم والحيوان ، وحمل المدينين على أداء ديونهم وتشجيع أداء الصلاة فى المسجد ، ومنع الناس من الإفطار جهاراً فى رمضان ، والتأكد من التزام الأرامل والنساء المطلقات للعدة وتشجيع الزواج من الفتيات ومنع الرجال من مصاحبة النساء جهاراً ، وإيقاع القصاص بكل من يوجد فى حالة سكر ، ومراقبة اللعب وغير ذلك[٣] .

وكان من حقه أن يفاجىء التجار المحتكرين وينقب عن الأقوات المخبوءة

---

(١) المرجع السابق :
(٢) المرجع السابق .
(٣) الإدارة العربية ص ٣٤٢ ، ٣٤٣

والأرزاق المخزونة ويرقب حركات المرور ونظام الطرقات العامة ونظافتها ، وسلامتها والمباني وهندستها وتناسقها ، والآداب العامة يحميها من المجون والتبذل ويشرف على المساجد وما يلقى فيها من دروس وما يقام فيها من صلوات ودور التعليم وما يجب لها من احترام وواجبات ومقدسات الدين لا تستباح مكانتها كتعاطى الخمر أو مزاولة لقمار أو أكل لأموال الناس بالربا ، وكان من أهم الأعمال وأجلها للمحتسب ، تبصير الناس بأمور دينهم والجهر بكلمة الحق ومقاومة الظلم والظالمين ، والإرشاد إلى سبيل الخير والإعانة عليه .

والأمر بالمعروف الذى كان يدعو إليه المحتسب هو الأمر بالمعروف عموما بأقسامه الثلاثة : —

١ ـ ما يتعلق بحقوق الله تعالى .

٢ ـ ما يتعلق بحقوق الآدميين .

٣ ـ ما يكون مشتركا بينهم .

حتى كان من حقه أن يعترض على من إعتاد ترك صلاة الجمعة من آحاد الناس [١] ، وكان من حقه أن يأمر بكفالة من تجب كفالته من الصغار ، وأن يأمر بالقيام بأهل الشروط المستحقة فيها ، وكان من حقه إلزام النساء أحكام العدد إذا طلقن . بل كان له تأديب من خالف فى العدة من النساء [٢] .

وكذلك كان نهيه عن المنكرات عاما أيضا بحقوقه الثلاثة ، بل كان النهى عنها فى حقوق الله ما يتعلق بالعبادات والمحظورات والمعاملات .

فبالنسبة للعبادات كان من حق المحتسب إنكار وتأديب المعاند المتعمد مخالفة هيئات العبادات المشروعة ، المتعمد تغيير أوصافها المسنونة ، كالجهر فى

(١) راجع الأحكام السلطانيه ص ٢٤٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٧

صلاة الإسرار أو الإسرار فى صلاة الجهر ، أو الزيادة فى صلاة أو فى الأذان بأذكار غير مسنونة[١] .

كذلك كان له إنكار تعرض رجل من الناس لمسألة الناس فى طلب الصدقة وعلم أنه غنى إما بمال أو عمل، فله أن ينكر ذلك عليه ويؤدبه فيه فقد فعل عمر رضى الله عنه مثل ذلك بقوم من أهل الصدقة[٢] .

وكان له أيضاً أن ينكر من وجده يتصدى لعلم الشرع وليس من أهله من فقيه أو واعظ ولم يأمن أن يغتر به الناس فى سوء تأويل أو تحريف جواب[٣] .

أما ما يتعلق بالمحظورات . فهو بدون تفصيل «أن يمنع الناس من مواقف الريب ومظان التهمة[٤] .

ولم يكن للمحتسب أن يتجسس على ما لم يظهر من المحظورات ولا أن يهتك الأسرار حذرا من الاستتار بها، إلا إذا كان فى امتناعه انتهاك حرمة يفوت إستدراكها مثل أن يخبره من يثق بصدقه أن رجلا خلا بامرأة ليزنى بها أو برجل ليقتله . فيجوز فى مثل هذه الحالة أن يتجسس ويحاول الكشف والبحث والتحقق من صدق ما سمع حذراً من فوات ما لا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات[٥] .

وهكذا لو أردنا حصر عمل المحتسب لوجدناه مما لا يقف عند حصر سواء منه ما كان أمراً بمعروف أو نهيا عن منكر، وسواء ما كان موجوداً فى زمانهم أو ما ظهر فى هذا العصر والزمان ، فهو الحارس على الدين المانع للخطر

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ (٢) المرجع السابق ص ٢٤٨ .
(٣) الأحكام السلطانية ص ٢٤٨ .
(٤) راجع المحظورات فى المرجع السابق ص ٢٤٩ وما بعدها .
(٥) المرجع السابق ص ٢٥٢ .

الآخذ بسبل الإصلاح، الجاهر بكلمة الحق ومقاومة الظلم والظالمين ، الآخذ على يد الفساق والعصاة والمفسدين ، الواقف فى طريق إنتشار البدع والخرافات والعادات الجاهلية ، خصوصاً ما ينتشر منها دائماً فى الأوساط العامية .

وقد جمع المحتسب بين مهمات النيابة العمومية ووزارات الشئون والصحة والتموين والبلدية وبوليس الآداب والمرور ، فى كل الأمور السريعة الحاسمة التى لا تحتمل إرجاء أو تأخيراً[1] وعموماً فقد كان نظام الحسبة ووظيفة المحتسب جزءاً من نظام الحكم الإسلامى ، بل ركناً من أركانه أمدها بالسلطان والقوة وأضفى عليها الجلال والمهابة .

---

(١) دولة القرآن ص ١٤٢ .

السياسة المالية للدولة الإسلامية

أبواب الإيراد المالي للدولة الإسلامية بعضها ثابت أصله في الكتاب والسنة وبعضها ثبت باجتهاد الصحابة في صدر الإسلام .

والموارد التي ثبتت باجتهاد الصحابة في الصدر الأول إنما كانت تعتمد إلى حد كبير على الأصل الذي هو الكتاب والسنة ، ويلتزمون فيه بالمصلحة العامة ، لأن الغاية التي كان يعمل الخلفاء من أجلها ويؤمنون بها إنما هي جلب المنافع ، ودرء المفاسد ، ولقد كان اجتهاد الصحابة فيما ليس فيه تنزيل إنما هو محاولة الوصول إلى ما يكفل تحقيق مصالح الأمة وما يتسع لحاجاتها وهم المؤمنون بأن غاية الشرع ، إنما هي المصلحة ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله .

لقد علمهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجتهدوا في الرأى حيث لا نص طالما أن هذا الاجتهاد سيؤدي إلى تحقيق المصالح ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقر اجتهاد من يجتهد في حضرته من الصحابة ويقول للمجتهد (إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر) وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقر صحابيين خرجا في سفر وحضرتهما الصلاة ولم يكن معهما ماء وصليا ، ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما الصلاة واكتفى الآخر بصلاته الأولى ، ومع ذلك صوبهما النبي صلى الله عليه وسلم وقال للذى لم يعد الصلاة (أصبت السنة وأجزأتك صلاتك) وقال للآخر لك الأجر مرتين[1] .

---

(١) راجع السياسة الشرعية عبد الوهاب خلاف ص ٨ .

كذلك ما حدث عند غزو بنى قريظة ، فقد قال الرسول : لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة فأدركتهم الصلاة وهم فى الطريق واختلفوا . فبعضهم صلى وبعضهم التزم بما قاله الرسول ، ومع ذلك لم يعنف أحداً منهم ووافقهم جميعاً على اجتهادهم[1] .

فقد ظهرت روح الإجتهاد فيا سلكه الخلفاء الراشدون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى تدبيرهم الشئون العامة للدولة ، فمع اعتمادهم واهتدائهم فى جميع نظمهم وسائر تصرفاتهم على القواعد العامة التى شرعها الله فى كتابه وبما عرفوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا ، كانوا إذا حدث لهم مالا يوجد حكمه فى كتاب ولا سنة ، اجتهدوا رأيهم واتبعوا ما أدى اليه هذا الاجتهاد خصوصاً وأنهم يعملونه لمصلحة الأمة ،ولا يخالف اجتهادهم هذا روح الدين ، وربما كان اجتهاد أحدهم يخالف اجتهاد صاحبه بل أحياناً يخالف ما يفهم من ظاهر النص[2] ، ومع ذلك لم يتهم مجتهد منهم بأنه تنكب الطريق أو أنه كان على غير الحق فغايتهم المصلحة والعدل ،ولهذا كله اعتبر ن اجتهاد هؤلاء الصحابة ، وهو كما قلت ، كان مقصودا به المصلحة العامة شرع نلتزم به طالما لم يوجد على أحدهم إنكار فى اجتهاده .

وطبيعى أن تجد أحوالا لم تكن موجودة من قبل فكان لا بد من تقييم هذه الأحوال ، وردها إلى أصلها الدينى قياساً على نظام سابق أو فهما لمعنى يؤيده نص من كتاب أو سنة ، أو لا يؤيده نص لكنه لا يتعارض مع روح الدين .

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٧٢

(٢) السياسة الشرعية (خلاف) ص ٧ .

ولهذا نرى أن الموارد الإسلامية التى رتبت لسد نفقات المصالح العامة زادت فى أيام الخلفاء عنها فى عصر الرسول ،والسياسة المالية للدولة الإسلامية فى عصر الرسول والراشدين هى عبارة عن تدبير الموارد والمصارف بما يكفل سد النفقات التى كانت تقتضيها المصلحة العامة ،والتى روعى فيها أن تكون غير مرهقة للأفراد . وليس فيها مضيعة لمصالحهم الخاصة والتى روعى فيها أيضا العدل والمساواة والإلتزام بالقانون ، وعدم مطالبة الأفراد بغير ما يفرضه هذا القانون أو مطالبة إنسان بأكثر مما تحتمل طاقته تستدعيه الضرورة .

وقد راعت هذه السياسة المالية فى تقسيم هذا الإيراد جميع مصالح الدولة على قدر أهميتها . بحيث لا تراعى مصلحة دون أخرى ويقدم الأهم على المهم .

وإن كان قد ظهر بعض الاختلاف فى وجهات النظر فى عصر الراشدين . إلا أنهم جميعا التزموا بالمصلحة العامة،وبمراعاةظروف وأحوال الناس متقيدين مع هذا بالنص إن وجد، أو الاجتهاد غير المتعارض مع رأى الدين كما قلت

أنواع الموارد الاسلامية

كانت الموارد الاسلامية فى زمن الرسول والخلفاء تتكون مما يأتى :ـ

١ ـــ الزكاة شاملة لكل أنواعها من الزروع والثمار والسوائم وعروض التجارة والأموال وكذا الصدقات التى تشبه فى أيامنا التبرعات الخيرية .

٢ ـــ ضريبة الأرض الزراعية من الخراج والعشر ونصف العشر .

٣ ـــ الجزية . ـ وهى عبارة عن ضريبة تؤخذ على الأشخاص من غير المسلمين بشروطها التى سنتحدث عنها بتفصيل فى هذا الفصل .

٤ ـــ خمس الغنائم وخمس ما يعثر عليه من الركاز والمعادن .

٥ ـ العشور : وهى عبارة عن الرسوم الجمركية التى كانت تحصل على الواردات والصادرات ، من ، وإلى البلاد الاسلامية .

٦ ـ التركة التى لا يوجد لها وارث ولا يوجد من الورثة غير أحد الزوجين ، ومال القطاء وكل مال لا يعرف له مالك ، وكل مال صولح[1] عليه المسلمون.

هذه هى أبواب الإيراد المالى للدولة الاسلامية فى الصدر الأول .

وهذه الموارد تعتبر واجبات يلزم بها الأفراد فى مقابل تمتعهم بالحقوق .

ولقد كان إيراد الدولة فى عهد الرسول مقصورا على الغنائم والصدقات والجزية التى صولح عليها غير المسلمين ، ولم يكن هناك بيت المال فكان كل مايرد من هذه الموارد يصرف فى مصرفه ساعة يرد[2]

وكانت الزكاة تمثل أهم الموارد المالية فى زمن الرسول ﷺ حيث لم تكن بعض الموارد الأخرى قد وجدت ، وكان بعضها لا يزال فى دور التكوين مثل الجزية التى شرعت فى السنة الثامنة من الهجرة بعد نزول سورة براءة . [3]

ولقد فرض الله الزكاة وأوجبها على المسلمين نصيبا معلوما حدده الرسول ﷺ فى أحاديث له وحض القرآن على سائر أنواع الصدقات واعتبر هذا حقا من حقوق الدولة تصرفه فى مواضعه . وينفق منه على أصحابه بالشروط المقررة فى كتب الفقه ، وكانت هذه الزكاة المفروضة قد أوجبها الاسلام على ذوى الأموال فى مقابل تمتعهم بحقين : ـ

---

(١) راجع الادارة العربية من ص ٨٤ إلى ١٠٠ وراجع كتاب السياسة المالية فى الاسلام [عبد الكريم الخطيب] .

(٢) السياسة الشرعية (خلاف ص ١٤١ بتصرف) .

(٣) زاد المعاد ص ٨٠ ج ٢

الأول :ـ أمانتهم على أنفسهم وأموالهم من حقد المعوزين وأطماعهم لأن المحتاجين إذا لم يكن لهم من مال ذوى المال نصيب كانوا خطرا عليهم وعلى أموالهم وعلى المجتمع كله

الثانى : تمتع هـؤلاء باستغلال جميع مرافق الدولة فى سبيل تزكية هذه الأموال وتنميتها والمحافظة عليها وإلى هذا يشير القرآن (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها [1] ، وقوله فى زكاة الزروع (وآتوا حقه يوم حصاده) [2]

ولا يعنينا هنا أن نتحدث بتفصيل عن أنواع هذه الزكاة أو مقدارها فهذا كله مبسوط فى كتب الفقه .

ولكنى أنبه هنا إلى أن الزكاة وهى ركن من أركان الدين، وأصل من أصول الإسلام ،وفريضة من الفرائض التى فرضها الله على المسلمين وجعلها من أم الفرائض بعد الصلاة ، إنما كانت أساسا بل أساسا ،مهما من أسس الموارد الاسلامية فى دولة الاسلام ، خصوصا فى عهد الرسول وخليفته أبى بكر،وقد إعتمدت الدولة على هذا المورد إعتمادا كبيرا وجعلته أول الموارد وأهمها على الإطلاق ، خصوصا وأنه من الموارد الثابتة الدائمة التى لا تتغير ولا تتبدل بتغير الأزمان أو العصور .

ويهمنى من الموارد المالية كلها ، أن أركز على الجزية فقط التى أوجبها الإسلام على غير المسلمين من الكتابيين وغيرهم والتى كانت مثارا لنقد

---

(١) التوبه ١٠٣

(٢) الانعام ١٤١

الناقدين من المستشرقين ومن جاراهم ممن يهمهم تصوير الاسلام فى صورة غير صورته الحقيقية، فذكروا أن الجزية كانت نوعا من الضغط الاقتصادى على غير المسلمين حتى يقبلوا الاسلام ويؤمنوا بدعوته ، لأن غير المسلم إما أن يسلم أو يدفع الجزية ، أو يتعرض للقتال والحرب ، ومعناه فرض الدعوة وإنتشارها عن طريق الضغط .

وقبل أن نرد على هذه الشبهة نود أن نتحدث أولا عن الجزية وكيف شرعت وممن تؤخذ .

شرعت الجزية فى السنة الثامنة من الهجرة بعد نزول سورة براءة . وأخذها النبى ﷺ من المجوس ومن أهل الكتاب ، ومن النصارى ولم يأخذها من عباد الأصنام . ولهذا كان رأى الشافعى والامام أحمد فى إحدى روايتيه أنها لا تؤخذ إلا من هذه الطوائف الثلاث . أما الامام أبو حنيفة والامام أحمد فى روايته الأخرى فقد أجازا أخذها من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار كعبدة الأصنام وغيرهم من العجم دون العرب ، وهما يقولان إن رسول الله ﷺ لم يأخذها من مشركى العرب ، لأنها فرضت بعد أن أسلمت ديار العرب جميعها ولم يبق فيها مشرك، حيث نزلت بعد فتح مكة ودخول العرب فى دين الله أفواجا [1] .

ومن هنا نستطيع أن نعرف السبب فى أخذ رسول الله ﷺ الجزية من المجوس وهم ليسوا بأصحاب كتاب، وليس لنا أن نقتنع بدون دليل بأنه كان لهم كتاب ورفع ، خصوصا وأن إبن القيم الجوزى ينكر أن هذا الحديث الذى روى فى هذا الموضوع لم يثبت سنده، وهو يقول (بأنه لا يثبت مثله ولا يصح سنده، كما يقول بأنه لا فرق

(١) زاد المعاد ص ٨٠ ج ٢

بين عباد النار وعباد الأصنام ، بل أهل الأوثان أقرب حالا من عباد النار ، وكان فيهم من التمسك بدين إبراهيم مالم يكن فى عباد النار . بل عباد النار أعداء إبراهيم الخليل ، فإذا أخذت منهم الجزية فأخذها من عباد الأصنام أولى ، ولقد ثبت فى صحيح مسلم[1] قول رسول الله ﷺ[2] إلى أحد قادة جيشه . (إذا لقيت عدوك فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو يقاتلهم) ولعل فى تعبير الرسول ﷺ بالمشركين دون أن أهل الكتاب دليل على قبول الجزية من أهل الكتاب ومن غيرهم ولو كانوا عبدة أصنام .

والمعروف أن الرسول ﷺ بعث معاذا إلى اليمن ، فعقد لمن لم يسلم من اليهود الذمة وضرب عليهم الجزية كذلك عقد الرسول الجزية مع نصارى نجران ومع أكيدر دومة فى أثناء عودته من تبوك[3].

ولعل سائلا يسأل لم لم يأخذ الجزية من خيبر ؟ .

نقول إن بعض الناس ظن أن أهل خيبر كان لهم حكم خاص بهم وبناء عليه لم تؤخذ منهم الجزية مع أخذها من سائر أهل الكتاب ، ولكن الحقيقة أن الرسول ﷺ نزلت عليه آية الجزية بعد إتفاقه مع أهل خيبر وعقده الصلح معهم ، وإقرارهم على أن يكونوا عمالا فى الأرض بالمناصفة ، ولم يشأ الرسول ﷺ أن يلغى هذا العقد وهذا الصلح لأنه لم يكن من طبيعته نقض العهود طالما التزم طرفها الآخر بما إتفق عليه ، والمعروف أن آية الجزية نزلت بعد إتفاق الرسول مع أهل خيبر بحوالى عامين . فآية الجزية نزلت فى السنة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٢ ص ٣٧ ، ٣٨

(٢) زاد المعاد ص ٨٩ ، ٨٠

الثامنة من الهجرة[1] أما يهود خيبر فمعروف أن الإتفاق معهم كان بعد الحديبية مباشرة فى أواخر السنة السادسة من الهجرة . ولو كان بين الرسول وبين أحد عقد أو عهد كما كان بينه وبين أهل خيبر ، لا كتفى به ولهذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يعقد جزية مع نصارى نجران ويهود اليمن وغيرهم ، ونرى عمر رضى الله عنه يعاملهم معاملة غيرهم حين يجليهم إلى الشام ويتغير بهذا العقد الذى تضمن إقرارهم فى أرض خيبر [2] .

مقدار الجزية :

لم تكن الجزية مقدرة ولا ثابتة ولا معينة بنوع معين فقد أخذها النبى صلى الله عليه وسلم مالا وأخذها ملابس ، ومعناه أنها تجوز أن تؤخذ نقدا وعينا وقد إتفق الرسول مع أهل نجران على ألفى حلة[3] النصف فى صفر والباقى فى رجب يؤدونها إلى المسلمين ، وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون بها حتى يردوها عليهم ، إن كان باليمن كيدة أو عذرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا يخرج قس ولا يفتنوا عن دينهم مالم يحدثوا حدثا أو يأكلوا الربا[4] .

وكذلك فإن الرسول أمر معاذا واليه على اليمن أن يأخذ من كل محتلم دينارا أو قيمته من المعافر وهى ثياب كانت موجود باليمن ، وصالح النبى أهل إذرح على مائة دينار[5] كل رجب .

(١) زاد المعاد ص ٨٠ ج ٢
(٢) المراجع ص ٧٩ ج ٢
(٣) الحلة : وزن من أوزان النقود كان مستعملا فى نجران (هامش التمدن) الاسلامى ص ٢٢٨
(٤) زاد المعاد ص ٨٠ ج ٢
(٥) التمدن الاسلامى ص ٢٢٨ ج ١

وتحديد الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ أن يأخذ من كل محتلم ، دليل على أنها لا تؤخذ من الصبي أو المرأة ، وما رواه عبد الرازق في مصنفه وأبو عبيد في كتابه (الأموال) من أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر معاذ بن جبل أن يأخذ من الذكور والإناث والعبيد والإماء ، فانه منقطع لا يصح وصله ، والزيادة التي زادها عبد الرازق وأبو عبيد مختلف فيها . ولم يذكرها سائر الرواة ، ولعلها من تفسير بعضهم وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وغيرهم هذا الحديث فاقتصروا على قوله أمره أن يأخذ من كل حالم دينارا ولم يذكروا هذه الزيادة [1] .

وقد ظلت الجزية في أيام أبى بكر كما كانت في زمن الرسول بلا تحديد حتى جاء عمر بن الخطاب وأخذ في اعتباره ما كان سائداً من العادات والتقاليد في فارس وغيرها من البلاد الأخرى ثم إضطر إلى تحديده بمقدار ثابت لهذه الضريبة فصارت أربعة دنانير عن كل رجل من الأغنياء ، وديناران عن كل فرد من أبناء الطبقة الوسطى ودينار عن الفقراء الذين لا يقوون على كسب عيشهم [2] .

وقد فرض عمرو بن العاص مبلغاً موحداً للجزية في مصر كان عبارة عن دينار عن كل رجل [3] .

لكن لم هذه الجزية ؟! .

الحقيقة أن الجزية ليست من محدثات الإسلام بل هي قديمة من أول عهد التمدن القديم وقد وضعها يونان أثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين ، وفينيقيا وهذه

(١) راجع زاد المعاد ص ٨١ جـ ٢

(٢) الإدارة العربية ص ٨٨

(٣) المراجع السابق .

من أعمال الفرس فيهان على سكان تلك السواحل دفع المال مقابل حماية الروس ، والرومان وضعوا الجزية على الأمم التي أخضعوها ، وكانت أكثر كثيرا مما وضعه المسلمون بعدئذ . فإن الرومان لما فتحوا غاليا (فرنسا) وضعوا على كل واحد من أهلها جزية يختلف مقدارها مابين تسعة جنيهات وخمسة عشر جنيها في السنة أي نحو سبعة أضعاف جزية المسلمين [1]

وحين فرض الإسلام الجزية على غير المسلمين لم يكن ذلك لأن الشعوب الأخرى قد فرضتها وإنما كانت هذه الجزية وهى مبلغ صغير كما رأينا وكما قال جورجى زيدان أقل من سبع الجزية التى فرضها الرومان على أهل فرنسا حينما فتحوا بلادهم ، وإنما كانت هذه الجزية عند المسلمين مقابل تمتع الذميين بحقوقهم وأمانهم على أنفسهم وأموالهم تماما كما أوجب على المسلمين الزكاة في مقابل هـذا التمتع وهذا الأمان ، فالذميون ينتفعون بمرافق الدولة العامة كما ينتفع المسلمون ، وهم لا تجب عليهم الزكاة ولا أنواع الصدقات الواجبة على المسلمين، فالجزية وجبت عليهم بدلا من الزكاة .

لهذا فانه إذا ما أسلم واحد منهم : سقطت عنه الجزية على الفور، ووجب عليه أن يؤدى الزكاة فى ماله إن كان ذا مال ، فهى كسائر الموارد الاسلامية واجب فى نظير الحقوق .

ولقد رد أبو عبيدة الجزية والخراج بعد أن صالح عليها أهل الشام ، وذلك حين بلغه أن الروم قد جمعوا له واستعدوا لحربه وقتاله . فكتب إلى ولاته الذين خلفهم فى المدن أن يردوا هذه الأموال إلى أصحابها وكتب لهم أن يقولوا (إنما رددنا عليكم أموالكم وأنه قد بلغنا ما جمـع لنا من الجموع

---

(١) التمدن الإسلامى ص ٢٢٧ ج ١

وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لانقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم [1] .

فهذه ضريبة فرضت بل إتفق عليها بين الطرفين ونص صراحة فى فرضها على أنها فى مقابل ما تبسطه الدولة على دافعيها من حماية حربية ، وحين لا يستطيع المسلمون الدفاع عن ذلك الأقليم فإنه ترد حصيلة ما جبى من هذا الأقليم . بل إنه إذا أسلم أحد من أهل الذمة فى أية حملة من حملات للسلمين وشارك معهم فيها أو أدى أحدهم خدمة للجيش سقطت عنه الجزية[2] .

وحين فتحت جزيرة قبرص فى عهد عثمان لم تجب الجزية من أهلها لأن الخليفة لم يكن قد استيقن بعد من قدرته على حمايتهم من الهجمات الأجنبية [3] .

يقول سير توماس[4] أرنولد فى كتابه الدعوة إلى الاسلام : عند حديثه عن الغرض من فرض الجزية : ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحين كما يريدنا بعض الباحثين على الظن . لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام . فانما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول دياناتهم بينهم وبين الخدمة فى الجيش ، فى مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين ، ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه

---

(١) السياسة الشرعية (خلاف) ص ١٠٥ ، الخراج لأبى يوسف ص ١٣٩

(٢) الادارة العربية ص ٨٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ص ٧٩

ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة « أن يمنعونا وأميرهم البغى من المسلمين وغيرهم » وكذلك حدث أن سجل خالد فى المعاهدة التى أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة قوله فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا .

ويستدل أرنولد على إعتراف المسلمين الصريح بهـذا الشرط بما صنعه أبو عبيدة حينما رد الأموال التى جمعها من بلاد الشام حين أحس بأنه لن يستطيع الدفاع عنهم والتى ذكرناها قبل قليل ، ولذلك دعا المسيحيون لأهل الشام حين رد أبو عبيدة لهم أموالهم، دعوا بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أى الروم) فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شىء بقى لنا[1].

إذاً فالجزية كانت مقابل حماية المعاهدين وكما قال أرنولد الذين كانت تحول دياناتهم بينهم وبين الخدمة فى الجيش، ولذلك فقد فرضت على القادرين من الذكور فقط مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين ويقول أرنولد[2] إن أى جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هـذه الضريبة إذا مادخلت فى خدمة الجيش الاسلامى وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم بجـوار أنطاكية سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونا لهم ، وأن تقاتل معهم فى مغازيهم ، على ألا تؤخذ بالجزية وتعطى نصيبها من الغنائم ، ويقول[3] أيضاً ولما اندفعت الفتوح

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٣٩

(٢) الدعوة إلى الاسلام ص ٧٩ ، ٨٠

(٣) المرجع السابق : ص ٨٠

الإسلامية إلى شمال فارس فى سنة ٢٢ هجرية أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التى تقيم على هذه البلاد وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية .

ويقول : (١) ولما أعفى الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام فرضت عليهم الجزية فى نظير ذلك كما فرضت على المسيحيين ، وحين طلب عمر بن الخطاب من بنى تغلب وهم نصارى أن يدفعوا الجزية أو الضريبة المفروضة على الرعايا من غير المسلمين شعروا أن من الإذلال لكبريائهم والحط من كرامتهم أن يدفعوا ضريبة فرضت عليهم مقابل حمايتهم وحماية أموالهم فالتمسوا من الخليفة أن يسمح لهم بأن يتعاملوا معاملة المسلمين فى دفع الضرائب،لذلك ، نراهم يؤدون فى مقابل الجزية صدقة أوزكاة مضاعفة هى ضريبة كانت تجبى من المسلمين على أراضيهم وماشيتهم وما إلى ذلك لتنفق على الفقراء (٢) .

موقف الاسلام من أهل الذمة

كانت الجزية كما قلنا تؤخذ من الرجال فقط دون النساء والصبيان ولا يأخذونها من المسكين الذى يتصدق عليه، ولا ممن لاقدرة له على العمل،وقد مر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل. شيخ كبير ضرير البصر . فضرب عضده من خلفه وقال من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى ، قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن، قال : فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل (٣) . ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : أنظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن

---

(١) الدعوة إلى الإسلام أرنولد ٦٧،٦٨

(٢) رضخ له أى أعطاه شيئا ليس بالكثير ، والحادثة يرويها أبو يوسف (الخراج) ص ١٢٦

أكلنا شبيبته . ثم نخذله عند الهرم (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه ، وقد ذهب عمر بن الخطاب إلى الشام فمر بإحدى قرى دمشق على قوم مجذومين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بالمعاهدين خيرا فقال من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه[1]) كذلك فقد روى أن الرسول ﷺ ولى عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة فلما ولى من عنده ناداه فقال (ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو إنتقصه أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة)[2] .

وقد أوصى عمر بن الخطاب عند وفاته الخليفة من بعده على أهل الذمة

فيما قال (أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم)[3] .

وفى رواية أخرى أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم [4] .

وقلما حظى رعايا أجانب فى أية دولة من الدول الأخرى فى العصر القديم والحديث على السواء ، مثلما حظى أهل الذمة فى دار الاسلام . ولقد أوجب الإسلام لهم من الحقوق ما أوجبه للمسلمين ، وأسقط عنهم واجب حمل السلاح

---

(١) الخراج ص ١٢٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الخراج أبو يوسف ص ١٢٥

(٤) المرجع السابق .

مقابل هذه الضريبة التي يدفعونها ، وجعل الدولة مسئولة مسئولية كاملة عن الدفاع عنهم وحماية أراضيهم وذراريهم ، وجعل لهم الحرية الكاملة في إعتناق الدين الذي يرغبون فيه دون ما تدخل أو إكراه لهم على إعتناق الإسلام .

« بل كان المسلمون يتركون لهم حرية التخلف عن دعوة القضاء إن صادفت هذه الدعوى يوما من أيام أعيادهم تمكينا لهم من أن يشعروا بوجودهم العقائدي [1]

وأباح لهم التمتع بما هو حلال عندهم وإن كان هذا الحلال حرام عند المسلم كالخمر والخنزير ، ولم يفرض عليهم أدنى عقاب لذلك .

ولقد ألزم الولاة المسلمون بأن يراعوا حق الجوار للذميين وأن يجاملوهم مجاملة الأخ لأخيه ، وقد أوصى عمر واليه عمرو بن العاص بهم فقال : إن معك أهل الذمة في العهد فاحذر أن يكون رسول الله خصمك [2].

ولقد جاء في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران وهم نصارى ما يدل دلالة واضحة على إهتمامه بأهل الذمة ورعايته لمصالحهم ، فقد جاء في هذا العهد « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم ، وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم . [3] .

---

(١) راجع الخراج ص ١٣٨ وما بعدها

(٢) الإسلام نظام أنساني الدكتور مصطفى الرافعي

(٣) زاد المعاد ص ٤٠ ج ٢

وقد عاملهم الصحابة معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم بلا تعصب وتركوا لهم حرية إقامة شعائرهم الدينية ، وكانوا يعودون فى أحوالهم الشخصية إلى رؤسائهم الدينيين، على أن الولاة المسلمين إستوجبوا من رجال الكنائس القريبة من المساجد أن يقتصدوا فى قرع النواقيس فى أوقات محددة وهى أوقات صلوات المسلمين (١) .

وقد ذكر (آدم متز) (أن بعض الخلفاء كانوا يحضرون مواكب النصارى وأعيادهم ويأمرون بصيانتها وأن الحكومة فى حالة إنحباس المطر كانت تأمر بتنظيم مواكب يسير فيهـا النصارى وعلى رأسهم الأسقف واليهود ومعهم النافخون فى الأبواق (٢) .

ويكفى للتدليل على إحترام الإسلام لأهل الكتاب أنه أباح لرجال المسلمين أن يتزوجوا من بنات أهل الكتاب ولو ظلت الزوجة على دينها مع أنه حرم عليهم ذلك بالنسبة للمشركين وعبدة الأوثان .

وقد عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمن ما لبعض أهل الكتاب وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى أسبانيا(٣) . ولقد إشتهرت حرية الأديان فى بلاد الاسلام حتى هاجر اليهود من أوربا فرارا منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها . (٤) .

---

(١) الإسلام نظام إنسانى (الرافعى) ص ١٨٧ ، ١٨٨
(٢) المرجع السابق :
(٣) رسالة التوحيد ص ٩٦
(٤) المرجع السابق

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا لاكراههم عليها شيئا من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذي أنبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته مالم يبذله العرب[1]

وقد يقول قائل : أليس ذلك كله يتعارض مع قول الله تعالى : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[2] ؟ نقول : لقد كان الأصل فى فرض الجزية على أهل الكتاب قول الله تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) [3] .

فقد قيدت الجرية بقيدين أثنين :

١ — أن تكون صادرة عن يد (أى قدرة واسعة) فلا يظلمون ولا يرهقون .

٢ - القيد الثانى المعبر عنه فى الآية بقوله : (وهم صاغرون) المراد هنا بالصغار عضد شوكتهم والخضوع لسيادة المسلمين وحكمهم .[4] وعلى ذلك لايكون المقصود هنا من الصغار المعنى المتبادر إلى الذهن وهو الإذلال ؛

---

(١) المرجع السابق

(٢) ٢٠١ التوبة ٢٩

(٣) التوبة : ٢٩

(٤) راجع الوحى المحمدى [رشيد رضا] ص ٢٦

ولذلك نرى المرحوم الأستاذ محمد رشيد رضا يقول عند تفسيره لهذه الآية (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) : هذه غاية[1] للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهى بها إذا كان الغلب لنا ، إذا وجد ما يقتضى وجوب القتال ، كما حدث فى غزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية فى الحالين اللذين قيدت بهما .

القيد الأول : —

أن تكون صادرة عن يد أى قدرة واسعة فلا يظلمون ولا يرهقون :

والثانى :

لكم وهو الصغار المراد به عضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم للإسلام بما يرون من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التى يرونكم أقرب بها إلى هداية أنبيائهم منهم ، فإن أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد ، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة فى العدل ولم يكونوا حائلا دونهما فى دار الاسلام ، والقتال لما دون هذه الأسباب التى يكون بها وجوبه عينيا أولا بأن ينتهى بإعطاء الجزية ، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وإعطائهم وحريتهم فى دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية ، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين . ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين ، ويسمون أهل الذمة لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله ورسوله إنتهى ...

وإذا فالجزية ليست ضغطا ماديا ، كما أنها ليست إقرارا على عقيدة ، وإنما

---

(١) تفسير المنار ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ج ١٠

هي ضريبة عادية يدفعها الذمي مقابل حمايته وحماية ماله وعرضه وعقيدته وعبادته. وهي لا تشكل عبئا إقتصاديا على أهل الذمة. خصوصا إذا عرفنا أن الرسول فرض دينارا واحدا على كل فرد في العام كله بالنسبة للرجال فقط دون النساء والأطفال والرقيق والعميان والسفراء والرهبان الذين لا يخالطون الناس.[1]

وإذا عرفنا أيضا أن الحد الأقصى الذي وصلت إليه في عهد عمر لم يزد عن أربعة دنانير للموسرين، وكانوا يعفون في مقابل دفعهم للجزية من حمل السلاح والحرب، ولذلك كان دافعوها هم المستفيدون بهذا العفو، على أن المسلمين كانوا مطالبين بأكثر مما طولب به أهل الذمة فهم مطالبون بحمل السلاح وبحماية البلاد عن أنفسهم وعن أهل الذمة أيضا، كذلك فهم مطالبون بتوريد الزكاة المفروضة عليهم إلى بيت المال والتي كانت تصل عند كثير من الناس إلى أضعاف ما يدفعه الذمي المساوي له في ما يملكه من مال أو تجارة أو غيرها.

على أن هذه الجزية التي كانوا يدفعونها. إنما كانت أموال عامة ينفق منها على صالح المجتمع كله بما في ذلك دافعيها، ولم تكن هذه الأموال تحصل لصالح فرد معين أو فئة معينة. أو للانفاق منها على المسلمين وحدهم. إنما كان أهل الذمة بمجرد قبولهم ودفعهم أياها. لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم عدا الدفاع وحمل السلاح.

كان يصرف منها على تنظيم الجيش وسد الثغور، وبناء القناطر والجسور وغير ذلك من المصالح العامة التي تعود على المجتمع كله بجميع هيئاته بالخير والنفع

وقد قلنا إن عمر بن الخطاب أمر بفرض للشيخ اليهودي الذي وجده يتسول وقال إنه من المساكين، والصدقات للفقراء والمساكين، ورأيناه قد فرض

(١) الخراج يوسف ص ١٢٢، ١٢٣

لبعض المجذومين من نصارى الشام من بيت المال الذى جعل من أساس موارده هذه الجزية .

ولقد كان من شروط الصلح بين خالد بن الوليد وأهل الحيرة مسئولية للسلمين للإنفاق على العجزة والفقراء ووضع الجزية عنهم ، ومما جاء فى هذه الشروط (وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل وأصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام)[1]

وهكذا نرى أن أموال الجزية أموال عامة يستفيد منها دافعوها مع غيرهم والمسلمون مسئولون مسئولية كاملة عن الفقراء والمحتاجين والعجزة من أهل الذمة ، ومسئولون عن إعالتهم هم وعيالهم وليست عليهم جــزية حيث توضع عنهم .

وحين نقارن بين ما أخذه المسلمون من أهل الذمة من ضرائب (جزية) وما كانت تأخذه الدولة الفارسية أو الرومانية نجد الفرق الشاسع بين عدل الإسلام وظلم فارس والرومان . فقد كان الولاة فى فارس يقاسمون الأهالى فى محصولات الأرض وثمارها[2] . وقد روى المؤرخون أن ملوك فارس قبل كسرى أنوشروان كانوا يأخذون من كور من كورهم ثلث الخراج ومن كور الربع ومن كور الخمس ، ومن كور السدس[3]

أما الرومان فقد سمعنا ما قاله عنهم جورجى زيدان من أنهم وضعوا على كل

---

(١) الخراج صـ ١٤٤
(٢) د . احمد غلوش بحث الدكتوراه ص ٣٨١
(٣) المرجع السابق ..

فرد من أهل فرنسا جزية بين تسعة وخمسة عشرة جنيها فى السنة أى نحو سبعة أضعاف جزية للسلمين .

فأين هـذه المقادير من الجزية التى فرضها الإسلام والتى لم تزد أبدا على أغنى أغنيائهم والموسرين منهم على أربعة دنانير وهو أقصى حد وصلت إليه فى عهد عمر .

ولو حاول الذمى أن يقارن بين مايدفعه من جزية وما يدفعه للواطن المسلم لوجدنا أن المسلم كما قلنا يتحمل عبئا أضخم ومسئولية أكبر ، وهذا ما يجعله يفكر بعيداً عن أى ضغط أو تأثير . فى سماحة الإسلام وعدالته ،ويجعله يقبل على إعتناق الإسلام بعيداً عن أى ضغط أو إكراه ، ولو كان يرغب فى عدم الغرم وتحمل المسئولية . لظل على دينه ، لأنه بالإسلام سيقع فى غرم أكبر ، وهو الزكاة والصدقة وغيرها . مع قيامه بالدفاع الذى أعفاه الإسلام منه طالما ظل على دينه .

وقد يقول قائل معنى هذا : أن الجزية كانت إقرارا لعقيدة من يدفعها .؟ نقول : إنها لم تـكن أبدا بهذا المعنى ، ولـكنها فقط كانت تعطى فرصة للمهادنة بين للسلمين وغيرهم ، ولعرض الإسلام بصورة تناسب فـكر المعاهدين وتجعل الدعوة تظهر على حقيقتها أمامهم فيتخلصوا من الأكاذيب والأضاليل التى سمعوها كثيرا عن الدعوة والمسلمين .

وهذه للهادنة إنما تظهر الإسلام بمظهر التسامح بلا تعصب ولا تزمت . حينذاك ينتصر الحق ويتضح الباطل بلا إكراه ، فلا إكراه فى الدين .(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) .[1]

---

(١) الرعد ١٧

(٢) مفاتيح الغيب نقلا عن (غلوش) ص ٢٨٣

ولهذا نرى الرازى يقول: وليس المقصود بالجزية التقرير على الكفر بل المقصود حقن الدم وإمهالهم مدة رجاء أنهم ربما وقفوا فى هذه المدة على محاسن الإسلام وقوة دلائله [٢].

كانت هذه المهادنة تعطى فرصة للمسلمين أن يختلطوا بأهل الذمة وأن ويتعاملوا معهم ، ولم تكن لتقف عقبة بعد هذه المهادنة فى طريق الدعوة الإسلامية ، فيرى أهل الذمة الإسلام وتعاليمه على حقيقتهما، بعد أن شوه الحكام صورته لشعوبهم .

فقد أعطى الفرس والروم صورة سيئة لشعوبهم عن العرب وأخلاقهم وتعاليمهم وصوروهم لهم فى صورة جعلتهم يرتابون فى كل مايعرض لهم عن طريق العرب فكانت هذه المدنة فرصة لكي يروا العرب على حقيقتهم وينظروا بأعينهم ما عليه العرب من الوفاء وحسن السيرة، وليروا سماحة الإسلام ويأخذوا الحق من الواقع أمامهم ، لا من أفواه الملوك والرؤساء الذين كانوا فى حاجة ماسة إلى إستمرار تضليلهم لشعوبهم . حتى تستمر سيادتهم عليهم .

ولهذا نرى أنه بعد أن رأى أهل الذمة فى الشام ماعليه المسلمون من الوفاء وحسن السيرة، صاروا أشداء على أعداء المسلمين وعونا للمسلمين على أنفسهم رغم أنهم يدفعون الجزية ، بل أنهم حين أعاد أبو عبيدة لهم ما أخذه منهم من جزية حين أحس بعدم قدرته على الدفاع عنهم ، عندما جمع له الروم دعا أهل الشام للمسلمين بالنصر وأحسوا بالفارق الكبير بين سماحة الإسلام وظلم الرومان .[١]

---

(١) راجع الخراج ص ١٣٨، ١٣٩ .

في مثل هذه السياسة الحانية الرحيمة أمسك المسلمون بزمام هذه الدولة العريضة التي أقامها الله عليهم، وأجروا عليها ما أمرت به شريعتهم السمحاء من العدل والإحسان. فدانوا لهم ديانة رضى ومحبة، ودخل كثير من الذميين — الإسلام بدافع من الإعجاب بهذا الدين الذي جعل من أعراب البادية أمة تمسك بميزان الحق، وتضع الناس جميعا بمنزلة واحدة في مقام العدل والاقساط[1]

---

(١) عبد الكريم الخطيب) السياسة المالية ص ٩٦

علاقة التنظيم الدينى بالتشريع الحكومى في العصر الحديث

تمهيد : -

عرفنا أن الغاية التى يريدها الله من الأديان هى إقامة الحق والعدل ومنع عدوان الناس بعضهم على بعض أى أن الهدف الأسمى من هذه الأديان هو تقرير العدالة الإجتماعية ولذلك كان تأسيس الدولة جزءا من الرسالات نفسها من أجل تحقيق هذه الأغراض السامية التى جاءت من أجلهـــا الأديان على أن تستعمل القوى السياسية لتحقيق هذه الأغراض مع الإستفادة من منابر الدعوة والتبليغ العام والخاص الذى يجب أن يحتمى دائما بهذه القوة السياسية - (بالدولة التى أراد الله أن تكون وسيلة من وسائل الوصول إلى ما تدعو اليه الأديان والتى تعمل من أجلها ومن أجل نشرها وانتشارها ...

وتستخدم الدولة فى سبيل الوصول لهذا الغرض وسائل التربية والتعليم للصغار والشباب فى مراحل التعليم المختلفة، وتستعمل الرأى العام والنفوذ الاجتماعى كما تقتضيه الظروف والأحوال، مع مراعاة طبع كل فرع من فروع الحياة الانسانية بطابع هذه النظرية الخلقية الخاصة ، وأن تكون هذه النظرية هى برنامجها الإصلاحى الخاص حيث قد ثبت لنا من خلال عرضنا للعلاقة بين الدين والدنيا أو ما أطلقنا عليه عنوانا لبحثنا ..

(العلاقة بين الدين والدولة فى صدر الاسلام)

لابد أن نعرف أن الدولة الاسلامية تحيط بالحياة الانسانية كلها وبكل فرع من فروع الحضارة مقيدة بالشريعة ملتزمة بهـا خصوصا وأن الاسلام نظـام كامل شامل بين النـاس كل ناحية من نواحى الحياة وشمل ما يحتـاج اليه

الناس من النظم الإدارية والثقافية والقضائية والاقتصادية والمالية والاجتماعية ووضع المبادىء والقوانين لكل فرع من فروع الحياة حتى السياسة الدولية وخطة الإسلام والدولة الإسلامية فى السلم والحرب .

ولم تكن هذه المبادىء والنظم والقوانين مجرد أفكار أو قواعد نظرية وإنما شاء الله أن تجرى تلك المبادىء على الحياة العملية وتنفذ فيها وأعد المسلمين للسير على هذا المنهاج والعمل بهذه النظم .

وشاء الله كما قلنا أن يكون عصر الراشدين إمتدادا للتشريع وعصر تجارب عملية وتدريب عملى على أنماط ونظم جديدة .

ولذلك نستطيع أن نقول إنه بعد الراشدين نضج التفكير الإسلامى نضوجا كاملا وإنتقل من دور الفكرة المحضة إلى نظام شامل للمدنية شمل كل نواحى الحياة .

وإذا تحدثت عن العلاقة بين الدين والدولة أو بين الدين والسياسة ، فإنى أريد أن أثبت أنه لابد من ترابط الناحيتين الدينية والسياسية وتلازمهما ، وضرورة التعاون فيما بينهما لإصلاح المجتمع ، حيث نرى (أن السياسة لاتجد فى الدين ما يقف دون مصلحة ولا تجد منه مايحمل على اتيان مفسدة . لاتجد فيه هذا ولاذاك متى وزنت المصالح والمفاسد بميزان العقل الراجح ، وكان القابضون على زمامها من حصافة الرأى وفى منعه من أن يعيش بهم التقليد أو ارضاء طائفة خاصة ، إلا أن يروا الفساد صلاحا فيشرعوه أو يروا الصلاح فى لون الفساد فينصرفوا عنه ، وليس من شأن الدين أن يراعى فيما يشرع الأهواء الجامحة وإن كانت أهواء الملأ الذين استكبروا أو أهواء من فى الأرض جميعا .)[1]

---

(١) رسائل الاصلاح (الخضر حسين) ص ١٢ ج١

ولذلك نستطيع أن نقول إن كل حركة إصلاحية تخدم هدفا سياسيا فى حقيقة الأمر وكل منهج سياسى يمكن أن يوصف بأنه حركة إصلاح تستهدف رفع مستوى مجموعة أو أكثر من المجموعات البشرية .

وإن كان العرف قد جرى على إدخال ما يتصل بتنظيم الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى فى نطاق السياسة بينما أطلق إسم (الإصلاح) على البرامج التى ترمى إلى رفع مستوى الشعب وتحسين حاله فى شتى نواحى الحياة)[1]

ولذلك اقترن اسم السياسة فى الأذهان بالسلطة والحكم والتطاحن والمغامرة فى الوقت الذى لا تثير فيه كلمة الإصلاح إلا التفكير الهادىء الذى يتسم بالاتزان والانصاف، والذى تسيطر عليه النزعة الانسانية .

ولكنا حين نبحث عن الهدف الذى يسعى إليه من يشتغلون بالاصلاح سواء كانوا من رجال الدين أو من غيرهم، ومن يتعرضون للسياسة ومن يجدون فى أنفسهم الجسارة عليها، نجد أنهم جميعا يعملون فى ميدان واحد ومن أجل غرض واحد ألا وهو الوصول إلى تقرير العدالة الاجتماعية بتدبير علائق أفراد الأمة أو الوطن بعضهم ببعض، ودفعهم فى مدارج التطور والرقى، والذين يشتغلون بالسياسة هم فى نفس الوقت يشتغلون بالاصلاح لأن سياسة أمور الدولة الخارجية لا تقوم الأعلى سلامة جبهتها الداخلية، ولكن لما كان الوصول إلى الحكم قد يبعد الحكام عن الطريق الحقيقى الموصل إلى هذا الاصلاح المنشود، أو قد تبعد الحكام مشاغلهم الخاصة عن الوسائل الصحيحة الموصلة إلى هذا الاصلاح المنشود .

---

(١) راجع الإتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين ص ٢٢٢ ح ١

لذلك كان على المشتغلين بالإصلاح المتفرغين له ، الذين يزجون بأنفسهم في شئون السياسة ويؤثرون البعد عن مواطن الزحام والتكالب على كراسى الحكم . أن ينصبوا أنفسهم للعمل على تحقيق الغرض السامى (تقرير العدالة الاجتماعية) ولفت أنظار الحكام إلى الطريق الصحيح للوصول إلى هذا الغرض ..

ولذلك قلنا إن تحقيق هذا الغرض إما عن طريق "قوة السياسية وهو الأصل والوصول إليه عن هذا الطريق أسرع وأقوى (إن الله ليزع بالسلطان لا يزع بالقرآن)[1]

وكما يستفاد أيضا عن طريق منابر الدعوة والتبليغ العام ويستخدم لذلك وسائل التربية والتعليم بشتى صورها وأشكالها ، كما يستعمل لذلك أيضا كما قلنا الرأى العام والنفوذ الاجتماعى كما تقتضيه الظروف والأحوال ...
وسأحاول هنا إن شاء الله أن أركز على :

١ — دعائم الدولة الإسلامية في جوانبها الثلاث . لمحاولة إصلاح أداة الحكم عندنا .

٢ — التعليم باعتباره أهم الطرق الموصلة إلى الاصلاح .

٣ — الأزهر والتطوير ومسئوليته ومدى إمكانياته للاصلاح ..

---

(١) من كلام لسيدنا عثمان رضى الله عنه (من بحث المرحوم الشيخ كامل حسن بعنوان: اهداف الرسالة الاسلامية وبيان دور الأزهر فى نشرها) مطبوعات مجمع البحوث المؤتمر الخامس سنة ١٩٧٠ ص ٤١١

٤ — وسائل الاعلام الحديثة وأهمية دورها في الاصلاح .

٥ — الشباب - والانحراف وطريقة علاجه وإصلاحه ...

٦ — رسالة المسجد في العصر الحديث وما يمكن أن يؤديه من إصلاح ..

إصلاح أداة الحكم :

لاشك أن الاسلام حرص أول ماحرص على أن ينشىء مجتمعا تحكمه الضوابط الخلقية قبل أن تحكمه الدساتير والقوانين، وأراد لدولة الاسلام أن تكون مجتمعا يسود علاقات أفراده الصدق والأمانة والوفاء والصراحة وكراهية الظلم ونصرة العدل والمسارعة إلى الخير ومقاومة الشر، وأرسى الاسلام القواعد لضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين الناس بعضهم ببعض، وأظهر ما يجوز لكل منهما مما لا يجوز وركز على التربية الخلقية وإقامة الرقابة الداخلية (رقابة الضمير الانساني) .

وليكون بديلا عن رقابة الدولة بشرطتها وعسسها، ولذلك احتفل الاسلام بأخلاقيات الحكم أكثر مما إحتفل بنظامه، وفرض على الراعي وعلى الرعية فروضا إذا روعيت إستقام الحكم، وإذا أهملت وقامت نصوص الدساتير والقوانين ومعها قوة المدافع والبنادق والمحاكم والسجون عاجزة لاتقدم خيرا ولاترد شرا ...

ولعل في حديث رسول الله ﷺ (كما تكونوا يول عليكم) .[1] ما يوضح هذه النظرة الاسلامية إلى الحكم بل مايجعل نظام الحكم هو أخلاق الشعب نفسه .

وقد يسأل سائل ومن (سيقوم بتربية الشعب) ليكون له هذا الخلق القويم ثم يسهر عليه ينميه ويمنع عوادى الزمن عليه (الجواب على هذا)

(١) الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٤٨

وأن الله فرض على جماعة المسلمين أن تكون منهم دائما طائفة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فإذا نسيت الجماعة ذكروها وإذا صلحت أعانوها وإذا خافت قووا إيمانها، وإذا إندفعت سددوا خطاها...

بل وفرض على هذه الطائفة أن ينصحوا الحاكم وأن يجهروا بالرأي في شئونهم ، وجعل خير الجهاد كلمة حق عند حاكم ظالم[1] مع ضرورة وقوف السلطة السياسية بإمكانياتها الإعلامية والتعليمية بجانبها . باعتبارها المالكة أو المتحكمة في الوسائل التنفيذية .

ولا شك أن لكل مجتمع مشاكله وأمراضه . فالمجتمع كالكائنات الحية عرضة للطوارئ، والظروف والمفاجآت الداخلية والخارجية يتأثر بها مرة ويستفيد منها مرات . ويستسلم لها إلى حين تارة ، ويناضلها حتى يتغلب عليها تارة أخرى .

وتجدد المشاكل واستمرار الترصد لها ومحاولة علاجها سنة هذه الحياة ، والمجتمع الذى تتوافر له هذه الصفات لابد بعون من الله أن يظهر بفضل إيمانه وتمسكه بسبل وعناصر التقدم والرقى للوصول إلى سعادة المجتمع .

ومجتمعنا الحديث ، وأقصد به المجتمع المصرى على الخصوص له مشاكله وفيه ولاشك أمراض كثيرة فى حاجة إلى علاج .

ولكن كيف السبيل إلى التحرر من تلك المشاكل والأمراض ؟ .

---

(١) وردت احاديث بهذا المعنى عن أبى سعيد الخدرى وابى عبد الله طارق ابن شهاب البجلى وعن ابى امامة جابر رضى الله عنهم وقد روى هذه الاحاديث ابو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى والحاكم راجع (الترغيب والترهيب) ص ١٦٨ ج ٣

ولقد حاول الكثيرون الإجابة على هذا السؤال : فكتبوا ، وخطبوا ، وحكموا ، ولاشك أن الكثيرين منهم أخلصوا وكانت مجهوداتهم صادقة . لكنه فاتهم عدة إعتبارات أبعدتهم عن الوصول إلى النتائج النهائية التى يمكن الاعتماد عليها فى السياسة العامة للاصلاح .

وسأحاول أن ألخص هذه الاعتبارات فيما يلى :—

١ — أغفلوا دراسة الحقبة المثالية من تاريخ الإسلام (عصر الرسول والراشدين .) دراسة وافية وبذلك عجزوا عن معرفة الأسباب الحقيقة . للوصول إلى المجتمع المثالى المتطور القائم على الحق والعدل ، والذى ينشد صلاح الإنسان ورقيه وإمتيازه والذى جعل حياة الإنسان كلها . قائمة على نظم ومبادىء من طبيعتها صلاح العمران ومنبع الفساد وهى الغاية الحقيقية لنزول الأديان ..

٢ — بحثوا مشاكل المجتمع ، وما أكثرها . كل مشكلة على حده . برغم ترابط جميع المشاكل ببعضها وإتصالها الوثيق . أو حاولوا علاج جميع المشاكل مرة واحدة ، وبذلك لم تنل كل مشكلة قسطها الكافى من الدراسة والتمحيص .

٣ — تجاهلوا علاج هذه المشاكل على أساس العلاج الدينى ، وحاولوا نقل الحلول والإصلاحات التى لجأت اليها الدول الأخرى كما هى دون ما نظر إلى وجهة نظر الدين فيها ، ودون ما نظر إلى ظروفنا الخاصة . فتعقمت هذه المشاكل بدلا من حلها وتخفيف حدتها .

٤ — لم يراعوا الروح العلمية ولم يتبعوا أساليبها . فجاءت حلولا خالية من الدقة والوضوح .

ولعل أهم مشاكل المجتمع المصرى المعاصر نابعة من : — إغفال معرفة أهمية التربية الدينية والأخلاقية . ففسد التعليم وانحلت الرابطة الدينية . حتى الوعظ والارشاد لم يعد يؤتى ثماره المرجوة، وغلب على الناس التحلى بالتملق والتزلف، وفقد التناصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولم يعد هناك قوة تقف فى وجه المنكر (الرأى العام)

ولاشك أن الدولة فى الوقت الحاضر (أى دولة) تضطلع بكل شئون الأمة وتتعهد جميع مرافقها العــــامة وتعتبر الدول مسئولة مسئولية كاملة عن نشر العلم والعناية بالصحة العامة ، وزيادة الثروة والعمران ، وتقديم جميع الخدمات للمواطنين : مما يجعل الدول مسئولة مسئولية كاملة ومباشرة عن كل تقدم أو تخلف يصيب أبناء الشعب .

ولعل ازدياد وسائل الحضارة وتنوع أشكالها، وسهولة محاكاتها جعل الشعوب تتجه نحو التخلص نهائيا من ربقة تقاليدها والتنكر لعاداتها القديمة حتى وأن كانت هذه العادات مما يمكن أن يدخل تحت اسم الدين ، والذى ينظر إليه (المتطورون) الآن على أنه (موضة قديمة) .

الأمر الذى يوجب على الدولة معالجة الشئون الاجتماعية والسياسية للأمة بالحكمة والحذر حتى لاتنساق الطوائف والجماعات إلى طريق الغواية والضلال باسم التجديد والتمدين وأصبح حتما عليها أن تتدخل فى شئون الأفراد الخاصة من أجل مصلحتهم وسعادتهم التى غاب عنهم طريق الوصول إليها والتى لم يكن من دأب الحكومات فى الماضى أن تحفل بها .

وقد وقف ما يطلق عليه إسم (النظام الديمقراطى) فى كثير من دول العالم . عقبة فى طريق إصلاح الأمة حيث فهموا أن الديمقراطية معناها

مرادف الحرية المطلقة . بلا رادع يردع ، أو حدود تقف عندها هــذه الحرية ،ولذلك فقد تنبهت بعض هذه الدول الديمقراطية . وأيقظتها هذه المشاكل من سباتها العميق ، ولفت نظرها إلى ضرورة إصلاح الأداة الحكومية قبل أن تثور شعوبها وتـكدر بالنظام الديمقراطي نفسه .

ولـكن برغم إيمانى بأن إصلاح أداة الحـكم يتوقف عليه كل إصلاح : إقتصادي وإجتماعى ، وروحى ، وسياسى. إلا أنى أرى أن يكون هذا الإصلاح فى إطار النظام الإسلامى .المحدود:بالشريعة الإسلامية ، وليس فى ظل ما يطلقون عليه إسم الديمقراطية بمعناها الواسع .

وإلا فقد أباحت هذه الديمقراطية رسميا عن طريق البرلمان وبأغلبية أعضائه. اللواط فى إنجلترا وأصبح الشذوذ الجنسى شيئا عاديا طبيعيا يبيحه القانون وتحميه هذه الديمقراطية .

ولقد أباحت هذه الديمقراطية أيضا : زواج رجل من رجل : فقد نشرت أخبـــار اليوم فى عددها الصادر يوم السبت ١٩٧١/٤/٢٤ . أن (جاك باكر وميتشيل ماك كونيل)وهما شابان تخرجا من الجامعة وعمر كل واحد منهما ٢٨ عاما أعلنا زواجهما فى الولايات المتحدة ، وأنهما : يعيشان حياة الأزواج .فى شقة بمدينة (مينا بولس) بالقرب من جامعة (مينى سوتا) حيث كان (باكر) يدرس القانون .

وتتحدث الصحيفة عن أسباب هذا الزواج فتقول. لقد كانت مشاعر باكر المرهفة سبباً فى إحساسه بنوع من القلق . أدت إلى تفكيره فى الزواج من زميله (ماك كونيل) رسميا ، ولما سئل باكر : لماذا لا تعيش أنت وزوجك (الرجل) فى هدوء دون متاعب الزواج الرسمي ،قال باكر ردي على هذا: أن للمتزوجين

رسميا ، يحصلون على ميزات منها : إنهما يدفعان ضرائب أقل . فضلا عما يكفله لهم هذا الزواج من حماية القانون بالنسبة للمسائل المتعلقة بالميراث .

والغريب أن الزوجين الذكرين إستطاعا الحصول على حكم من المحكمة الاتحادية يقضى بأن الشاذ جنسيا يعتبر إنسانا قبل كل شيء ، ويمكنه الإلتحاق بأى عمل ما دام شذوذه لا يؤثر على طريقة قيامه بهذا العمل ، وذلك بعد أن حاولت الجامعة سحب عرضها لوظيفة أمين مكتبة لأحد الزوجين بمرتب قدره إحد عشر ألف دولار سنويا ، وتقول الأخبار : أن بعض هذه الزيجات . قد تمت وأنها لم تكن تتم سرا بل كانت تقام الحفلات والأفراح بهذه المناسبة . وتقول أيضا إن هناك محاولات ضخمة تبذل الآن لعقد مثل هذه الزيجات الشاذة بطريقة رسمية مثل الزيجات الطبيعية [1].

النظام الاسلامى والتطور فى النظم الحديثة :

لعل سائلا يسأل : ؟ هل كان فى النظام الإسلامى نظام البرلمان الحالى أو نظام الوزارة . أو ماعرف حديثا من أنظمة فرضها التطور والتغير الزمانى؟ وهل وجود مثل هذه الأنظمة فى مجتمعنا المعاصر يعد خروجا على نظام الإسلام مادامت غير موجودة فيه ؟ .

نقول : الحقيقة أن بعض شراح نظام الحكم الإسلامى التبس عليهم الأمر فخلطوا بين الأصول والتطبيق ، وفسروا الأصول على ضوء التطبيق المنحرف وإذا كان المعروف عن نظام الحكم الاسلامى أنه عبارة على الأصول والمبادىء الكلية التى فرضها القرآن والسنة فى تنظيم شئون الحكم وطبقت تلك الأصول والمبادى تطبيقا واقعيا مستقيما فى صـــدر الاسلام . (أى فى عصر الرسول والراشدين) وذلك على ضوء ظروف البيئة ومقتضيات العصر ، وضح لنا أن :

---

(١) انتشرت هذه الزيجات فى الولايات الأمريكية المتحده - وتم الاعتراف بها رسميا - وأصبح من المألوف ظهور رجال يرتدون ملابس النساء ولا يخجلون من ذلك ، ويرافقون رجالا مثلهم وتعترف الدولة رسميا بهذا الزواج .

الدولة الاسلامية هى دولة ذات كيان مزدوج . كيان مادى وكيان روحى، وأن الكيان الروحى يهيمن هيمنة كاملة على الكيان المادى ويؤثر تأثيرا مباشرا فى كل عناصره وكل أوضاعه، هذا الجمع بين الكيان الروحى والكيان المادى هو الذى يميز التنظيم الاسلامى عن كل التنظيمات الحكومية الوضعية السابقة والمعاصرة وهو الذى تمتد تأثيراته فى مسرح البناء الحكومى الاسلامى إلى كل لبنة من لبناته، وإلى كل جهاز من أجهزته، وإلى كل لون من ألوان نشاطه [١]

ولقد ثبت لنا من خلال دراستنا الدولة الاسلامية فى عصر الرسول والراشدين أن التعاليم الاسلامية المنظمة للمجتمع فى أوضاعه السياسية والاقتصادية والدولية. جاءت فى صيغ كلية وتوجيهات عامة . غير مفصلة حتى لا تتقيد الأجيال المقبلة بهذه التفصيلات والتطبيقات . بل تتركها حرة تقتبس ما يتلاءم مع حاجاتها زمانا أو مكانا . ما دامت تسود الوضع الذى اختارته هذه التعاليم الكلية بوجه عام وينبثق عن توجيهاتها .

ولقد كانت هذه المرونة لأن المجتمعات متغيرة . متطورة ولكل جيل أن يستبين المدى من التعاليم الاسلامية فى شئون الحكم وشئون الاقتصاد ، وأن يراعى المحيط الدولى الذى يعيش فيه، ويعد العدة لمواجهة أخطاره . حتى لا يعيش المجتمع الاسلامى فى عزلة من المجتمعات غير الاسلامية .

ولقد رأينا كيف اختلفت أساليب الخلفاء الراشدين فى تطبيق الشورى التى جاء بها القرآن ، وجعلها أساسا من أسس نظام الحكم فى الاسلام . لكنها جاءت فى صيغة كلية . حيث قال القرآن : (وأمرهم شورى بينهم) . . .

فقد اختلفت أساليبهم فى تطبيق أحد مقتضيات هذه الشورى وهـــو :

---

(١) نظام الحكم فى الاسلام [الدكتور محمد عبد الله العربى ص ٢٣]

أختيار رئيس الدولة . بين تولية أبى بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ومع ذلك وبرغم هذا الاختلاف . قد طبق نظام الشورى فى إختيار رئيس الدولة . . .

ولقد قلنا إن ذلك كان تشريعا وتعليما للناس . ولقد حدث ذلك فى فترة قصيرة لاتتجاوز الثلاثين عاما .

ولقد اختلفت أساليبهم أيضا فى تأمين سلامة الدولة . وتأمين الدعوة الاسلامية وفى حروبهم الداخلية . وتأمين حدود الدولة واضطرارهم إلى الدخول فى حروب خارجية اضطرتهم إليها مقتضيات المحيط الدولى المعاصر .

ولكن كان الهدف من كل هذه الجهود واحداً . وهو تأمين الدولة والدعوة وكل ذلك تنفيذ لفريضة إسلامية هى فريضة الجهاد فى سبيل الله . .

وهكذا جاءت تعاليم الاسلام فى تنظيم المجتمع سواء فى سياسة الحكم أو سياسة الاقتصاد فى صورة مبادىء عامة وصور كلية متسمة بطابع الخلود . فلا تتغير ولاتتبدل . أما النظم التى تباشر تطبيق هذه التعاليم فلا تشاركها فى هذا الطابع . بل يجب أن تظل قابلة للتطور بما يفى بمطالب كل زمان — ومقتضيات كل بيئة . وما يلائم منها جيلا . قد لايفى بمطالب الجيل التالى فيكون لزاما عليه أن يحدث تحويرا فى هذه النظام الوضعية الوضعية . لتنسجم مع مطالب عصره وتكفل له بذلك بلوغ الهدف الاسلامى الثابت [1] .

إذا كان أى نظام تختاره الدولة لها . سواء صدق عليه مايصدق على النظم العالمية المعروفة . أو كان نظاما خاصا مبتكرا لم تعرفه الشعوب . وسواء كان

(١) نظام الحكم فى الاسلام (العربى) ص ٢٤ .

هناك وزارة برلمانية أو غير برلمانية · وسواء كان هناك دستور مكتوب أو غير مكتوب وسواء كان نظاما ملكيا . أو جمهوريا رئاسيا أو غير رئاسى . . .

فان المطلوب فقط هو تطبيق الأصول والتعاليم الكلية . وعدم تركها جامدة فى صيغها الكلية · بل إنه مما يجب على المؤمنين نحو هذه التعاليم والتوجيهات أن يبادروا إلى وضع النظم التنظيمية لها . مها كانت هذه النظم وبالطريقة التى تعجبهم . مادامت كفيلة بتنفيذ هذه التعليمات والتوجيهات فى مجالات الحياة بما يتلاءم مع إحتياجات العصر ومع التقدم أو التخلف العمرانى الذى وصل إليه وإلا صارت هذه التعالم الكلية مجرد مواعظ . قد لايعيرها الكثيرون — إهمامهم وتكون عرضة لعبث التفسير من الذين يسوؤهم تطبيقها الصحيح . . . . .

ولقد امتاز النظام الاسلامى بمساندة التعليم العقائدية والخلقية للتعاليم السياسية الحكومية . وجعل هذه التعاليم هى صاحبة الهيمنة على الكيان المادى للدولة .

وإذا كانت الديمقراطية بمعناها العام . وما عرفت به فى عصرنا الحديث، لايوجد أى قيد على سلطانها التشريعى فان تعاليم الاسلام تقيد السيطرة الحكومية بقيود من الشريعة . كما تسرى هذه القيود على نشاط الأجهزه التى يتألف منها بنيان الحكومة الاسلامية ·

ومن هنا كان الاختلاف بين النظام الديمقراطية الحديثه خصوصا فى الدول الغربية وبين النظام الاسلامى مبينا وواضحا ·

ولقد تعرضت فى الباب الرابع إلى طريقة إختيار الحاكم (الخليفة أو رئيس الدولة) كما يطلق عليه فى عصرنا الحديث . وأثبتنا أن تولية رئيس

الدولة . كان لا بد أن تكون بموافقة ومشورة الشعب كله . دون تحديد لفئة معينة تتولى هذا الأمر . وأن تولية رئاسة الدولة ليست إلا عقداً بين الشعب وبين من اختاروه لتولى بهذا المنصب عقــداً يفرض الالتزامات على الطرفين .

وأنا هنا مضطر خصوصاً وأنا أتحدث عن الإصلاح فى العصر الحديث . أن أتحدث عن نظام البرلمـان وهو الجهاز التشريعى . أو مجلس الشورى كما يطلق عليه فى الإسلام .

وأعرض ما أراه صالحاً بأن يكون نظاماً إسلامياً بالمعنى الصحيح . .

البرمان ووظيفته :

لا شك أن البرلمـان مشرع يراقب التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . ويقدر لكل حال ما يناسبها ويرسم لكل عرف ما يتفق معه من قواعد وضوابط . .

وإذا لاحظنا الحياة الحاضرة وتعقدها والظروف الاجتماعية وتطورها . أدركنا حاجتنا المستمرة إلى التشريع المتجدد والملائم .

فالتشريع إذا وظيفة البرلمـان الرئيسية . وكلنا نعرف ما يتطلب التشريع من خبرة وسعة إطلاع وحسن تقدير للأمور وبعد فى النظر . وكم تبدو هذه الشرائط ضرورية إذا لاحظنا أن القوانين بوجه عام تقتضى قسطاً من التقديس والاحترام وليس فى مقدورنا أن نحمل العامة على تقديسها إلا إذا درجنا فى تشريعنا على سنة محكمة ومبادىء قوية .

والبرلمـان أيضاً رقيب . ولا يمكن أن نتصور الرقابة إلا من أشخاص

كفلت حريتهم واكتملت خبرتهم فلابد أن يكونوا طليقين من كل قيد بعيدين عن كل تأثير لا يدينون لأحد فى مهمتهم إلا للأمة التى أقامتهم رقباء على تدبير شئونها المختلفة وعلى هذا فالبرلمان الصحيح ما أستمد سلطته من الأمة وما جاء وليد الانتخابات العامة (الحرة غير المقيدة).

كذلك فالبرمان مستشار والمستشار ناصح أمين. ولن يجد البرلمانيون سبيلا إلى النصح فى مشورتهم. والدقة فى حكمهم. إلا أن توافرت فيهم كفاية خاصة والمام بشتى المسائل العامة[1].

« وإذا كان التعيين لا يمكن أن يكون وسيلة لتكوين مجلس نيابى يستطيع أن يضطلع تماما بأعمال الرقابة والإشراف على شئون الدولة فان الانتخابات وهى وسيلة تربية الرأى العام والتى تمثل كما يقول رجال السياسة الديمقراطية فى أوضح مظاهرها. ويقولون عنها إنها أجل مظهر لسلطة الشعب ونفوذه.

إلا أنها والحق يقال ليست خيراً كلها وقد تكون بابا من أبواب الشر له خطره وخطورته. فأساسها معيب نظريا على الأقل. لأنها تسوى بين العالم والجاهل. بين ذوى الخبرة والتجربة. والغر ومن لا تجربة له. وتنافسها يثير ما يثير من خصومات وأحقاد. ويؤدى أحيانا إلى تلفيق التهم وتدبير المؤمرات وسماسرتها يبيعون الذمم ويشوهون الحقائق ويبذلون الأموال. وجلبتها وضوضاؤها قد تلغى على معانيها الساميه فلا تنتهى بمن يساهمون فيها إلى ثمرة مرضية أو نتيجة مقبولة[2].

---

(١) الإدارة الحكومية (ابراهيم مدكور)، (مريت غالى) ص ٥٦، ٥٧ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٣.

(لماذا لم يقم مجلس الشورى فى الدولة الإسلامية) الأولى على الانتخابات العامة :

يتطلب التشريع فى الدولة الإسلامية وضع القوانين لهذه الأصول الكلية القرآنية . ولهذا كان وجود الجهاز التشريعى أو مجلس الشورى أو البرلمان أو مجلس الأمة : أو مجلس الشعب ضرورة من الضرورات وكناً من أركان النظام الاسلامى الذى جعل الشورى قاعدة وأساساً من أسس نظام الحكم فى الإسلام .

وإذا كانت الآية قد قالت (وأمرهم شورى بينهم) فإن معناها أن الشعب كله يجب أن يشترك فى إبرام ما يحتاج إليه من تشريع وضعى .

ولما كان اجتماع الشعب كله فى مكان واحد . يعتبر من الناحية العملية مستحيلا خصوصاً فى الدول الكبرى ذات الأقاليم المتعددة . فقد جعلت الإنابة ضرورة حتمتها الظروف . على أن تكون (هذه النخبة المختارة . النائبة) . . من خيرة القوم وأقدرهم على الإلمام بشئون الحياة العامة فى كل مجالاتها . ولعل هذه النخبة هى المقصودة فى نداءات القرآن (بأولى الألباب) . .

هل هناك وسيلة معينة يفرضها النظام الإسلامى ؟

ولعل فى عدم تحديد وسيلة إجراء عملية الاختيار لهذه المجموعة . . (النواب) وعدم وجود نص قرآنى ولا سابقة للرسول أو الراشدين . ما يفيد ترك هذه الوسيلة لاجتهاد كل جيل ولاختيار الطريق الذى يعجب الأجيال القادمة بجعله إنتخاباً مباشراً لنوابه أو انتخاباً غير مباشر على درجتين أو ثلاثة أو أكثر وقد يرى يرى تقسيم الدولة إلى دوائر صغيرة

أو كبيرة ، وليمثل الدائرة واحداً أو اثنين أو أكثر . حيث أن هذه تفصيلات جزئية تركت لتقدير ظروف كل بلد ومستوى الادارك فيه . لكنه لا بد من تحقيق مبدأ الشورى عن طريق الانتخاب من عامة الشعب ذكوراً وإناثاً بكل طوائفهم وطبقاتهم وبالوسيلة التي توصيها الدولة .

ليس لنا أن نقول . كيف نقرر وجود مجلس شوري بالإنتخاب العام مع أننا لم نجد الرسول أو الخلفاء الراشدين شكلوا مجلسا للشورى منتخبا من الشعب ؟

الحقيقة أننا لو أمعنا النظر في طبيعة تكوين المجتمع الاسلامى الأول لثبت لنا أن الخلفاء الراشدين طبقوا مبدءاالشورى فيما يقتضيه من انتخاب أهل الشورى الممثلين للشعب تطبيقاً صحيحا .

فلقد كانت الزعامة القبلية وكان زعماء القبائل بديلا عن النظام البرلمانى . وكان زعماء القبائل مع الطبقة التى عرفت بقربها من رسول الله ﷺ يشكلون هذا المجلس ، « ولو طال بالخلفاء العهد حتى تصبح الزعامة القبلية مجردة عن صفتها التمثيلية السابقة لبادروا إلى تشكيل مجالس شوراهم بأساليب أخرى يتحقق فيها تمثيل الشعب كله عن طريق الإنتخاب العام كما تحقق فعلا فى الأسلوب الذى إنتهجوه »[1] .

ولقد كان طلب الرسول ﷺ من أصحاب بيعة العقبة الثانية وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا معهم أمرأتان . أن يختاروا من بينهم اثنى عشر نقيبا . دليلا ومثلا رائعاً وأشارة نبوية عميقة إلى هذا المبدأ . حيث ترك لهذا الجماعة من الأوس أن يختاروا بأنفسهم من بينهم من يمثلهم ويتولى أمرهم ولم يشأ أن يعين هو بنفسه هؤلاء النقباء .

---

(١) نظام الحكم فى الاسلام (العربى) ص ٨٥

لماذا لم يتم اختيار مجلس شورى للرسول

أو الراشدين عن طريق الانتخاب ؟

يعجبنى تحليل السيد أبو الأعلى المودودى لأسباب عدم إختيار مجلس شورى للرسول أو الراشدين عن طريق الانتخاب العام : حيث يقول.[1] :—

« من المعلوم أن الاسلام قد نهض فى مكة المكرمة. كحركة من الحركات ، ومن طبيعة الحركات أن الذين يستجيبون لدعوتها قبل غيرهم هم الذين يكونون أصحاب الداعى وسواعده ورجال مشورته . فالذين كانوا السابقين الأولين فى الإسلام أصبحوا بطريق فطرى . أصحاب النبى ﷺ وأهل مشورته ليشاورهم ويعتمد عليهم فى الأمور التى لم ينزل الله تعالى فيها حكما صريحا من عنده ولما كثر المستجيبون لدعوة الخير الاسلامية ، وإشتد صراعها لقوى المخالفة أنجبت بنفسها وأبرزت رجالا كانوا ممتازين عن سائر المسلمين بخدماتهم وتضحياتهم وبصيرتهم وفراستهم ، ولم يكن إنتخابهم قد تم بالأصوات ، ولـكن بما عانوا فى حياتهم من المحن والشدائد والتجارب ، وهى طريق للانتخاب أكثر صحة وأدنى إلى الفطرة من طريق الأصوات .

فهكذا أتيح لنوعين من الرجال أن يكونوا أعضاء مجلس شورى النبى ﷺ قبل هجرته إلى المدينة المنورة . نوع من السابقين الأولين ونوع من الممتحنين المجربين : الذين نبغوا فى جماعة المسلمين فيما بعد . فكان رجال هذين النوعين . يحوزون ثقة سائر المسلمين كما كانوا يحوزون ثقة النبى صلى الله عليه وسلم .

وبعد أن يتحدث أبو الأعلى المودودي عن هجرة النبى وعن وقفة بعض

---

(١) نظرة الاسلام وهدية ص ٢٨٥ وما بعدها .

الرجال من الأنصار بجوار الرسول ، وعن وصول هؤلاء النفر من الأنصار إلى منزلة الزعماء المحليين فى هذا المجتمع الجديد يقول:[1] « (وكانوا هم الأجدر بأن يشتركوا فى مجلس شورى النبى كعنصر ثالث (الأنصار) مع السابقين الأولين والمجربين الممتحنين من المهاجرين وأيضا كان إنتخابهم قد تم بطريق فطرى وكانوا حائزين ثقة القبائل المسلمة كلها . ثم يقول : وكأنى بهم لو تم إنتخابهم بطريق هذا الزمان لما انتخب رجل من غيرهم أبدا .

ويقول المودودى ثم بدأ يبرز فى هذا المجتمع المدنى . عنصران جديدان من الناس . عنصر من الذين قاموا بأعمال جليلة ومهمات عظيمة فى الشئون السياسيه والعسكرية ودعوة الناس إلى الدين . حتى أصبح الناس لا تطمح — أبصارهم إلا إليهم . فى كل مايعرض لهم من أمورهم المهمة ، وعنصر من الذين نالوا شهرة عظيمة بين الناس من حيث علم القرآن وفهمه والتفقه فى الدين حتى أصبح عامة المسلمين يعتمدون عليهم فى الدين أكثر من غيرهم بعد النبى ﷺ ، ولقد ازداد الناس ثقة بهم لما قال النبى ﷺ لبعضهم فى مختلف الأحيان تعلموا القرآن من فلان . أو : أرجعوا إلى فلان فى معرفة المسائل من نوع كذا .

فأصبح هذان العنصران أيضا ينضمان إلى مجلس شورى النبى ﷺ بانتخاب فطرى ولم يشعر المسلمون بحاجة ملحة إلى إنتخاب أحد منهم بالأصوات ، ولو أنهم أرادوا ذلك لما كان فى المجتمع أحد سواهم ينتخبه المسلمون .

ثم يقول المودودى :—

فكهذا نجد انه قد تألف حتى فى عهد النبى ﷺ ذلك المجلس مجلس

---

(١) المرجع السابق .

الشورى الذى كان الخلفاء الراشدون يشاورونه فى أمور الدولة ، وكذلك نجد انه تقرر فى ذلك الزمان من السوابق الدستورية ، ما على أساسه ظل يشترك فى هذا المجلس فيما بعد رجال جدد أثبتوا انهم صالحون لعضويته ، وذلك بما نالوا من الصيت والحب بين العامة بخدماتهم ومؤهلاتهم الفكرية السامية .

فهم الذين دعوا بأهل الحل والعقد ، وما كان الخلفاء الراشدون ليقطعوا أمراً من الأمور المهمة إلا بمشورتهم .

ويستدل المودودى : على ما كان لهؤلاء من المنزلة الدستورية فى عهد الخلفاء الراشدين برفض على رضى الله عنه قبول البيعة ممن أتوه بعد مقتل عثمان وقالوا له : — (نبايعك فمد يدك . لابد من أمير وأنت أحق بها) فقال لهم على (ليس ذلك اليكم انما هو لأهل الشورى أهل بدر . ومن رضى به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة فنجتمع وننظر فى الأمر [1] .

تعليق :

والحقيقة أن الطريقة التى صار عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم — والخلفاء . . حين جعل من السابقين الأولين فى الأسلام والذين عركتهم الحياة وصبرتهم الاحداث . وبرزوا بخدماتهم وتضحياتهم للدين . ووقفوا فى وجه القوى المعادية للاسلام . وللدولة الأسلامية ، وظهرت من خـــلال تضحياتهم — وخدماتهم . بصيرتهم وفراستهم . وعرفوا من خلال المحن والشدائد والتجارب — بامكانياتهم الممتازة . وبفضلهم على غيرهم . وحازوا بذلك ثقة كل المسلمين فضلا عن ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان هؤلاء الذين امتدت بهم الحياة إلى عصر الرشدين . وظهرت

---

(١) راجع المرجع السابق من ص ٢٨٥ إلى ٢٨٨ .

زعامتهم فى هـذا المجتمع النظام السياسى الجديد من السابقين الاولين . والمجربين المتحنين من المهاجرين ثم الانصار الذين قال عنهم أبو الأعلى المودودى — (كأنى بهم لوتم إنتخابهم بطرق هذا الزمان لما انتخب رجل من غيرهم أبدا) . .

هؤلاء الناس الذين ظهرت كفاياتهم وأثبتوا أنهم عناصر طيبه جديرة بالاحترام والتقدير لأنهم قاموا بأعمال جليلة ومهمات عظيمة فى الشئون السياسية والعسكرية والدعوة إلى الدين الاسلامى .

وكان الناس لا تطمح بأبصارهم إلا إليهم · خصوصا وقد اشتهروا جميعاً بالتفقه فى الدين ومعرفتهم للقرآن . فكانت العامة تمتد عليهم بعد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ هؤلاء : هم الذين تألف منهم مجلس شورى النبى ومجلس شورى الخلفاء الراشدين بعد النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد أثبتت الأيام أن مجالس الشورى يجب أن يقوم على أمثالهم ممن نالوا من الحب والشهرة بخدماتهم ومؤهلاتهم الفكرية السامية مالم ينل غيرهم حيث أن هؤلاء هم فعلا أهل الحل والعقد . وهم الذين يستطيعون التشريع والمراقبة والمشاورة على أساس من الخبرة العلمية التى مارسوها . وعلى أساس مساندة الشعب لهم . باعتبارهم ذوى مكانة وهيبه فى نفوسهم . حيث أنه لابد للمجالس النيابة أن يقوم على زعامتها رجال من طراز ممتاز لهم من المكانة والهيبة مايجعلهم قادرين على قيادة هذه المجالس قيادة حكيمه . .

ولقد عرفنا كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرف طبائع الرجال وكان يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب . ولذلك كان يتخير عماله من صالح أهله وأولى دينه وأولى عمله ويختارهم على الأغلب من المنظور إليهم فى العرب ليوقروا فى الصدور ويكون لهم سلطان على المؤمنين

وغيرهم . ويحسنون العمل فيما يتولون ، ويشربون قلوب من يتولون على الايمان[1] .

ماقول رسول ﷺ (أرحم أمتى بامتى[2] أبو بكر وأشدهم فى دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم على وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبى بن كعب . . الخ) إلا دليلا معرفة الرسول ﷺ بأصحابه ومعرفه ميزة كل واحد منهم . وإمكاناته لتقديم خدمة ما إلى المجتمع الاسلامى . وهل يعنى قول الرسول ﷺ (خذ القرآن[3] من أربعة - من عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب - ومعاذ بن جبل - وسالم مولى أبى حذيفة) إلا دليلا على معرفته أن هؤلاء الأربعة بالذات يمتازون فعلا عن غيرهم بحفظ القرآن وتمكنهم منه .

وما قيل من أن الرسول ﷺ كان ثلاثة أرباع عماله من بنى أمية إلا لأن الرسول كان يعرف أن هؤلاء فيهم ميزه ليست فى غيرهم . ولذلك عللوا السبب فى إختياره معظم عماله من بن أميه (بأنه إنما طلب للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغناء ولم يطالب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف[4] عنها) .

وربما تصور بعض الناس أن قول رسول الله ﷺ لأبى ذر حينما طلب

---

(١) راجع الادارة الاسلامية ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٤ .

(٣) رواه الترمذى والحاكم عن ابن عمر وهو (حسن صحيح) الجامع الصغير ج٢ ص ٣ .

(٤) الادارة الاسلامية ص ١٤ .

من الرسول أن يوليه ولاية (يا أبا ذر أنى أراك ضعيفاً وأنى أحب لك ما أحب لنفسى لاتأمرن على اثنين ولاتولين مال يتيم[1]) .

قد يتصور بعض الناس أن الرسول كان يقصد هنا الضعف البدنى أو أن فى أبى ذر طيبة أكثر مما ينبغى تجعله غير قادر على ممارسة السلطة لاحقاق الحق وأبطال الباطل . لكن الحقيقة أن أبا ذر لم يكن ضعيف الجسم ولاضعيف السلطان . وإنما كان أبو ذر مشهور بحدة الطباع .

لأن أبا ذر انشأ فى بيئة عاشت فى جاهليتها على السلب والنهب وفيها حدة طباع . « وقد روى أنه دخل مرة على عثمان وعنده كعب الاحبار فقال له : لاترضوا من الأغنياء بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والأخوان ويوصلوا القرابات . فى كعب الاحبار : من أدى الفريضة أى الزكاة . فقد تفى ماعليه فغضب أبو ذر ورفع محجنه وضرب به كعب الاحبار فشجه وقال يا ابن اليهودية مالك وعاها هنا [2] .

فالضعف الذى كان يقصده الرسول ﷺ فى أبى ذر هو ضعف الحنكه السياسية المحتاجة إلى دهاء وتدبر . لاانفعال وقسوة فى تنفيذ الأمور أو فى فرض الآراء والافكار . ولذلك فان دعوته التى كان يدعو إليها ومذهبه فى التملك حيث كان يرى أنه لاينبغى أن يكون فى ملك المسلم أكثر من حاجته استنادا إلى ظاهر الآية الكريمة (الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله . فبشر بعذاب أليم) [3] . كان هو السبب الأول فى

---

(١) صحيح مسلم شرح النووى ج ١٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ (محمود توفيق) .

(٢) عمر بن الخطاب أصول السياسة والادارة الحديثه (د : سليمان محمد) الطماوى ص ٤١٣ .

(٣) التوبة ٣٤ .

فشل انتشار هذا المذهب لحدة طباعه وعدم عرضه المذهب على الناس والمسئولين عن الدولة عن طريق الاقناع بالحكمة والموعظة الحسنة التى كان الأمر الالهى للرسول ﷺ والناس أجمعين بسلوك طريقها واتباع منهجها حيث يقول (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)[1] .

ولم يكن حبس عثمان رضى الله عنه لأبى ذر على فرض صحة ماقيل من أنه نفاه إلى الربذه إلا للعنف الذى حاول أبو ذر أن يفرض به رأيه ، بل أنه طالب عثمان باستعمال سلطة الدولة فى تحقيق مذهبه الاقتصادى [2] .

الحقيقة أن السياسة فن وحنكه قبل أن تكون فرضاً أو جماعة . ولعل عدم دهاء سيدنا على وعدم تخيره الوقت المناسب لفرض رأيه أو تنفيذ خطته . واستمساكه بتنفيذ مايراه صالحا للإسلام بصرف النظر عن العواقب هو السبب المباشر فى فشله فى الاستمرار فى تولى الحكم دون مناوأته والخروج عليه .

وكان دهاء معاوية وحنكته السياسية (فهو أموى وابن سياسى قديم) هو السبب فى انتصاره على كل العقبات التى وقفت فى طريق توليه السلطة . وهى السبب فى تمكنه فيما بعد من تأسيس دوله بنى أميه .

وهكذا أثبت الرسول ﷺ احترامه للتخصصات . وما كان إستعمال الرسول لابى سفيان ابن حرب بعد إسلامه مباشرة وتوليته الصلاة والحرب على نجران إلا إحتراما لهذا التخصص . ولم يكن الرسول ﷺ

(١) النحل ١٢٥ .
(٢) راجع عمر بن الخطاب [الطماوى] ص ٤٠٢ .

ينظر إلى التدين وحده وإنما كان الرسول ﷺ يولى للحرب من يرى فيه قوة وشجاعة أملا فى النصر . فالعبرة بالكفاية والقوة على العمل . ولذلك ولى الرسول خالد بن الوليد على الحرب بمجرد إسلامه مع أنه كان يعمل ماينكره النبى كقتله لبنى جذيمه وأخذ أموالهم بنوع شبهه وتأميره لعمرو بن العاص وأسامه بن زيد . حيث كان يرى فى توليتهم مصلحة راجحة برغم وجود من هو أفضل منهم فى العلم والإيمان [1] .

الإسلام والنظام البرلمانى الحالى :

المعروف أن اختصاصات مجلس الشورى (والمجالس الشعبية) هو التشريع الوضعى أو مايطلق عليه فى اصطلاح العصر اقتراح سن القوانين بشرط عدم معارضتها لروح الاسلام وأصوله الكلية . وهذا يقتضى أن يكون أعضاء المجلس أو أكثريته على علم بنصوص القرآن والسنه وعلى قدر كبير من الفهم لأحوال العالم بصفة عامة . ومن حق المجلس أن ينتهى بخصوص مشروعات القوانين التى تعرض عليه باقرارها أو رفضها أو تعديلها. ثم يعهد بما يقره منها إلى رئيس الدولة ليأمر جهازه التنفيذى بالتنفيذ .

وفى هذه الحالة ليس لرئيس الدولة أن يعترض على القوانين التى وافق عليها المجلس إلا إذا رأى فيها تعارضا مع أحكام الشريعة الإسلامية . لأنه المسئول الأول عن حراسة الدين .

ومن اختصاصات مجلس الشورى أيضاً الرقابة والإشراف على الجهاز التنفيذى وهى واجب فرضه الإسلام على كل مواطن قدر استطاعته . وأصبحت أمانة فى عنق المجلس . بعد أن أصبحوا نواب الشعب والمسئولين

---

(١) راجع السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٨ .

نيابة عنه عن هذه الرقابة . ولذلك فللمجلس إذا ما اكتشف تقصيرا أو انحرافا فى التنفيذ أن يطالب إلى رئيس الدولة وهو المسئول عن الجهاز التنفيذى أن يحاسب المقصر أو المنحرف ثم يتابع ماتم فى معالجة التقصير أو تقويم الانحراف :

وإذا كان البرلمـــان كما قلنـا مشرعا يراقب التطـور الاجـتماعى والاقتصادى والسياسى ويقدر لـكل حال ماينامبها وكان رقيبا على الادارات الحـكومية والتنفيذية فقد شرط أن يتوفر فى ممثلى الأمة كفاية خاصة والمام بشتى المسائل العامه وشرط كذلك النزاهة والاخلاص فى العمل بحيث يضع المصلحة العامة وحدها نصب عينيه . وإذا فلا بد أن يتوفر لهؤلاء الرقباء اكتمال الخبره وكمالة الحرية حتى يكونوا طليقين من كل قيد بعيدين عن كل تأثير .

والاسلام ضد التفرقة والتعدد بشتى صورهـا وأشـكالها . وهو ضد الحزبية والطائفية وأن كان يرحب بتشعب الآراء ويوجب إبداءها لذلك . كان نظام الأحزاب غـير مستحب فى النظام الاسلامى . حتى وأن قيل أنهـا ضرورة من ضرورات النظام النيابى والحياة البرلمانية . بل أن بعض المفكرين يرون أن الديمقراطية هى حكومة الأحزاب السياسية . (١)

فيرى بعض الشراع أنه يستحيل إلغاء الأحزاب السياسية مادمنا نسلم بالحرية السياسية والحريه الفردية (٢) .

---

(١) راجع مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية [د. أحمد عبد القادر الجمال] ص ٤٩٢ .

(٢) المرجع السابق .

لكن الاسلام لايعرف هـذه الحزبية وقد أثبت الواقع أن للحزبية ضررها وخطرها على النظم الدستورية إذ كثير ماتؤدى إلى عوامل الفرقة والضعف بين المواطنين بل هى تقسم الدولة إلى أقلية وأكثرية وفى ذلك أضعاف لقوة الجماعة التى دعا الاسلام لتوحيدها . كما أنه قد ثبت أن أعضاء الحزب يدينون بالطاعة والخضوع لقرارات الحزب مهما كانت حتى وأن خالفت نزعاتهم وميولهم شخصيا .

ويقول الدكتور أحمد عبد القادر الجمال [1] .

أن أحد النواب البريطانيين قد عبر عن هذه الحالة بعبارة لاذعة فقال : سمعت فى البرلمان خطبا عديدة أقنعتنى بتعديل ما اعتزمته من رأى ولكن لم تغير أحدى هذه الخطب من صوتى .

ونحن لانقصد بهذا الكلام أثبات فشل النظام البرلمانى ذاته برغم أن كثيراً من المفكرين انتقدوا هذا النظام وأثبتوا له كثيراً من العيوب وقالوا: أنه « بالنسبة لرجال البرلمان فالمشاهد أن مستوى الكفاءة فى جميع البرلمانات يتدهور من وقت إلى آخر إذ انتخاب رجال أكفاء من ذوى الدراية أمر عسير على الشعب [2] .

ومع تسليمى شخصياً بعيوب النظام البرلمانى الحالى . شأنه شأن كل نظام عرفه الانسان وصنعه لنفسه . إلا أن هـذه العيوب يمكن أصلاحها خصوصا إذا مانضج الشعب نضوجا سياسيا وأدرك عظم المسئولية الملقاة على عاتقه حينذاك يمكنه المعالجة بحسن الاختيار . ولن يرى بعدها ضعف

---

(١) المرجع السابق .
(٢) « « « «

فى مستوى رجال البرلمان والحكومة . وأن يتوفر النضوج السياسى للشعب إلا بفهمه الثقافة الإسلامية فهما حقيقياً . وتربيته تربية دينية خلقية قبل أن تربيه تربية سياسية مادية .

وكانت نظرته للنظام الديمقراطى نظرة واقعية إسلامية حيث يؤمن بأن الديمقراطية الحقيقية هى : العدالة الاجتماعية والديمقراطية الاقتصادية وليس كما ينظر إلى الديمقراطية فى العالم الغربى اليوم على أنها مجرد نظام سياسى يرمى إلى تحقيق الحرية السياسية فقط حيث أنها ترمى إلى تحقيق المساواة فى الحقوق السياسية ولا دخل لها بتوزيع المنافع الاقتصادية . فهى ليست نظاماً إجتماعياً أو إقتصادياً ، وإنما قصد بها تحقيق المساواة أمام القانون حيث لا تمييز بين فرد أو طبقة بسبب الأصل أو الجنس أو الدين ، وحيث يعطى الجميع حقوقهم السياسية كحقهم فى الترشيح والانتخاب وغير ذلك مما هو معروف[1] .

من كل ذلك نرى أن الإســـلام يبيح للجميع أن يرشحوا أنفسهم إن وجدوا فى أنفسهم الكفاية والقدرة على تمثيل إخوانهم وأهليهم ليكونوا ممثلين فى مجلس الشورى ، أو مجلس الشعب ، أو غيره من أسماء تطلقها الدول والحكومات على مجالسها ليشرع ويراقب، ويناقش ويبدى رأيه فى حرية وصراحة ووضوح، دون ضغط أو إكراه من أحد أو خوف من سلطان، أو سلطات أداة الحكم أو غير ذلك من أصحاب النفوذ .

وللأستاذ المودودى رأى فى هذا الموضوع . يقول المودودى[2] : — « لا ينتخب للامارة أو لعضوية مجلس الشورى من يرشح نفسه لذلك أو

(١) راجع المرجع السابق صفحتى ٣٩٤ ، ٣٩٥ .
(٢) نظرية الإسلام وهديه ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

يسعى فيه سعياً ما . فإن النبي ﷺ قال : (إنا لا نولى هذا العمل أحداً سأله أو حرص عليه) ويقول المودودي: « ومن المؤكد أنه ليس فى المجتمع الإسلامى محل للترشيح للمناصب والدعايات فى الإنتخابات أصلا ومما يمجه الذوق الإسلامى وتأباه العقلية الاسلامية أن يقوم لمنصب واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة من طلابه . فينشر كل واحد منهم خلاف الآخر من نشرات تبكي لها المروءة ويندى لها جبين الشرف الاسلامى ، ويعقدوا الحفلات لمدح أنفسهم والطعن فيمن سواهم » ثم يتحدث عن استخدامهم الصحف والجرائد للدعاية وتغرير الناخبين . ويقول : « ثم ينجح منهم من كان أكثرهم كذبا وأدهام تلفيقاً وتزويراً وأشدهم إسرافا فى المال » .

ومع تسليمى بما يقوله المودودي إلا أنى أرى ترك الحرية الكاملة لمن يرغب فى ترشيح نفسه لعضوية مجلس الشورى (الشعب) على أن يكون هناك وازع نفسى لكل من يتقدم للترشيح، وعلى أن يكون تقدمه للترشيح لا للوصول إلى هدف السلطة والمنصب ، وإنما لتقديم الخدمة للشعب كافة وليس لأبناء دائرته وحدها ، حيث يعتبر نفسه ممثلا للأمة بأسرها وليس لدائرته أو لأصحاب المهنـــة التى ينتمى إليها خصوصاً وأن الاسلام لا يعرف الفرقة ولا الطبقية ولا التحزب .

ولقد أثبت الواقع أن الفرد العادى يتأثر عادة فى أثناء الاجتماعات العامة كالمجالس النيابية وغيرها ، خاصة التى تنظر فيها أمور عامة الدولة بآراء رجال الدين وكبار الموظفين وأصحاب النفوذ . فإذا كان هذا المرشح ممن يؤمنون بالمصلحة العامة ومن ذوى الشخصيات وممن يعرف دقائق الأمور وخباياها كان التمثيل صحيحاً وفى مكانه الصحيح ، أما ما تأخذ به بعض الدول الاسلامية من تخصيص نسبة معينة لفئات معينة على اعتبار أنها تمثل الغالبية العظمى للشعب فإنما هو حجر على الحرية وتقييد لها ثم، إنه فى نفس الوقت حزبية وطائفية .

والإسلام كما قلنا يمج الحزبية والطائفية، كذلك فإن تحديد نسبة معينة لفئة معينة مهما كانت، إنما يضطر الشعب إلى قبول الأمر الواقع وينظر إلى هذه الانتخابات على أنها مجرد صورة، حيث لا يعطى الأفراد الحرية الكاملة في اختيار من يشاءون ويعتقدون أنه المستحق لشرف تمثيلهم عن جدارة.

ولذلك يحجم الأكفاء عن ترشيح أنفسهم وتكون أعداد كبيرة من هؤلاء الممثلين مجرد دمى تحركها الحكومة وتكون ألعوبة في يدها، وفي الوقت نفسه يفقد المجلس قيمته الحقيقية حيث لا يؤدى الأمانة على وجهها الصحيح ولا تجد الحكومة المقترحات المفيدة التي تستحق العناية والتقدير، وحتى لو قدمت مقترحات بناءة من ذوى التخصصات وأصحاب الفكر السليم فإنها قد لا تجد التأييد الكافي من المجلس خصوصاً حينما تجد معارضة من الحكومة، حيث لا يملك باقي المجلس ممن لا يعرفون المصلحة الحقيقية للوطن وممن لا يقدرون على تحليل الآراء، وليست عندهم الخبرة الكافية التي يدركون بها الأمور، ويقفون بها على دخائل الأعمال العامة، إلا أن يوافقوا على رأى الحكومة باعتبارها صاحبة الفضل الأكبر في وصولهم إلى هذا المنصب، ويكون اجتماع المجلس مجرد مظاهر وشكليات تطغى أحياناً على اللب والحقيقة، فالجلسات تعقد وتنفض والاجتماعات تنظم وترتب والأقوال تحكم وتنسق وكل ذلك في دائرة محدودة وبين جدران معينة أغلقت نوافذها قصداً كي لا يتسرب إليها شيء مما يجرى في العالم الخارجي. وما المرشحون إلا السلطة التشريعية في البلاد، والمشرفون على السلطة التنفيذية، والمديرون لدفة الأمور على اختلافها، فإن صلح اختيارهم فقد وكلنا الشئون العامة إلى من يحسنون تدبيرها، وإن ساء فتلك ولا شك جناية على الوطن. فلتكن الكفاية والمواهب الشخصية والشعور بالمصلحة العامة والفهم للمسئولية رائدنا الأول في تقديم مرشح على آخر، ولتبق الإنتخابات حرة دون

تقييد أو تزوير أو تدخل فى المعارك الانتخابية لصالح شخص أو فئة معينة من الناس، وإلا فقد خرجنا عن معانى الديمقراطية والحرية التى ينشدها الاسلام.

ونود ألا يغيب عن أذهاننا أن أى نظام مكون من أجزاء تكون سلامته فى سلامة أجزائه على انفرادها، بحيث إذا تعطل جزء منها أو أدى وظيفته أداء ناقصاً فإن آثار ذلك ستبدو على النظام فى جملته، ونظام الشورى الصحيحة جزء من نظام الاسلام العام، فإذا ما فسد فسد النظام ونحن نرجو أن يراعى ذلك وأن يوضع فى الاعتبار .

ورأيى أنا فى انتخاباتنا الحالية :

أنها غير مظهرة للكفايات والمواهب المستورة . فكثيراً ما تخطىء الشعوب الناضجة فى أحكامها . فما بالنا بالأمم الناشئة التى لابد لها من تربية خاصة حتى تتمكن من الحكم الصحيح والتقدير السليم . وربما كانت الانتخابات فى بلادنا وبصورتها الحالية . من تقسيم المحافظات إلى دوائر كبيرة قد يصل عدد الناخبين فيها إلى أكثر من مائة ألف ناخب[1] . طريقة غير عملية لاظهار المواهب ووصول المرشح الصالح إلى كرسى مجلس الشعب . خصوصا وأن هذا العدد الضخم لا يمكن له معرفة كل مميزات وإمكانات المرشحين فى دوائرهم . ولا يعدو فى الريف أن يعرف الناخبون أكثر من مرشحى قريتهم فقط، اللهم إلا إذا كان أحد هؤلاء المرشحين رجلا عرف على المستوى العام بتقديم خدمات لبلده ووطنه أو يشغل أحد المناصب الكبرى فى الدولة . أما فى المدينة فغالبا ما يكون هناك مرشحون فيهم من الكفايات والمواهب ما يؤهلهم لتمثيل الأمة تمثيلا صحيحا، وفى إمكانهم حمل هذه الأمانة بكل إخلاص. إلا أن ظروف الحياة

---

(١) فى الانتخابات الأخيرة اتسعت الدوائر أكثر واصبح بعض الدوائر يزيد عدد الناخبين فيه على ٣٠٠ ألف ناخب .

فى المدينة تختلف عنها فى القرية ، حيث يتكون مجتمع المدينة فى الكثير الغالب من أفراد وعائلات غرباء بعضهم عن بعض ، لا تربطهم روابط القرابة أو المصاهرة كمجتمع القرية أو القبيلة مثلا . وحتى لو عرف أهل الحى المرشح المقيم بينهم فغالباً ما تكون هذه المعرفة فى نطاق شارع أو عدد محدود من الشوارع فى نطاق الحى . فضلا عن أن تتعداها إلى باقى الأحياء التى تتكون منها الدائرة .

وإذا ضربنا مثلا بدائرة جنوب القاهرة (وهى دائرة واحدة) وجدناها تشمل منطقة مترامية الأطراف مختلفة الأنماط الاجتماعية . يصل طولها إلى أكثر من خمسة وثلاثين كيلو مترا .

وحين نحاول تقصى أنماط هذه الدائرة الواسعة نجد أنها لا تمثل مجتمعاً واحداً متشابهاً متعارفا . بل نجد عدة مجتمعات صغيرة أو كبيرة متباينة تماماً وليس بينها أى ترابط أو مجرد تعارف .

ولذلك كثيراً ما تلعب العصبية دورها فى توصيل مرشحها إلى كرسى المجلس ومع أن بعض المرشحين، وربما معظمهم، يكون معروفاً لمناطق أخرى لكنه قد لا يجد من العصبية ما وجده ذلك الذى فرضته العصبية ، برغم أحقية غيره بالمنصب .

وقد يكون السبب فى نجاح الكثيرين من هؤلاء المرشحين راجع إلى نجاحهم فى أسلوب الدعاية والإسراف فى القول والوعد بالأمانى الممكنة وغير الممكنة مما يجعل الجماهير تصدقه ، تلك الجماهير التى يغلب عليها حتى المثقفين منهم طابع الطيبة فضلا عن الغالبية العظمى الساذجة ، والجماهير كما قال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه (أتباع كل ناعق)[1] . وكثيراً ما يعطى

---

(١) ديوانه [illegible]

الناخب صوته لأحد المرشحين لمجرد أنه من طائفته أو من جهته أو أقنعه به أحد الموالين للمرشح أو المأجورين له ، ولا يكون بينه وبين هذا المرشح أي معرفة أو صلة . بل أحياناً يعطى صوته لأي فرد حيث عرف أنه لو لم ينتخب عدداً معيناً لسقط صوته .

وعامة الشعب لايذهبون للإدلاء بأصواتهم إلا فراراً من الغرامة التي تفرض على المتخلفين من أداء أصواتهم . ولا يهمهم إعطاء صوتهم لفلان من الناس بقدر ما يهمهم التخلص من المسئولية والفرار من الغرامة أو العقوبة .

وهكذا يلعب الحظ دوراً كبيراً في حصول بعض المرشحين على أصوات ليست من حقهم . وربما لو عرف الناخبون أصحابها ما أعطوهم أصواتهم .

فالمرشح الذي له عصبية كمرشحي مدينة حلوان مثلا وهي أكثر عدداً من باقي مناطق الدائرة . يحصل بالطبع على أصوات زملائه العمال، ويحصل أيضاً على أصوات عديدة لاتعرفه ولايعرفها يسوقها إليه القانون الذي فرض على الناخب اختيار عدد من المرشحين لا يجوز له أن يختار أقل منهم وإلا سقط صوته . بالإضافة إلى أنه يستفيد بعامل آخر هو كثرة عدد الناخبين في بلده أو الحي الذي يسكنه مما يمده بعصبية أخرى .

لذلك نجد في الغالب أنه لا ينجح غالباً في هذه الدائرة سوى المرشحين من أبناء مدينة حلوان . ويحظى العمال بأكثر الأصوات باعتبارهم أكثر هذا الحي عدداً وأكثرهم إرتباطاً بلون واحد من الحياة . هذا دون مرشحي الغالبية العظمى من أبناء الدائرة الكبيرة المترامية الأطراف . إلا إذا فرضت أسماء معينة في قوائم حزبية كما حدث في الانتخابات الأخيرة(١) العجيبة — والتي

---

(١) انتخابات القوائم النسبية للأحزاب المصرية — عام ١٩٨٤ — الدورة الرابعة لمجلس الشعب المصري .

فرضت أسماء محددة على أبناء الدوائر نجح منهم من كان حظه فى أوائل القائمة حتى ولو لم يعط صوتاً واحداً بصفته الشخصية .

كما أن الانتخابات بهذه الصورة والصورة السابقة أيضاً . فيها مضيعة للمال فى كثير من المناطق ولها آثار سيئة حيث أن التنافس بين المرشحين قد يؤدى غالباً إلى خصومة حادة وعداوة تتأصل قد لا تمحوها الأيام ولا يبرئها ذهاب المجلس ومجىء مجالس أخرى .

وكم بددت ثروات ، ورهنت أطيان وعقارات ثم خرج بعض المتنافسين من المعركة صفر اليدين فلا وفروا مالهم ولا احتفظوا بتقدير أهليهم وذويهم. خصوصا وأن أكثر المرشحين إنما رشحوا أنفسهم لدوافع شخصية وبواعث ليس منها المصلحة العامة أو خدمة الوطن .

ولو عرف الناس المسئولية الحقيقة والعبء الكبير الذى يضطلع به هؤلاء النواب وراقبوا الواجب نحو الله ونحو الوطن . ما جاملوا على حساب هذا الوطن . ولرفضوا هذه المجاملة . وما نظروا إلى قريب أو نسيب . ولا زميل أو صديق . وإنما نظروا إلى الكفايات والمواهب ومن يستطيع الإصلاح والبناء مع رغبة هؤلاء الأكفاء القادرين على استغلال مواهبهم وقدراتهم فى خدمة الدولة ورفاهية الشعب ، وتنحية من لهم نوازع ذاتية وأنانية فردية . وقاتل الله المجاملة التى تكاد تقضى على كل شىء فى حياتنا العامة والخاصة ، وتحول بيننا وبين الحق وإن كان واضحاً جلياً ، فقد صرفتنا هذه المجاملة عن الأخذ بالمبدأ الذى حدده رسول الله ﷺ حيث قال : (من قلد رجلا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة من هو أرضى منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين)[1].

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٩ .
وفى رواية عن ابن عباس من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى

ما أقترحه لإصلاح النظام البرلمانى :

وإذا كانت الانتخابات بصورتها الحالية وصورتها التى كانت قبل نظام القوائم العجيب لا تؤدى إلى وصول الأكفاء إلى مجلس الشعب ، ويؤدى تنافسهم بالصورة الحالية إلى الخصومات والأحقاد وتضييع الأموال وجلب المفاسد . فما هى الطريقة التى ترتضيها وتكون قريبة الشبه من النظام الذى يرتضيه الاسلام؟ وحتى نقى الشعب ذلك النضال العنيف وتلك المعارك الطاحنة وحتى يستطيع الأكفاء أن يجدوا طريقاً إلى المجلس برضى الجميع وإقرارهم ويكون تمثيلهم تمثيلا صحيحاً تفهم فيه المصلحة العامة فهماً أقرب إلى الكمال ؟ .

رأيى أن النظام الذى كان متبعاً لاختيار لجان الاتحاد الاشتراكى من أصغر الوحدات فى القرية أو الشياخة إلى المركز أو القسم . ثم إلى المحافظة ثم إلى اللجنة المركزية . يمكن أن يعتمد عليه مع بعض التحفظات والتعديلات فيه على أساس أن يختار ممثلوا مجلس الشعب عن هذا الطريق .

فهو من وجهة نظرى مع التحفظ الذى سأبسطه . أحسن ما يمكن أن يقدم لنا الممثلين الأكفاء الذين تتكون منهم النوعيات المختلفة التى تستطيع أن تشرع الأمة . وتراقب التطور الإجتماعى والإقتصادى والسياسى . ويكون عندها الخبرة وسعة الاطلاع وحسن تقدير الأمور وبعد النظر . حيث لا يصل إلى هذا المجلس بعد هذه المراحل الطويلة من الانتخابات (الحرة المباشرة غير المقيدة) إلا الصالح لهذا العمل بعيداً عن العصبية والمجاملة بقدر الامكان .

فنظام الانتخابات الذى كان موجوداً فى الاتحاد الاشتراكى كان عبارة عن :

= منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين) صحيح الاسناد رواه الحاكم الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٤٣ .

لجان شياخات أو قرى وزعت توزيعاً جغرافياً على المناطق السكنية . وعبارة عن وحدات جماهيرية أى أماكن عمل تشتمل على نوعية واحدة وعدد معين من الموظفين والعمال كوزارة أو مدرسة أو غير ذلك من مؤسسات . يختار من كل وحدة من هذه الوحدات مجموعة محددة من بين المرشحين . اشترط أن يكون نصفهم على الأقل من العمال أو الفلاحين والنصف الآخر من باقى الفئات يضاف إليهم عدد آخر شرط أن يكون من الشباب وعدد آخر من النساء زيادة على العدد المقرر لكل لجنة .

ويتم تصعيد عدد معين من كل الوحدات إلى لجنة أكبر يطلق عليها اسم لجنة القسم أو المركز . ثم يتم تصعيد مجموعة أخرى من لجان الأقسام أو المراكز إلى لجنة المحافظة . ثم يتم تصعيد عدد معين من المحافظات إلى اللجنة العليا التى كان يطلق عليها اسم اللجنة المركزية . ويتم ذلك كله عن طريق الانتخاب الحر المباشر لكن بدون فواصل زمنية كافية ليتعرف كل فرد فى هذه المجموعات على الكفايات والأشخاص الذين يستحقون التصعيد للمستويات الأعلى مما يستتبع فى كثير من الحالات إنتخاب أعداد كبيرة من هذه النسب المفروضة . لا كفاية ولا قدرة لها على الخدمة والعمل ، ويكونون مجرد تكميل للعدد . خصوصاً وأن هذه النسبة مفروضة فى كل الوحدات حتى ولو لم يكن فيها غير العدد المرشح منهم . أى أن التصعيد للمستويات الأعلى يتم مع شرط تمثيل الخمسين فى المائة للعمال والفلاحين وكذا النسبة المعينة للشباب والنساء فى كل لجنة من لجان هذه المستويات .

وعند اختيار لجان المحافظات لممثليها فى اللجنة المركزية . يتم انتخاب ضعف العدد المقرر لكل محافظة ليختار السيد رئيس الجمهورية منه العدد المطلوب .

هذه الطريقة التى كان يتم بها انتخاب أعضاء الاتحاد الاشتراكى إبتداء من الوحدات الجماهيرية والسكنية . أى من القاعدة العريضة إلى القمة . هى بنفسها التى نرى أنها أحسن الطرق لاختيار أعضاء المجالس الشعبية بالمحافظات ومجلس الشعب العام ، ولكن بشرط عدم تحديد نسبة معينة لأى فئة من الفئات ليختار الشعب ممثليه فى حرية وبدون ضغط أو إكراه . وليكون هناك تكافؤ فرص أمام الجميع . على أن تضيق هذه الوحدات ، حتى يستطيع الناخبون معرفة المرشحين معرفة حقيقية وعن قرب .

وعند اختيار العدد المطلوب للجنة القسم . أرى : أن لا يتم تصعيد ممثليهم إلى مجلس المحافظة إلا بعد فترة زمنية معينة يكون أعضاء مجلس القسم قد عرف بعضهم بعضاً فيها من خلال الأعمال التى يقومون بها فى هذه الفترة وعرفت إمكانات كل واحد منهم ، ليختاروا من بينهم أكثرهم كفاءة وأصلحهم لخدمة الجمهور ، خصوصاً وأنهم تجمعوا من قرى وشياخات متعددة . وربما لم تكن هناك أى معرفة أو علاقة بينهم قبل وصولهم إلى لجنة القسم أو المركز ومثل ذلك حين التصعيد لمجلس المحافظة . وكذلك حين التصعيد للجنة المركزية التى أرى أن تكون هى نفسها مجلس الشعب العام ويكون ذلك كله عن طريق الانتخاب الحر المباشر ، وبدون تدخل من السلطات أو إعطاء حق الاختيار لرئيس الجمهورية .

وأعتقد أنه لن يصل إلى مجلس الشعب العام بعد هذه المراحل إلا أحسن العناصر التى تملك عن جدارة حق التشريع والاشراف على الأداة الحكومية ، ومراقبة التنفيذ لأعمالها .

ويكون هذا المجلس (مجلس الشعب العام) هو نفسه السلطة العليا بالنسبة للمجالس الشعبية بالمحافظات ، والمشرف على كل المجالس الشعبية للمراكز والوحدات .

ويمكن لهذا المجلس أن يختار من ذوي التخصصات في كل المجالات سواء من داخل المجلس أو من خارجه من يمكن الانتفاع بهم ويسهمون بجهوداتهم وأفكارهم في سن التشريعات والقوانين المحتاج إليها الوطن لخدمة بلادهم ووطنهم .

ويكون إنتخاب رئيس الدولة بترشيح من هذا المجلس باعتبارهم (أهل الحل والعقد) ليكون الاختيار حراً وبلا إكراه وهم أعرف بمن يصلح أكثر من غيرهم . على أن يشترط في المرشح شروط خاصة معينة هي نفس الشروط الإمامة .

وعلى أن يستفتى الشعب بعد هذا الاختيار فإذا لم يحز الأغلبية المطلوبة وشح آخر وعرض اسمه على الشعب للاستفتاء وهكذا حتى يختار الشعب بنفسه ولى الأمر ، المسئول الأول عن رعايته والاشراف عليه دينيا ودنيويا .

هل يكفى هذا النظام المقترح للوصول إلى الإصلاح المنشرد ؟

هذه الصورة التى اقترحناها وتخيلنا فيها الكفاية للوصول إلى اختيار ممثلين للشعب يكونون مشرعين لقوانينه . ومراقبين ومشرفين على الجهاز الادارى والتنفيذى له واعتبرناها أقرب الصور إلى مقصود الشرع الذى يدعو إلى تولية الأصلح ليست وحدها كافية للوصول إلى تنظيم إسلامى كامل .

ولا يمكن أن نعتبر مجرد الوصول بهؤلاء إلى عضوية مجلس الشعب بصرف النظر عن الاعتبارات الخلقية مع إيمانهم بأى نظام اقتصادى أو سياسى ستؤدى إلى فكرة الدولة الاسلامية التى يريدها الإسلام .

بل إنه لابد من اعتبارات أخرى وأصول عامة إعتبرها المشرع فى مرتبة الفرائض الالزامية للوصول إلى هذه الدولة الاسلامية المنشودة . وهذه الأصول والاعتبارات التى يراها الشرع فرائض إلزامية لابد من توافرها لأى دولة تنتسب للإسلام . عبارة عن تعاليم متكافئة متساندة بغيرها مجتمعة لا يمكن أن يقوم بنيان هذه الدولة وهى عبارة عن تعاليم خلقيه وتعاليم اقتصادية وتعاليم حكومية « فبغير التعاليم الخلقية يختل النظام الاقتصادى ويتسرب الفساد إلى النظام الحكومى ، وبغير التعاليم الاقتصادية ينهار كيان المجتمع ، وبغير التعاليم الحكومية يتعذر إنفاذ ما تقضى به التعاليم الخلقية والتعاليم الاقتصادية وهذا التساند فى العصائل الثلاث هو ميزة النظام الاسلامى على جميع النظم السابقة والمعاصرة »[1] .

---

(١) ديمقراطية القومية العربية ص ٤ أ د . محمد عبدالله العربي

ولعل فى وصول ممثلى الشعب بالطريقة التى ارتضيناها مجرد محاولة للوصول عن طريقهم إلى قوانين وتشريعات يلتزمون فيها بروح التشريع الاسلامى وبما يلائم جيلهم ومقتضيات بيئتهم لتنسجم مع مطالب العصر الذين يعيشون فيه

إذن فلابد لهؤلاء الممثلين للشعب أن يكونوا مؤمنين بما جاءت به تعاليم الاسلام فى تنظيم المجتمع . سواء فى سياسة الحكم أو فى سياسة الاقتصاد مع إرتيادهم للوسائل العلمية التى تضع هذه التعاليم موضع التنفيذ ، وعدم تركها جامدة فى صيغها الشكلية والتزامهم فى كل تشريعاتهم وتقنيناتهم بتوجيهات الاسلام وتعاليمه

« ولست أشك فى أن ما أصاب العالم الاسلامى من ضعف وتفكك فى عصور الانحلال يرجع فى كثير منه إلى إهمال كل جيل حمل هذه الأمانة والنهوض بها على الوجه الأكمل ، إذا استثنينا الصدر الأول من الاسلام »[1] .

ولا أغالى حين أقول أنه بغير التعاليم الخلقية والتعاليم الاقتصادية تفشل الشورى فشلا تاماً فالمواطن الذى يرشح نفسه للنيابة عن مواطنيه إذا آمن بتعاليم الاسلام الخلقية أشفق على الفور من حمل هذه الأمانة وأحس بثقلها وأنها تكليف لا تشريف . حينذاك يحسن تقدير أعبائها ويهيىء نفسه لمسئولية النهوض بها . ولن يحاول اختلاس ثقة الجماهير بالكذب عليهم أو شراء ذممهم بالمال أو إغرائهم بالوعد أو الوعيد .

وفى هذه الحالة أيضاً لن يفترى على منافسيه بغير الحق ، ولن يتردد فى التنحى لمنافسه إذا وجده أكثر منه قدرة على حمل هذه الأمانة . وأيقن أنه أقدر منه على خدمة الجماهير . كذلك تعلمه هذه التعاليم الخلقية أن الغرض من

---

(١) نظام الحكم فى الإسلام (العربى) ص ٣٤ .

للترشيح لا يستهدف إلا مصلحة الجماعة فلا يؤثر ذاته ولا ذويه ولا مؤيديه بمنفعة خاصة غير مشروعة . ولا يحاول أيضا الوصول إلى جاه يستغله فى تحقيق المنافع والمآرب غير المشروعة له أو لأتباعه وذويه .

أما تجاهل هذه التعاليم الأخلاقية فهو كفيل بإحباط التعاليم الحكومية فى أمر الشورى ومقتضياتها ، وإذا إنعدمت الشورى الحقيقية نتيجة عدم وجود هذه التعاليم الخلقية ، أدى ذلك إلى تهاوى النظام السياسى للبلاد . وانهارت التعاليم الاقتصادية نتيجة عدم إخلاص أصحاب الشورى فى الرأى وعدم وجود الحرية لاستجلاء الحقائق . وقد يؤدى ذلك إلى سيطرة قوى معينة وتكتل لغير المصلحة العامة . وتظهر إتجاهات إحتكارية خصوصا بالنسبة لاقتصاد البلاد . وقد تتركز الثروة القومية نتيجة لذلك كله فى أيدى فئة قليلة من الناس وذلك لعدم وجود هذه التعاليم الخلقية التى يجب أن يؤمن بها الشعب كله أولا . والممثلون له ثانيا . وبالتالى يظهر الترف وما يستتبعه من مفاسد وتبذير لأموال الشعب على المفاسد والملذات لهذه الفئة القليلة التى تحاول الاستمساك والبقاء فى هذا الظرف . بمحاولة الوصول إلى السلطة والبقاء فيها عن طريق شراء الذمم والضمائر بإغداق الأموال عليهم . أو تربية (كادرات) معينة تنتقيها من ذوى النفوس الضعيفة والطموحة فتعدها لمميزات ليست من حقها وتعمل على إيصالها إلى المراكز الحساسة فى الدولة . سواء فى المجالس الشعبية أو فى مراكز السلطة التنفيذية . أو تضعها على رأس أجهزة وسائل الاعلام . وعلى رأس مجالس إدارتها . فيستطيعون عن طريقهم إخفاء حقائق كثيرة عن الشعب . وتشويه حقائق أخرى ، وتتحكم فى تفكيره حتى لا ينفذ إليه إلا ما تريده هذه القوى ، وعلى الوجه الذى يتفق مع مصالحها الخاصة .

وتستطيع هذه الفئة القليلة عن طريق هذه الكادرات الخصوصية ، وعن

طريق ما تبثه فى الناس من أفكار عبر وسائل الإعلام وغيرها ، أن تظفر فى معاركها الانتخابية ، وأن تظل دائما متحكمة فى سياسة الدولة الداخلية والخارجية .

وعندئذ تصبح حرية الانتخابات ، والحرية السياسية ، وحرية ممارسة الشورى بالطريق الصحيح مجرد أسماء على غير مسمياتها .

ولذا يتضح أهمية هذه التعاليم العقدية الخلقية التى تجعل دعامتها الإيمان بالله وحده وتؤمن بأنه لا عبودية إلا له وبذلك يتحرر العقل الانسانى من جميع قيود العبودية ، وتحرر النفس الانسانية من الحيرة والضلال فى مسالك الحياة ، حيث أن العبودية لله وحده تفرض الاهتداء بهديه والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه كما جاءت على لسان الرسل والأنبياء .

« والمسلم الذى تحرر عقله وتحررت نفسه على هذا النحو صار خليفة الله فى الأرض فارتفعت كرامته الذاتية على أمتن أساس وصار قيامه على الفضائل وسعيه الدائب نحو الكمال نتيجة منطقية لهذه الخلافة »[1] .

ولا تكتفى التعاليم العقدية الخلقية فى الاسلام والتى جعل لها الهيمنة الكاملة على التعاليم الاقتصادية والحكومية فى الدولة التى ينشدها الاسلام لمجتمع المؤمنين بمجرد التوجيه الوجدانى الذى يوحى به الإيمان بالله والعبودية له وحده ؛ بل اتجهت إتجاها عمليًا باستكمال مقتضيات هذا التوجيه ، ففرضت العبادات وكلها تدريب على دعم هذه الفضائل فى نفس المسلم وكلها إشعار متجدد للمسلم باتصاله بخالق الكون وإشعار له بالرقابة الإلهية على نشاطه اليومى[2] .

هذا ما توجيه هذه التعاليم للمسلم بإيمانه برسالة محمد ﷺ ، وبأن رسالته خاتمة الرسالات السماوية ، وأنها جاءت لهداية البشر ، ومن إيمانه أيضا بأن الرسالات

---

(١) نظام الحكم فى الاسلام (العربى) ص ٤٢ بتصرف .
(٢) المرجع السابق بتصرف .

السماوية كلها ما جاءت إلا لإقرار العدل فى الأرض ومنع ظلم الناس بعضهم لبعض ، ويحثه هذا الإيمان بالرسالات السماوية كلها ومجيئها لهداية الناس وإقرار الحق والعدل بينهم ، إلى السعى ما استطاع لاحتذاء المثل الرفيعة لهؤلاء الأنبياء ، ويؤمن على الخصوص بالنظم الانسانية التى خلفها الرسول ﷺ ، له وللأجيال التالية حتى تقوم الساعة ويؤمن بأن هذه الدروس والتعاليم التى تركها الرسول ﷺ له فى الدين والدنيا ، إنما هى دروس وتعاليم وجب عليه الايمان بها وتنفيذ ما جاءت به بكل دقة وإخلاص .

وهو حين يؤمن بالله وبالرسول ، وبكل ما جاءت به الرسالات ، يؤمن ضمناً بالبعث والحساب والجزاء ، وسيملأ هذا الايمان دائماً قلبه بإحساس ، أن الله رقيب عليه فى كل حركة من حركاته ، وفى كل عمل يأتيه ، وسيتولد عن إيمانه بالبعث والحساب يقين بأن هذه الحياة ليست إلا مزرعة الآخرة وأنه محاسب على كل ما يصنعه فيها ، وأنه لابد أن يراقب الله فى كل شىء إبتغاء الخير لنفسه ولمجتمعه ، ويتورع عن كل شر مهما كان ، وتتحكم هذه الأخلاقيات الإسلامية فى كل نشاطه .

هذه الأخلاقيات : هى التى كونت المسلم المثالى واستندت عليها جميع تنظيمات الدولة الإسلامية فى الصدر الأول ، سواء كانت تنظيمات إجتماعية أو إقتصادية أو سياسية .

ولعلنا نحس أن ضعف الوازع الدينى عند السواد الأعظم من الشعوب العربية فى الناخب والنائب على السواء ، حال دون استقامة الحكم الديمقراطى فيها وإنتاجه آثاره المرجوه ، فلا الناخب ولا النائب يراقب الله فى أداء وظيفته ، ولم يستطع علماؤهم ولا مفكروهم أن يجدوا إلى الآن علاجاً عملياً لما يقترفه الفريقان من سيئات لاستحالة إثبات اقترافها ، واستحالة تدبير جزاء على هذا

اقتراف ، ولم يبق إلا الوازع الدينى الذى يهيمن على وجدان الفرد فى أداء هذا الواجب ويضطره إلى أدائه ابتغاء وجه الحق وحده ووجه الصالح العام .

والعلاج الذى نقدمه لكل من يبغى النجاح فى حياته كلها هو أن يكون عنده الوازع الدينى الذى يطفى على نشاطه، ذلك الثوب الطهور الأخلاقى الذى نسجته تعاليم الديمقراطية الاسلامية .

ويقول الدكتور محمد عبد الله العربى[1] : « قد يشك بعض الناس فى إمكانية قوة المانع الدينى للحد من جشع الانسان فى طلب الدنيا وإندفاعه الجامح نحو تحقيق المكاسب الذاتية بأى ثمن خصوصا جمع المال وكسبه ، ويتساءلون ما قيمة هذا الوازع إزاء قوة الأنانية القاهرة ؟ .

ونجيب على هذا التساؤل برأى علماء الاجتماع الغربيين أنفسهم فهم يسلمون بأن الناس فى الوضع الذى أصبحوا فيه وهيئوا له منذ طفولتهم إنما يحفزهم إلى السعى والكدح حافز واحد ، هو مصلحتهم الذاتية بغير وزن إلى أى إعتبار آخر ، ألفوا هذا الوضع ودرجوا عليه ، واصطبغ به وجدانهم .

ولكن هذا الوضع نشأ من تأثير البيئة التى درجوا فيها من البداية، بيئة ترفع من شأن خدمة المصلحة الذاتية والنجاح فى مجالاتها ، وتخفض من شأن المصلحة العامة إذا مست المصلحة الذاتية بأى نقص ، ولو انعكس هذا الوضع وساد فى البيئة شعور بواجب توازن المصلحتين ، ودرب الناس على التمسك بتحقيق هذا التوازن من البداية، لاستجاب الناس إليه واتجه حافزهم فى السعى من الأنانية المطلقة من كل قيد إلى التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع » .

---

(١) ديمقراطية القومية العربية ص ١٢٩ .

ويقول الدكتور العربى ، أليس هذا هو بالذات منهج الاسلام التدريبى فيما فرضه من عبادات وغرسه من توجيهات وخلق فى البيئة هذه الإستجابة السيكولوجية وتنميها تنمية مستمرة ؟[1] .

ولقد قلت أن تجاهل علاج مشاكلنا على أساس العلاج الدينى ومحاولة نقل الحلول والاصلاحات التى لجأت إليها الدول الأخرى كما هى دون ما نظر إلى وجهة نظر الدين فيها هو السبب فى عدم الوصول إلى الاصلاح المنشود ، وزاد فيه إيمان المسئولين والمثقفين فى المجتمعات الاسلامية كلها بتطور الفكر الغربى فى النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية واعتباره قمة ما وصلت إليه الانسانية ، وعمق هذا المفهوم فى أنفسهم استعمار الدول الغربية للدول الاسلامية فعلموهم وأفهموهم أن الاسلام مجرد شعائر وعبادات فى حين (أنه دستور للسلوك الانسانى يمتد إلى جميع آفاق حياة الفرد والمجتمع). فلقد ضل المسلمون عندما حسبوا أن الاسلام مجرد دين تعبدي فحسب فى حين أنه أسلوب كامل للحياة وعباداته ذاتها تتصل بتنظيم هذا الأسلوب وتؤثر فى إتجاهاته تأثيراً مباشراً وعباداته تأخذ بيد المسلم وتحثه على السير قدماً فى هذا الطريق المسنون وتهديه كلما ضل عنه أو انحرفت به الشعاب ، وليست الاقتصاديات الاسلامية ممتزجة بما يرتبط بها من أصول أخلاقية وسياسية إلا وجهاً من وجوه هذا الطريق ، الوجه الخاص بماديات الحياة[2] ، بل إنه يجب « أن نقرر فى غير حياء أو مواربة أن الأمة العربية فى أكثر أقاليمها ، مازالت فى كفاية الأداة الحكومية دون المستوى الضرورى لسلامة كيانها القومى ، اضطراب ، وذبذبة فى سياستها الخارجية ، وعجز أو قصور فى سياستها الداخلية ، هذا فى حين أن الاسلام

---

(١) المرجع السابق

(٢) راجع صفحتى ١١٩ ، ١٢٠ من المرجع السابق

ـ دين أكثريتها ـ قد وضع الأصول الأساسية لخير تنظيم حكومى سواء فى الشئون الخارجية أو فى الشئون الداخلية، إدارية ومالية، وفرض على كل جيل أن يلتزم هذه الأصول الأساسية مع تطبيقها تطبيقاً يلائم مستوى بيئته وحاجات زمانه.

ولا حرج علينا ، ولا يتعارض مع تعاليم الاسلام بل نحن مأمورون به أن نقتبس الأوضاع الصالحة المستحدثة التى سبقنا إليها غيرنا مادامت لا تتعارض فى وجودها وأهدافها مع هذه الأصول[1] » .

والغريب أن كثيراً من مثقفينا ، يتصورون ، بل هم يدعون أن الدين هو سبب التخلف الذى تعانى منه المجتمعات الاسلامية ، ولقد قال لى مرة أحد ضباط الأمن (مباحث أمن الدولة) فى أحد لقاءاتى به فى مكتبه بعد استدعائى لسؤالى عن موضوع خطبة جمعة تعرضت فيها لنواحى سياسية واقتصادية ونظرة الاسلام لها :

قال سيادته : ما معناه : لماذا تتدخلون فى الشئون السياسية ، ماذا يفهم رجل الدين فى أمور الحكم والاقتصاد والسياسة؟ لماذا لا يترك كل مجال لأربابه؟ ثم واصل كلامه وقال : إننا لم نتأخر إلا لأن رجال الدين يدسون أنوفهم فى كل شىء ويحاولون تنصيب أنفسهم وصاة على الشعب وعلى الدولة ، ومن الأسف أن الجماهير تستجيب لأفكارهم الرجعية وتؤمن بها ، وهذا من أخطر أسباب تأخرنا عن الغرب الذى ثار على الكنيسة ، وعزلها بعد الثورة الفرنسية عن المجتمع ، وعن التأثير فى مجالاته السياسية والاقتصادية وغيرها ، ثم ظل يشرح وجهة نظره فاسترسل يقول : أن أكبر ما حققته الثورة الفرنسية هى أنها استطاعت أن تحطم أخطبوط الكنيسة التى كانت تساعد الاقطاع وتحكم رأس المال والأمراء والفرسان ، وتقاسمهم الغنائم من دم الشعوب ، لقد حطمت هذا

---

(١) المرجع السابق ص ٧٨ ، ٨٩

الأخطبوط ففكت قيود وأغلال الشعوب الأوربية ، الفكرية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ، فانطلقت وحققت هذه النهضة وهذه الرفاهية التى لم يعرفها البشرية من قبل ، وظل العالم الاسلامى حبيس أفكاره الرجعية فظل على تأخره واستطاع الغرب أن يسيطر عليه ويحتل بلاده ويستنزف ثرواته . وكان هذا تصور السيد ـ ضابط المباحث ـ وتصور الكثيرين والأسف من أبناء المسلمين، ونسى هذا وأمثاله أو جهلوا ، أن تخلفنا عن الغرب ليس بسبب تعاليم الاسلام نفسها ، وإنما بسبب عدم فهمه هو شخصيا وغيره من يدينون للغرب بما بثه فيهم الاستعمار والاستشراق من دعوى تصور الاسلام والدين بصفة عامة عن الوفاء باحتياجات المجتمعات .

نسوا أو جهلوا أن هذا الدين نفسه هو الذى أيقظ أمة من سباتها وكون شعبا كان هملا فى التاريخ لا وزن له فى عداد الشعوب ، وأصبح بتعاليم الاسلام وتربيته وأوامره ونواهيه وتوجيهاته الاصلاحية فى جميع نواحى الحياة، أصبحوا بذلك الدين وما احتواه من نظم وتعاليم رواد حضارة شامخة قائمة على أسس متينة صلبة من الحق والخير لهم وللإنسانية كلها، على غير ما عصبية ولا تفرقة أو أنانية، فنشروا العدل والخير الدنيا كلها، وكانت عصورهم التى أقامها الرسول والخلفاء الراشدون من بعده على هذه الأسس الاسلامية ، هى أزهى عصور البشرية على الاطلاق ، علما وحضارة ورقيا ماديا ورفاهة عيش فى إطار الحق السابغ والخير العميم ، وبسياسة نوازع الأخوة والتعاون على البر والتقوى والمثل الانسانية الرفيعة ، وذلك كله لأن طبيعة التعاليم الاسلامية تقوم على إصلاح الفرد وتربيته للدين والدنيا معاً بل يعتبر الاسلام العمل فى الأمر بالمعروف عبادة من أهم العبادات ، فلا يعرف الاسلام الفصل بين العبادة والعمل .

وما نجح الخلفاء الراشدون إلا بتمسكهم تمسكا متينا بتعاليم الإسلام الكلية في جميع النواحي الخلقية والاقتصادية والحكومية : فلم يعزل إحداها عن الأخرى ، ولم يترددوا في أن يفرعوا عن التعاليم الحكومية ما يلائم إحتياجات عصرهم ومستوى البيئة البدائية التي كان يعيش فيها المجتمع الإسلامي يومئذ .

وما تخلفنا إلا بسبب عدم ترجمتنا لهذه الأصول التي سادت في عصر الخلافة الراشدة ، وظهرت في صيغ بارزة ، وأوضاع ماثلة للعيان ، ومعالم قائمة ، إرتبطت بهذه الأصول إرتباطا وثيقا كان يجب أن يستمر ويدوم ، وربما لطول ترك هذه الأصول وبعد عهدها وعدم ممارسة الأجيال المتعاقبة في الدولة الاسلامية الأولى لعملية استنباط القواعد التنفيذيه والاجراءات العملية لهذه الأصول العامة في نواحي السياسة ، وعدم معرفة الطريقة الصحيحة لهذه الممارسة لمحاولة التوفيق بين هذه الأصول واحتياجات كل عصر ، ربما كان ذلك كله مع محاولة الاستعمار والاستشراق تشويه للمعنى الصحيح ، هو السبب في مصدر هذا التصور الخاطىء للإسلام وتعاليم الاسلام .

وربما كان سببا أيضا في محاولة عبث التفسير لهذه الأصول من المستشرقين والاستعماريين وعملائهم من المسلمين أنفسهم ، أو من تلاميذهم الذين تربوا في معاهد الغرب وغرر بهم ، خصوصا وهم يريدون أن يجعلوا الدول الاسلامية مطية ذلولا لهم ، ويبغون من وراء ترسيخ هذه المعاني في نفوس المسلمين أن يمكنوا لبغي الطغاة محق الحريات وإحلال الأوتقراطية محل الحكم الشورى

والحقيقة أن هذا المفهوم المناقض لواقع النظرة الاسلامية والتعاليم الاسلامية أصبح راسخا في النفوس إلى حد كبير ، حتى أصبح العلاج في حاجة إلى جهود

ضخم لتغير هذه المفاهيم الخاطئة ، ويقع عبؤها على المسئولين من كبار علماء الدين أولا ، وعلى العاملين فى حقل الدعوة الاسلامية والتربية الدينية ثانيا كخطوة أولى للتمهيد لتدريب الأمة على تفهم هذا الوضع وتهيأتهم للناشئة منذ طفولتهم ، حتى يسود فيما بعد فى المجتمع الاسلامى كله شعور بواجب التمسك بهذه التعاليم ، ويدفعهم هذا التدريب المستمر والدعوة دائما إليه إلى فهمه والايمان به والاحساس بفضله .

أثر ضعف الوازع الديني في المجتمع المصري وعلاجه

من الحقائق الثابتة أن ضعف الوازع الديني في أي شعب يؤدي إلى طغيان النزعة المادية في كل نواحي الحياة ، ولو سيطرت النزعة المادية وحدها على الحياة لانحلت عرى الأخلاق وظهرت الأثرة والأنانية في النفوس . وطغيان المادة على القيم الروحية وانهيار الوازع الديني المنبعث من عقيدة الإيمان بوجود خالق لهذا الكون يرقب تصرفات البشر ويجزيهم يوم القيامة على ما يصنعونه في هذه الحياة من شأنه أن يغري الأفراد والشعوب باستغلال ما لديهم من قوة وسلطان للاستئثار بكل منفعة . حتى ولو أدى هذا الإستئثار لشقاء الآخرين .

ولا أكون متجنيا حين أقول : إن شعبنا الآن يعيش فترة هذا الضعف للوازع الديني ، وطغت على كل نواحي الحياة في بلادنا النزعة المادية نتيجة هذا الضعف ، ونتيجة أنهم ألفوه فدرجوا عليه واصطبغ به وجدانهم وأصبح وجود الوازع الديني عند القلة القليلة من هذا الشعب شذوذا وخروجا عن المألوف .

ولقد أصبح الشعور بالواجب ضعيفاً أو غير موجود مع الأسف لدى كثير من موظفي بلادنا ، وأصبحت خدمة الدولة مجرد سبيل للعيش وكسب المال فحسب ، وأصبح كل همهم أن يؤدوا من عملهم . ما يعفيهم من الحساب والمسئولية ، وأما إجادة العمل وإراحة الضمير وإرضاء الذمة لخدمة الجماهير فهي كلمات جوفاء لم تعد تعنيهم في شيء .

وسترى ذلك وللأسف عند الكبار كما هو عند الصغار وتلحظه عند الرؤساء كما تلحظه عند المرؤسين . وأصبح الكثيرون تحت تأثير نزعة مادية طاغية ورغبة جامحة في الاستفادة وجمع المال . وقد دفع الجشع والطمع بعض الناس

إلى أن تمد أيديها إلى الأموال العامة وصغرت نفوس الكثيرين إلى حد قبول حقير الهدايا من ذوى المصالح والحاجات .

والغريب أن كثيراً من الجماهير أيقنوا وهذه حقيقة وللأسف أنه لا سبيل إلى إجابة مطالبهم أو تحقيق حاجاتهم إلا عن طريق المال إن لم يجهوا الجاه والمحسوبية وإلا تعطلت أعمالهم وتأخرت أوراقهم، حتى بدت هذه الطريقة الخاصة والعامة وكأنها أمر طبيعى لا يستوجب السخط ولا يستدعى الاحتجاج والاستنكار

ولو كان هناك وازع دينى وعقيدة ثابتة لعرف الموظف أنه خادم للجمهور وأن له الشرف فى قيامه على المصلحة يتعهدها ويرعاها ، ولعرفوا أن العمل الذى يقومون به أمانة فى أعناقهم يجب ألا يقصروا فيها ويجب أن تؤدى أداء حسناً دون تعويق أو تعطيل ؛ لأن التقصير أو الإهمال فيها خيانة لله والوطن ومهما حاولنا الاكثار من الشرائع والقوانين للحد من هذه المفاسد وأضفنا إلى هذه القوانين ما يفسرها من لوائح وتعليمات . فإن ذلك لا يجدى مع ضعف التربية الدينية والوازع الدينى ؛ وستظل دائماً تحظى بالتعطيل والإهمال أو سوء التأويل وسيصبح عدم الاعتداد بالواجب مع طول الزمن وتمدد هذه الحالة شعار القدامى والناشئين .

ولكن ما هى الوسيلة الناجعة لعلاج هذه الأمراض المتفشية فى مجتمعات المسلمين ومجتمعنا المعاصر على الخصوص ؟

أعتقد أنه لابد من العمل والايمان بضرورة ترابط التعاليم الحكومية الاقتصادية والخلقية (العقدية) ، والتزام النظام الاسلامى الصحيح .

ولن يكون ذلك إلا عن طريق التعليم والتوجيه . والتثقيف فى المدارس والمعاهد والجامعات ، وعن طريق بث هذه الروح فى الشعب بوسائل الاعلام المختلفة .

التعليم والاصلاح

مما لا شك فيه أن الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمعاهد العلمية ليس مجرد التعليم فقط، وإنما هو مع العناية بشأن التعليم تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكن من نيل كمال السعادة أو معظمها، وتربية العقول مقصود بها إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات إلى تصورات ومعلومات صحيحة تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع وبذلك يكون النظر الصحيح هو سجيتها ويصبح عقله بعد ذلك قادرا على الفصل بين الطيب والخبيث .

أما تربية النفس فمقصود منها إيجاد للملكات والصفات الفاضلة في النفس وترويضها عليها وإبعادها عن الصفات الرذيلة حتى يكون المتحلي بها ناشئا على ما يوافق قواعد الاجتماع البشري[1] .

فالانسان لا يكون إنسانا حقيقيا إلا بالتربية ، وكما يقول الامام محمد عبده (ليست التربية الاعبارة عن إتباع الأصول التي جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحكم والتعاليم. وهي عبارة عن السعادة الحقيقية تعلم الانسان الصدق والأمانة ومحبة نفسه فإذا رأى الانسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه)[2] .

ولقد أحسنت الدولة صنعا حين غيرت إسم وزارة المعارف إلى وزارة

---

(١) تاريخ الامام ص ٨٠ ج ٢ بتصرف (محمد رشيد رضا)
(٢) « « « ٤٨٩ ج ٢

التربية والتعليم ولعل تقديم إسم التربية على التعليم أقرب إلى الفائدة والأهمية منه ما لو كان التعليم مقدماً على التربية .

وأحب أن أشير إلى شيء هام قبل أن أتحدث عن التربية والتعليم في مصر وعن مشا كل هذه التربية وهذا التعليم أحب أن أنبه إلى أن الأمم الناهضة المتقدمة ليست هي التي تعتمد على القوانين التي تفرض العقوبات على الجرائم أو أن هذه القوانين هي التي تمنع هذه الجرائم فقد روى لنا التاريخ البريطاني

مثلا رائعاً في الوقت نفسه دل على أن الدساتير والقوانين ليست هي التي تقيم حكما أو تغير من شئون الناس . فقد فشت في لندن منذ قرون جريمة النشل حتى أصبحت خطرا داهما لأمن الناس وأموالهم ، فصدر قانون قضى بعقوبة الموت شنقا على كل من يرتكب لهذه الجريمة ونفذت عقوبة الشنق علنا بهدف الردع فتزاحم الناس في الميدان الذي أقيمت فيه المشنقة ، فانتهز النشالون الذين لم يضع القانون يده عليهم الفرصة وأعملوا أصابعهم الخفيفة ومشارطهم السريعة في جيوب المشاهدين فنشلوا في ساعة ما كانوا يعجزون عن نشله في أيام[1] .

وليس معنى هذا أننا نطالب بإلغاء القانون أو الدساتير، ولكننا نطالب بأساس التشريع الاسلامي الذي هو التربية الخلقية حتى تقوم رقابة الضمير الانساني إن لم تكن بديلا كاملا عن رقابة الدولة بشرطتها وعسسها تكون مساعدة لهذه الرقابة الحكومية في أداء مهمتها ورسالتها ولذلك كان الامام محمد عبده يرى (أن التربية تمهد وتدفع وهي أساس التغيير في عادات الأمة وأخلاقها

---

(١) [آراء حرة في الدين والحياة] فتحي رضوان كتاب الهلال ديسمبر ١٩٦١ ص ٥٤ .

وتوجيهها والقانون يحفظ ويحرس) وحين يريد الأستاذ الامام أن يريد هذا المعنى وضوحا يقول[1] .

(ليست القوانين التى تفرض العقوبات على الجرائم وتقدر المغارم على المخالفات هى التى تربى الأمم وتصلح من شئونها فإن القوانين لم توضع فى جميع العالم إلا للشواذ والهفوات والسقطات وأما القوانين العامة المصلحة فهى نواميس التربية العلمية لكل أمة) .

حين نعرف ذلك ونعرف أن صلاح الأمة مرتبط بصلاح التعليم فيها نحس إلى أى مدى نحن فى حاجة إلى إصلاح حال التعليم فى مصر من أولى مراحله إلى نهاية المرحلة الجامعية حتى يكون التعليم تربية حقيقية توصل إلى ملكات وعادات وتقود إلى توجيه سليم غير مضطرب .

ومناهج التعليم فى بلادنا فى كل مراحلة فى حاجة إلى تغيير كامل شامل مناهج التعليم فى مصر فى حاجة إلى منهج تربوى أساسه الثقافة الاسلامية الصحيحة . إن التعليم فى حاجة إلى معلمين جدد مدربين ، خصوصاً وأن مهمة المدرسة هى إيصال (أنواع المعرفة وأنواع المهارة إلى أذهان التلاميذ) وهذه المعلومات وتلك المهارات هى من صنع عقول الكبار الراشدين .

وقد وضعت هذه المعلومات وفرضت على الطلاب فرضا فيما يسمى بالمناهج . والمدرسة مضطرة لبذل كل جهد ممكن حتى تصل بهذه المهارات إلى الأذهان، ولا بد للمدرس أن يشرح ويبسط ويستعين بأساليب التشويق لتستساغ المادة مع اللجوء إلى وسائل لايضاح لإظهار ما غمض منها . وقد تخرج هذا

---

(١) تاريخ الامام ص ٤٧ ج ٢

المعلم سواء كان معلماً للمرحلة الأولى أو المراحل التالية على مثل هذا النظام الموجود الآن أو شبيه به ، وهو الذى لا يستطيع أن يعطى أكثر مما عرف ووجد عنده

بل أن مدرسى الدين غير متخصصين وهم فى المرحلة الأولى برغم خطورتها وأهميتها لا ينظر إليهم بعين الاعتبار حيث يقوم المدرس أو المدرسة بتدريس كل المواد خصوصا فى السنوات الأربع الأولى الإبتدائية، ويقوم مدرس اللغة العربية ومعظمهم من غير خريجى الأزهر بتدريس مادة الدين فى الإعدادى والثانوى العام والخاص ، وهى مادة غير أساسية فى مناهج التعليم لا يهتم بها المدرس الإهتمام الكافى ، وحين يقوم المدرس بتدريسها يلقى على الطلاب تعاليم الدين دون بيان ارتباطها الحياة ، ومدى تأثيرها فى سلوك الفرد وتكوين إتجاهاته فى الحياة مع أن الدين يتصدى لمعالجة أعوص المسائل وأعمق المشكلات دقة وأوثقها صلة بحياة الفرد ومبدئه ومعاده وقد يتوق الطالب شوقا إلى مناقشة أستاذه فى أمور كثيرة يجدها أكبر أهمية من كل ما يذكره الأستاذ لكنه لا يجد الجواب الكافى عند أستاذه ، بل ربما لا يجد عنده جواباً على الإطلاق ، وقد يخجل المدرس أمام طلابه من عدم إجابتهم على أسئلتهم فيلجأ إلى وسائل الوعظ الكلامى والتلقين وفرض المبادىء الخلقية فرضاً خارجياً مع أنه يمكن لو أحسنا تدريب المدرس أن نبنى هذه التربية عن طريق الإيمان والاقتناع والخبرة التى تتم عن طريق التفاعل الاجتماعى .

والحقيقة أن اختيار المدرس وتربيته هو أهم من المناهج التى يدرسها الطلاب ، هؤلاء الذين وضعوا فى كفالته يدبر أمورهم ويرشدهم إلى كمالهم وليست كلماته وحدها التى يلقيها إلى الطلاب هى التى ستعلمهم وتربيهم ولكنه

(أى المدرس) لابد أن يكون أولا صاحب أخلاق فاضلة وأفكار مستقيمة وعفة ونزاهة وغيرة على نفع كل من وكل أمرهم إليه حتى يكون هو نفسه وكماله درساً آخر يلقيه على الطلاب فى كل يوم فتنطبع هذه الكمالات فى نفوسهم أشد من انطباع المعلومات فى عقولهم وهذا هو المعنى المقصود من التربية .

وفى منشور لنظارة المعارف فى مصر[1] صدر فى عام ١٨٨٠ نرى مدى إهتمام نظارة المعارف حينئذ بتربية الطلاب تربية دينية عملية ومدى عنايتها بقيام الأساتذة بأداء الصلاة أمام التلاميذ والتشديد على المعلمين والنظار بتنفيذ ذلك والإهتمام به وحث التلاميذ المسلمين على الصلاة وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد مدرسى القرآن الكريم أو النحو فى المكان المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة أو المسجد القريب إن لم يكن هناك مكان معد لذلك فى مكان الدراسة .

يقول المنشور[2] :

(قد علم من جداول الامتحان العمومى المقدمة إلى ديوان المعارف وما معها من النتائج والملحوظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الإمتحان وأعضائه أن بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الإسلام المندرجة فى المسامرة الخامسة والعشرين من كتاب التمرين حسب المقرر فى الصحيفة الثالثة من ترتيب دروس المكاتب الأهلية والمدارس الملكية الابتدائية ، مع أن معرفة قواعد الاسلام بالنسبة لأطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ولا يجوز إغفاله فى حال من الأحوال مطلقاً ، فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة (خوجات)

---

(١) اريخ الامام ص ٨٢ الجزء ثانى .
(٢) « « « « « «

القرآن مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم بحيث يحفظونها عن ظهر القلب ويفهمون معناها فهماً جيداً ويعرفون كيفية أدائها على أكمل وجه فى الفرقة المقررة عليها قراءتها فى الترتيب المذكور، وهى الفرقة الثالثة من كل مكتب ومذاكرتها لهم كل سنة فى كل فرقة يترقون إليها حتى لا ينسوها، وإذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم يسبق لها قراءتها فى تلك الفرقة يجدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر فى الفرقة التى هم بها بمعرفة خوجة النحو، إذ من بعد الآن لا يرخص بترقى التلامذة من فرقة إلى أعلى منها من إبتداء الفرقة الثالثة إلى أعلى فرقة إلا بعد التحقق بالامتحان من معرفتهم للقواعد المذكورة . حفظا وفهما وعلما . وعملا . ويكون من أخل بشىء من ذلك من الخوجات المنوطين به تحت المسئولية الشديدة ، ويشترك معه فى هذه المسئولية ناظر المكتب أو المدرسة إذ يتحتم عليه رعاية القيام بما ذكر ويجعل لذلك (خانة) مخصوصة فى جداول الامتحان العمومى والامتحانات التى تحصل فى أثناء السنة ويعطى فيها (نمرة) كسائر الدروس، وكل هذا بالنسبة لأطفال المسلمين خاصة وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلاميذ على الصلاة من السن الذى يؤمرون بها فيه شرعاً مع دوام وعظهم فى ذلك وترغيبهم فيه وتحريضهم عليه ونهيهم عن تركها والتكاسل فيها ، وعلى ناظر المكتب توعية ذلك وترتيب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لأداء الصلاة مع الحث منه للتلاميذ عليها وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف أو النحو فى المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة إن كان موجوداً . فإذا لم يكن موجوداً ففى مسجد قريب . فإن لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد مسجد قريب فعلى الناظر المبادرة بالعرض إلى الديوان عن تحديد محل للصلاة غير إرسال رسمه ، بمقايسته وتكاليفه ومع أداء الصلاة فى موضع يستحسن لذلك ولو فى حوش المكتب أو المدرسة مؤقتاً إلى أن يتم إنشاء المحل المطلوب .

وإذا لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل يبادر كذلك بالعرض للديوان عن اللازم مع بيان القياس المطلوب ، وقد كتب بما ذكر إلى النظار عموما وهذا لحضرتكم للإجراء على الوجه المشروع بغاية الإهتمام والحذر من التهاون فيه بعد الآن[1] .

وهذا المنشور الذى صدر منذ أكثر من ٩٠ عاماً يصور لنا إلى أي مدى كان التشديد فى التعليم والتربية فى مصر والإهتمام بالأخلاق وبتعويد النشء على الأخلاق الفاضلة عن طريق ممارستهم إقامة الشعائر الدينية ولا نغالى حين نقول : إن عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية عند الناس هى السبب فى انتشار الفقر وظهور الفساد .

ويقول الإمام محمد عبده : (والسبب فى فقر البلاد وعدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التى تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلاده وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضرار ذاته وإن لم تقل تجعل الإحساس الأول أقوى من الثانى وتزيد فى إحساس الإنسان بمنافعه ومضاره)[2] .

ولقد كان الإمام محمد عبده يدعو إلى إصلاح حال التعليم ويحاول أن يفتش عن العلاج الحاسم لتحقيق هذا الإصلاح فحدد الإصلاح بأنه « إستعادة الروح الجماعية والروح القومية والروح الاسلامية والانسانية العامة وحدد العلاج تبعاً لذلك بالتنشئة الدينية وقيام المرحلة الأولى من مراحل التعليم على التعاليم الاسلاميه[3] .

---

(١) تاريخ الإمام جـ ٢ ص ٢ ، ٨٣ .
(٢) « « « « ١٤٤ ، ١٤٥ .
(٣) الفكر الإسلامي الحديث (البهى) ص ١١٦

ويقول الدكتور محمد البهى[1] : « ولكنه مع ذلك لم يرد أن يقصر هذه المدرسة على هذه التعاليم . بل جعل هذه التعاليم أساسا رئيسيا فى منهج المدرسة على أن تضاف إليه بقية العلوم والصنائع التى تنفع الناشىء فى حياته وتجعله لا يقل عن الغربى فى سيطرته على الحياة » .

وقد عرف رجال الاصلاح فى كل عصر أن إصلاح حال التعليم هو أهم الوسائل لتطوير الأمة ورفع شأنها ومكانتها ولذلك رأينا عبد الرحمن الكواكبى يدعو فلاسفة التربية ورجال التعليم إلى إقنـــاع الشباب والناس عموماً . والاعتماد على التشويق كسبيل لهذا الاقتناع، والاقتناع بدلا من صب المعلومات فى عقول ونفوس لا تريد استيعابها بأى حال من الأحوال . وهو يحكي رفي ذهنه كل المجتمع لا المدارس فقط فيقول[2] : « أجمع علماء السياسة والأخلاق والتربية على أن الاقناع خير من الترغيب فضلا عن الترهيب . وعلى هذه بنوا قولهم إن المدارس تقلل الجنايات لا السجون ، ووجدوا أن القصاص والمعاقبة قلما يفيدان فى زجر النفس كما قال الحكيم العربى :ـ

لا ترجع النفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

والكواكبي يرى أن التعليم هو الذى يغير الأفكار . ويدعو إلى التخصص فى مراتب التعليم بمعنى التدرج والتمايز على أساس من تدرج مراتب المعلمين والمتعلمين .

وهو يرى أن التعليم لا يجب أن يكون قاصراً على المدارس وحدها ولذلك جعل المتعلمين والمعلمين على أربع مراتب :ـ

---

(١) المرجع السابق ص ١١٦ ، ١١٧ .
(٢) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى (محمد عمارة ص ٨٧)

(١) العامة :

ومعلموها أئمة المساجد والجوامع الصغيرة .

(٢) المهذبون

ومعلموهم مدرسوا المدارس العمومية والجوامع الكبيرة .

(٣) العلماء :

ومعلموهم مدرسوا المدارس المختصة للعلوم العالية .

(٤) النابغون :

ومعلموهم الأفاضل المتخصصون[1] .

ويلفت الكواكبي الأنظار إلى ضرورة التخطيط للتربية والتخير الواعي لأنواع العلوم والمعارف التي يربى بها الشباب . وضرورة الاهتمام بالعلوم والمعارف التي تمثل الأسلحة التي تحتاج إليها الأمة في المرحلة الراهنة من حياتها كما يدعو إلى تخصص المدارس والمدرسين لنوع واحد أو نوعين من فروع التعليم ليوجد في الأمة كما يقول أفراد نابغون متخصصون[2] .

والامام محمد عبده برغم منفاه في بيروت وبعده عن بلده ووطنه . كتب إلى شيخ الاسلام في الأستانة في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٠٤ هـ ، ينصح ويبدى رأيه في إصلاح حال التعليم في الدولة ويرى ضرورة الإصلاح حتى يحقق الغرض منه ، وذلك بعد أن صدرت أوامر الخليفة العثماني بتأليف لجنة علمية تحت رئاسة شيخ الاسلام لاصلاح جداول الدروس بالمدارس الاسلامية في جميع بلاد الدولة .

(١) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ص ٨٧

(٢) المرجع السابق :

كتب الامام إلى شيخ الاسلام ووقع معه على ما كتبه بعض وجهاء المسلمين فى بيروت يتحدث عن رأيه فى التعليم وإصلاح حال التعليم بالتفصيل بل وبعد أن ينتقد مناهج الدراسة وتقصيرها فى التعليم الدينى مما تسبب عنه تخلف المسلمين بسبب هذا الاهمال. نراه يبدى رأيه فيما يجب أن تكون عليه الدراسة فى التعليم الابتدائى والكتب التى يمكن تدريسها فيه .

ويتحدث عن التعليم المتوسط وما يمكن أن يدرس لهم فيه والتعليم العالى والفنون التى يجب أن يجيدوها وهو فى كل المراحل يطالب بالتركيز على التعليم الدينى ويطالب بتدريس العقائد والأخلاق وتاريخ الدولة الاسلامية الأولى إبتداء من التعليم الابتدائى . ويقترح لذلك ما يراه لكل مرحلة من مراحل التعليم التى قسمها إلى ثلاث مراحل[1] :

(١) الابتدائى (٢) المتوسط (٣) العالى .

ثم يتحدث عن الدعاة والمرشدين وما يجب أن يكونوا عليه من الأوصاف . (وأرجىء رأى الامام فيه إلى الفصل الخاص برسالة المسجد فى العصر الحديث) لاتصاله به .

ولقد كان رأى الشيخ محمد عبده أن التعليم بالمدارس الأجنبية أخطر على العقيدة وعلى الدين من خلو المدارس الاسلامية من التعليم الدينى فيقول : أن سبب انتشار هذه المدارس فى بلاد المسلمين هو الضعف الدينى عندهم[2] .

ويقول : « فلا نرى بقعة من البقاع إلا فيها مدرسة للأمريكانيين أو اليسوعيين أو العذارية . أو الفرير . أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية

---

(١) راجع تاريخ الإمام من ص ٥٠٥ إلى ٥٢٢ ج ٢

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٧

الأوربية. والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم إلى تلك المدارس طمعا في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم . أو تحصيلهم بعض اللغات الأوربية التي يحسبونها ضرورة لسعادتهم في مستقبل حياتهم . وهو يرى أن دخول أولاد المسلمين إلى هذه المدارس الأجنبية في سن السذاجة والطفولة يجعلهم يقبلون ما يلقى إليهم من عقائد فاسدة وآراء باطلة . ويؤمنون بما يناقض عقائد الدين الإسلامي . وما يخالف أحكام الشرع . حتى إذا ما إنتهى تعليمهم أصبحوا وقد خلت قلوبهم من كل عقد إسلامي . وأصبحوا كفاراً تحت ستار اسم الإسلام . ويصير ولاؤهم لهؤلاء الأجانب . وتنجذب أهواؤهم إليهم ويجارونهم في أفكارهم ومعتقداتهم ويكونون طوعا لهم فيما يريدونه منهم[1] .

هذا الذى كان يدعو إليه عبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده . وما كان يراه الكواكبي من ضرورة التخصص وإصلاح حال المعلمين والمتعلمين على السواء والذى كان يدعو إليه الشيخ محمد عبده من ضرورة الإهتمام بالتربية الدينية في مدارس التعليم المختلفة . وتنقية الدين مما شابه من ضلالات وتحريف. والتنبيه إلى خطورة التعليم في المدارس الأجنبية التي تشرف عليها الحكومات الغربية . والتي تمولها جمعيات وهيئات دينية . هو ما أحب أن أنبه إليه الآن في عصرنا الحاضر وما أدعو إليه .

فمناهج التعليم في جميع المراحل التعليمية خالية من التربية الدينية الحقيقية. ومايدرس الآن في مدارسنا . لا يمكن أن نسميه تربية دينية وليست التربيه الدينية التي أعنيها هي : ـ مجرد آيات أو سور صغيرة من القرآن نلقيها إلى

---

(١) المرجع السابق :

الطلاب فيحفظونها دون فهم لبيان مدى إرتباطها بالحيـــاة ومدى أثرها فى إتجاهات الفرد وسلوكه .

وإنما التربية الدينية التى نعنيها هى دراسة الفضائل والأخلاق الإسلامية وتعويد الطلاب عليها . ودراسة السنة النبوية والتاريخ الإسلامى وتعود الطلاب على حفظ القرآن والحديث ، لا مجرد حفظ بدون تعبد ، وإلا أصبحت التلاوة عملا آليا ، وإنما لابد من استثارة شوق الطلاب إلى فهم للمعانى ولفتهم بين آونة وأخرى إلى تذوق ما فى الآيات أو الأحاديث من جمال وقوة وتأثير .

فى المراحل الأولى من التعليم خصوصا فى الإعدادى والثانوى ، فيجب أن نسمح للطالب أن يفضى إلينا بما عنده من أسئلة ومشكلات ، لنجعل منها موضوع بحثنا ، ولن نعـــدم السبيل فى وجود وسيلة تطبيق ما يريد طلابنا الوصول إليه وما تطلبه المناهج .

ولعل من أسباب ضعف التعليم الدينى عندنا وعدم الوصول به إلى ما نرجوه له من تدريب وتعليم للأخلاق والفضائل ، إن معظم مدرسى الدين وهم غير متخصصين يقدمون الدين وتعاليمه للتلاميذ خصوصا فى عهد الطفولة (المرحلة الأولى) بعد تصوره لهم تصويرا ساذجا أو قاصرا متأخرا لا يستطيع أن يجارى مراحل النمو العقلى التالية، مما لا يكون سببا فى وضع ما تعلموه فى المرحلة الأولى ، موضع الفحص والنقد نمو قواهم العقلية واشتداد نزعة النقد عندهم مما يسبب فى كثير من الحالات ظهور شك أو جحود فى مرحلة الشباب ، نتيجة القصور الذى صاحب عرض العقائد والأحكام الدينية من قبل مما يسبب عند التلاميذ آلام نفسية يورثها الشك والهزات الروحية التى ترافق حالات الجحود أو تضعضع الإيمان .

ولعله من الأوفق بنا أن نضرب مثلا بما يمكن أن تسير عليه خطوات تدريس القرآن الكريم مثلا :

أولا : يجب أن يراعى ضرورة مشاركة الطلاب فى تلاوة الآية القرآنية والحرص على أن تكون هذه التلاوة بغرض الوصول إلى المعانى الموجودة فيها والتأثر بها .

« والقاعدة التربوية الصحيحة التى يجب أن يضعها المدرس فى اعتباره أنه لا يجوز أن يتلو الإنسان مالا يفهم ولا يجوز تقريبا أن يعتاد الطالب أن يتلو من غير فهم . لأن هـــذا النوع من التلاوة يكون لدى الفرد عادة الإكتفاء بالألفاظ وعدم التفكر . فى المعانى وهذه عادة سيئة جدا فى تكوين الفرد الفكرى »[1] .

ويجب أن يكون الغرض الأول من تلاوة القرآن وتفسيره ان تمتلىء قلوب الطلاب بسحر كتاب الله وقوة بيانه والتأثر العميق بعظمته وسلطانه . والاستماع بقلب واع لأوامره وزواجره والاستجابة لهديه وإرشاده حتى لا تتكون لدى التلاميذ عادة تلاوة كتاب الله وعقولهم غافلة وقلوبهم لاهية ، خصوصا وأن التلاميذ فى هذه السن تتكون لديهم العادات بالممارسة ، ويجب أن تشيع فى أرجاء قاعدة الدرس فى حصة التفسير والتلاوة روح الإكبار للآيات المتلوة والخضوع لها ولتأثيرها ، ولا يتم ذلك إلا إذا عالج المدرس نفسه أولا ، وحاول غير متكلف أن يخشع لكلمات الله وتتأثر بها نفسه ، وعند ذلك تسرى عدوى تأثره الصادق إلى نفوس طلابه تبعاً لقوانين المشاركة العاطفية وتكون قوة السراية موازية لصدق المدرس وقوة إستجابته[2] .

---

(١) لمحات فى وسائل التربية الإسلامية وغاياتها (د : محمد أمين المصرى)
(٢) المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ بتصرف

ثانياً : يجب أن يجعل المدرس من معالجة النص القرآني موضوعاً يثير شوق التلاميذ ويجذب إنتباههم ، ليجد فى تفهمه حلا لمشكلة من المشكلات التى تواجهم فى حياتهم ، فالمبادىء التى يدعو إليها القرآن ، هى مبادىء يراد منها : تكوين أمة فى أفرادها وجماعاتها ، تكوينا مثالياً قوياً رصينا تحمل به رسالة إلى الإنسانية كلها وتصمد به أمام الصعاب والشدائد .

ولن يجهد المدرس فى وجود أمثلة كثيرة لهذه المبادىء فى القرآن الكريم. كبناء الإيمان بالله على التفكير والنظر فى الكون ، وبناء الأحكام الشرعية على مصالح الناس . ودعوة الناس إلى التآخى والمساواة ، ومحاولة نزع الخرافات والأوهام من العقول ، وغير ذلك من مبادىء وموضوعات تعد بالعشرات والمئات .

ويحاول المدرس الاستيثاق من أن طلابه قد أحاطوا بدقائق النص فيكلفهم بالإجابة عن أسئلة لا يمكن الاجابة عنها إلا بعد الفهم الدقيق ، ومثل ذلك يمكن أن يتبع بالنسبة لأحاديث الرسول ﷺ .

أما عند تدريس السيرة والتاريخ الإسلامى ، فيمكن التركيز على الرسول والخلفاء ، وإثبات مدى إرتباط الدعوة بالدولة ، والتركيز على أن العبادات التى فرضها الإسلام على المسلمين ليست إلا عوامل أساسية فى تكوين شخصية الفرد . وأنها وسائل وليست غايات يرجى منها الثواب الأخروى .

وعند دراسة الأخلاق الإسلامية يجب أن يدرس لهم : أم الفضائل الخاصة بأدب النفس ، كالحياة ، والحلم ، والصدق ، والمروءة ، كالكبر ، والإعجاب ، والكذب ، والجزع ، والحسد ، والمنافسة . وغير ذلك والتنبيه على البدع المستحدثة لا التى ليس لها أصل فى الكتاب أو السنة ، وظهر ضررها بين الناس

على أن يراعى الاستدلال بآيات الكتاب وأحاديث السنة ، مع التأييد بأعمال السلف الصالح من الأمة .

ويمكن أن يوضع لطلاب الإعدادى والثانوى كتاب مختصر فى العقائد الإسلامية المتفق عليها عند أهل السنة على أن يراعى فى الاستدلال عليها ذكر الأدلة الاقناعية قريبة المنال ، دون التعمق فى هذه الأدلة ، وعلى أن يراعى الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة وأن يراعى أن تكون هذه العقائد مما إتفق عليه عند أهل السنة وبلا تعرض للخلافات بين الطوائف الاسلامية .

وعند دراسة التاريخ يجب أن يركز على السبب فى إنتشار الاسلام فى سنواته الأولى فى العالم فى وقت قصير برغم قلة أتباعه وكثرة معارضيه وقوتهم، بالحديث عن فضل العرب والاسلام على العالم . وهو ماشهد به الأعداء أنفسهم .

هذا : بالنسبة لبعض ما أقترحه من مواد بالنسبة للمدارس الاعدادية والثانوية بجميع أقسامها ، على أن يدرس شىء من ذلك للصفين الخامس والسادس الابتدائى .

على أنه يجب أن يراعى أن ما يدرس من هذه المواد فى الثانوى يجب أن يكون بتوسع ، وفيه من الاستنتاجات العقلية والفكرية ، ما ينمى عقول هؤلاء الشباب وأن يكون التأليف فى هذه المواد بعبارات وأسلوب يتناسب مع مستوى الدارسين .

أما اللغة العربية فيجب الاهتمام بقواعدها بتقسيم فروعها من بلاغة وأدب وقواعد وإنشاء وغير ذلك إلى مادتين على الأقل، ويكون النجاح فيهما بالحصول على نسبة ستين فى المائة ، على الأقل ، حتى يهتم الطلاب باللغة العربية ولا يقصرون فى أحد فروعها باعتمادهم على فرع أو فروع أخرى منها .

بل يجب أن يلتزم مدرسو جميع المواد شرح دروسهم للطلاب ومخاطباتهم مع بعضهم ومع الطلاب فى خلال فترة الدراسة بالمدرسة باللغة العربية ونبذ التعامل باللغة العامية . وتعويد التلاميذ على ذلك فى مختلف المراحل التعليمية حتى يعتاد الطالب والمدرس على النطق الصحيح السليم . وتظل اللغة العربية محتفظة بمكانتها بين اللغات .

عند ذلك يصبح النطق باللغة العربية الصحيحة عادة عند الجميع .

ويجب أن تكون هذه المواد إجبارية فى جميع مراحل التعليم الابتدائى والاعدادى والثانوى .

ولا يكفى فى تعليم الدين أن تكون له جامعة كالأزهر وما يتصل به من معاهد فإن قصره على الأزهر والمعاهد الدينية يجعل تربيته العالية فى طائفة من الناس خاصة .

والخير فى أن تكون روح للدين سارية فى نفوس الأمة قاطبة ، تمسها فى جميع الأفراد ليكون ذلك مدعاة إلى الائتلاف والاتحاد الذى هو أساس كل نهضة. وكل عمل إجتماعى يقام على غير هذا الأساس ، ينقلب إلى فساده ولا يكفى أن ينص فى دستور البلاد على أن الدين الرسمى هو الاسلام بل يجب أن يكون للتعليم الدينى فى مدارسها شأن لا يقل عن شأن غيره من العلوم النافعة ، خصوصا وأن جامعة الأزهر الآن ومنذ تطويرها فى ١٩٦١ تقبل بين طلبتها الحاصلين على الثانوية العامة .

ولا يعقل أن ينتسب للأزهر (حامل رسالة الدين) من لا يعرف شيئا عن الدين .

والحقيقة أن هذه مشكلة موجودة حالياً فى كليات جامعة الأزهر النظرية والعملية ، بل إن بعضا من طلاب كلية أصول الدين من الحاصلين على الثانوية

العامة تخرج بالفعل من الكلية ومن قسم الدعوة والارشاد الذى أنشىء ليحمل المتخرج منه ، رسالة الدعوة إلى الله ، ويؤم الناس فى الصلاة ويستفتى فى أمور الدين وأعرف شخصياً بعضاً من هؤلاء تخرج بالفعل من قسم الدعوة ومن غيره من أقسام الكلية ، وهم لا يعرفون بعض البديهيات فى الدين ، وربما يقل مستواهم العلمى عن مستوى طلبة الابتدائى الأزهرى منذ عشر سنوات .

لذلك فإنى سأعقد فصلا مستقلا عن الأزهر وتطويره لنرى هل أفاد التطوير أم لا ، ونقدم ما نراه للإصلاح الحقيقى المنشود ليؤدى الأزهر رسالته كاملة ويظل الحامل دائما لمشعل الحضارة والنور والحامى لحمى الدين .

تاريخ الأزهر

بدأت الدراسة فى الأزهر فى أواخر عهد المعز لدين الله حيث جلس قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان فى شهر صفر سنة ٣٦٥هـ بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت وهو المسمى بكتاب (الاختصار) فى جمع حافل فأثبت أسماء الحاضرين فكانت هذه أول حلقة للدراسة بالأزهر[1].

لقد تأخرت الدراسة فى الأزهر بعد إفتتاحه للصلاة بأربع سنوات وذلك لحرص الفاطميين على استقرارهم السياسى بعد أن خافوا مقاومة أفكارهم الدينية فى مصر كما قومت فى شمال أفريقيا حيث اصطدمت بعدد من الثورات فى أماكن مختلفة وقد ظلت هذه الثورات مشتعلة عشر سنوات كاملة من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٣٣٦ هـ . ومع أن الفاطميين أخمدوا هذه الثورات فى النهاية إلا أنه بسببها لم يتمكنوا من نشر التشيع فى شمال أفريقيا على النحو الذى أرادوه وقد دلهم هذا حتى يتم لهم الإستقرار السياسى أن يتنازلوا عن بعض معتقداتهم المذهبية ويقللوا من تحمسهم لها وهذا ما يعلل اعتدالهم فى مصر فى بدء عهدهم خصوصا وأنهم قابلوا فيها جماعات منشقة ظهر أنها لم تقبل بسهولة كثيرا من مبادىء الشيعة ولذلك حصل المصريون على عهد مكتوب من جوهر الصقلى بترك حرية العقيدة واتباع المذهب الفقهى الذى يريدونه .

---

(١) إعتمدت فى هذه المعلومات عن الأزهر وتاريخه على كتاب (الأزهر . تاريخه وتطوره) مطبوعات وزارة الأوقاف وشئون الأزهر سنة ١٩٦٤ وذلك من أول الفصل الرابع إلى الفصل التاسع من الباب الثالث من الكتاب والخاص بالتربية والتعليم ص ٢٠٩ إلى ٣٠٧ .

من أجل ذلك إكتفى الفاطميون فى بدء وجودهم بمصر باتخاذ الأزهر مسجداً رسمياً يقوم فى حاضرتهم الجديدة دون أن يحاولوا منافسة حلقات الدراسة بجامع عمرو وبجامع ابن طولون حتى يستقر وضعهم السياسى فى مصر .

وقد بدأ الأزهر ببدء التدريس فيه سنة ٣٦٥ هـ صفحة جديدة وتاريخا طويلا لم يتح لسواه من المؤسسات العلمية فى العالم وأصبح من ذلك العهد البعيد شعلة نور غلبت ظلام الجهل وقاومته .

وقد جاء على مصر عهد لم يكن فيها من منبع للعلم والنور غير الأزهر وجاء على مصر عهد لم يبق بها إلا الأزهر يحمل مشعل الحرية والنضال والجهاد .

وقد توالت الحلقات العلمية التى عقدها بنو النعمان وهم من أكابر علماء المغرب الذين اصطفتهم الخلافة الفاطمية وجعلتهم دعاتها وألسنتها الروحية فلحقوا بها فى مصر واستأثروا فى ظلها برياسة القضاء زهاء نصف قرن

ومن الطبيعى أن يدرس بالأزهر الفقه الشيعى فدرست كتب ألفها بعض الفقهاء فى فقه الشيعة ودرست فيه دروس الحكمة وظل كذلك طيلة عهد الدولة الفاطمية لكن لم تقتصر العلوم الدينية التى كانت تدرس بالأزهر على المذهب الشيعى ، وإنما درست به علوم دينية أخرى دون التقيد المطلق بالقيود المذهبية واقتصرت دار الحكمة التى بناها الحاكم على تعليم علوم الشيعة وعقائدها والتقيد بجميع قيودها المذهبية فدرست فى دار الحكمة بجانب علوم أهل البيت علوم اللغة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة ثم اتجهت هذه العلوم بعد ذلك نحو الأزهر عندما تدهورت دار الحكمة وانحدر إليه أغلب تراثها .

وقد حفل العصر الفاطمى بجمهرة من العلماء النابغين كان لهم أو لأكثرهم نصيب فى نشاط الأزهر وتعمير حلقاته ومن هؤلاء غير بنى النعمان ابن زولاق المؤرخ سنة ٣٨٧هـ وابن يونس المنجم سنة ٣٩٩هـ والمسبحى المؤرخ سنة ٤٣٠هـ

والقضاعى الفقيه المحدث سنة ٤٥٤هـ وغيرهم من الفقهاء والمؤرخين والفلاسفة

وبرغم أن صلاة الجمعة فى الأزهر أبطلت فى عهد الأيوبيين بعد أن أفتى قاضى القضاة عبد الله بن درس بعـــدم جواز إقامة الجمعة فى مسجدين ببلد واحد . وقصرت الصلاة على جامع الحاكم لإتساع رقعته ، إلا أن هذا لم يبطل صفة الأزهر الجامعية ، وظل محتفظاً بصفته كمعهد للدرس والقراءة ، وظل مقصد العلماء البارزين .

وقد كان موسى بن ميمون طبيب صلاح الدين الخاص يلقى فى الأزهر بعض دروس فى الرياضة والفلك والطب . وكذلك وفد إلى مصر فى عهـــد الدولة الأيوبية ، عبد اللطيف البغدادى ، وتولى التدريس بالأزهر عدة سنوات حتى وفاة الملك العزيز بن صلاح الدين، وكان يلقى فيه دروس فى علم الكلام والبيان والمنطق وأحيانا فى الطب ، وأصبح الأزهر فى أواخر العصر الأيوبى، مسرحا لنشاط جمهرة من أعلام الفكر والأدب، لابن الفارض، وجلال الدين السيوطى، وشهاب الدين السهرودى ، والمؤرخ شمس الدين بن خلكان وغيرهم .

وطبيعى أن يختلف منهاج الدراسة فى عصر الأيوبيين عنه فى العصر الفاطمى فقد أدخلت المذاهب الأربعة فى الأزهر . وعين لكل مذهب شيخ كان له الإشراف الكامل على الطلاب الذين يتبعون مذهبه .

ومع أن الأيوبيين أنشأوا مدارس أخرى غير الأزهر لدراسة الفقه على مذاهب أهل السنة واعتنوا بها وزودوها بالمدرسين والكتب . وأغدقوا على طلابها الدل رغبة منهم فى القضاء على التشيع فى مصر . إلا أن الأزهر ظل برغم ذلك مقصداً للطلاب الغرباء من كل صوب حتى بلغ الذين يقطنون فى أروقته فى أوائل القرن الثامن زهاء ٧٥٠ طالبا ، وذلك لاتساع مجال الدراسة فيه وتنوعها .

وفى عهد المماليك وهم سنيون أرجع سلاطين المماليك الأزهر إلى نشاطه العلمى الواسع واعتنوا به وأعادوا إليه خطبة الجمعة وشجعوا الدراسة فيه وكانت الظروف فى عهدهم تدفع بالأزهر إلى القمة . حيث هيأت أحداث العالم الإسلامى آنئذ ، لمصر وللأزهر ، أسمى مكانة بعد أن اكتسح المغول الجانب الشرقى للعالم الإسلامى ، وهدموا فى السنين القليلة مدينة بناها المسلمون فى قرون ، وكان الجانب الغربى فى الأندلس وشمال أفريقيا فى مقهقر مستمر إنتهى بسقوط الأندلس فى يد الإفرنجة ، بل امتد أعوانهم إلى الشمال الأفريقى فأسقطوا بعض مدنه وهددوا سواحله .

ووقفت مصر فى منتصف الطريق تستقبل النازحين من هنا ومن هناك ، وتستخلص الكتب التى نجت من هول الحريق والدمار ، وتفسح صدرها للعلماء الذين فروا من العسف والعدوان ، وتركزت آمال المسلمين فى مصر وآمال الفكر الإسلامى فى معاهد القاهرة ، وبخاصة الأزهر .

وقد سجل العلماء المصريون والوافدون إلى مصر بالأزهر أزهى عصوره خصوصاً بعد أن أوقع المصريون بالمغول وتشتت شملهم فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ سنة ١٢٦٠ م

وقد نهض بمهمته التى ألقتها عليه الأقدار خير قيام وغذاه سلاطين المماليك بالمال والتأييد .

فقد برز اسم الأزهر للعالم الإسلامى فى هذا العصر كجامعة إسلامية عظمى وجدد المماليك فى مبانيه ، وأوقفوا عليه بعض الممتلكات واستردوا له كثيرا من أوقافه التى اغتصبها الناس ، وبنى السلاطين مجموعة من المدارس ألحقوها بالأزهر ، كانت كلها عالة عليه تأخذ منه وتستمد علماءها من خريجيه وأساتذته ويوجهها الأزهر توجيها علميا ، وكانت تعتبر بالنسبة للأزهر أفرعاً صغيرة ،

ويمثل هو المدرسة الأم أو الجامعة الإسلامية الكبرى التى لا تنافسها أية جامعة أخرى ونتيجة لتقدم الأزهر فى هذا العصر ظهرت بمصر مجموعة من العلماء الأفذاذ الذين قادوا الفكر فى مختلف فروعه الإنسانية والإسلامية .

ولو حاولنا مطالعة تراجم الأعلام والمفكرين الذين ظهروا بمصر فى هذه الفترة وهم كثيرون وممن لازالت أسماؤهم ومؤلفاتهم ، تتردد على الألسنة ، لاتضح لنا تلون الدراسات بالأزهر فى هذه الحقبة ما بين فلسفة وأدب واجتماع وعقائد وتاريخ ونقد بالاضافة إلى العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية والرياضة والفلك والطب والموسيقى .

ويكفى أن أشير إلى بعض أسماء فقط ممن ظهرت فى هذه الفترة من تاريخ الأزهر منهم البوصيرى ، وابن هشام ، تقى الدين السبكي ، صفى الدين الحلى ، ابن عقيل البلقينى ، الدميري ، القلقشندى ، المقريزى ، ابن حجر العسقلانى ، السيوطى ، وابن خلدون ، وابن بطوطه ، وغيرهم كثير .

وحين دخل العثمانيين إلى مصر وأصبحت مصر إحدى الولايات العثمانية تدهور حال الأزهر وانحدر ، خصوصا بعد أن قبض السلطان ، سليم الأول العثمانى على عدد كبير من العلماء والقضاة وأرسلهم قسرا إلى القسطنطينية وامتدت يد السلطان إلى التراث العلمى من كتب ومخطوطات جمعها من المساجد والمعاهد ودور الكتب وبعث بها إلى بلاده .

ومعروف أن العثمانيين أرادوا أن يكسروا شوكة مصر بإضعاف هيبتها ، حتى يعيشوا هم فى سلام فى العالم الإسلامى ، وهذا يفسر لنا ألوان الظلم والقسوة التى أنزلها العثمانيون بمصر التى كانت مركز القوة ومركز الفكر قبل ذلك بعدة سنوات حتى أن المؤرخين يرون أن الفتح العثمانى بمصر وما إرتكبه من تخريب وتدمير كان قريب الشبه بفتح التتار لبغداد قبل ذلك بقرنين ونصف ، وقد

انصرف الأزهر فى هذه الفترة عن دراسة العلوم العقلية ولم يبق به إلا بصيص مناسب من الدراسات الدينية واللغوية فاستكان العلماء فى هذه الفترة، وعكفوا على كتب لا روح فيها وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلوا طرق التفكير الصحيحة وماجد فى الحياة من علوم وما ظهر فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنه ونقموا هم على الناس .

ولم تظهر لهم كتب مؤلفة ، وإنما راحوا يشرحون الكتب ويكتبون الحواشى عليها والشروح واهتموا باللفظ والمناقشات الحرفية وشغلوا أنفسهم بالفروض والاحتمالات الوهمية التى لا تقع وانتشر بين علماء الأزهر القول بتحريم دراسة العلوم العقلية بل نسبوا الكفر إلى من يطالعها ويعتنى بها .

وظل الحال على ذلك حتى حضر السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر ووجه الأذهان للفكر الحديث .

ومع ذلك فقد أسدى الأزهر للعالم الإسلامى كله فى هذه الحقبة أجل الخدمات ولولاه لانهار صرح الفكر الإسلامى انهياراً كان يمكن أن يهدد بالخطر .

فقد استطاع الأزهر فى الأحقاب المظلمة أن يسدى إلى اللغة العربية والعلوم الإسلامية أجل الخدمات وحماها برغم هذا الظلام من الضياع خصوصاً بعد أن فرض العثمانيون لغتهم التركية على مصر وجعلوها لغة رسمية حتى صارت لغة التخاطب مزيجاً منها ومن العامية ، بل أن بعض المؤلفين لم تسلم لغتهم من العامية والتركية .

وحين نحاول البحث عن أسماء العلماء الذين اضطلعوا بالتدريس بالأزهر فى هذه الفترة نلاحظ أنهم ليسوا من الشهرة كعلماء العصر السابق وليست لهم مؤلفات ذات بال فى المكتبة العربية والإسلامية .

وفى العصر التركى بدأ تعيين شيخ الأزهر ، ولما تدهور الحكم التركى فى

مصر بدأ الأزهر يسترد كيانه ولتقط أنفاسه وأخذ يعمل على إستعادة ماضيه العلمى كما أخذ دوراً كبيراً فى التطور السياسى الذى كانت تمر به البلاد منذ آخر أواخر القرن الثامن عشر الميلادى .

وقد أراد الأتراك العثمانيون بعد أن جردوا الأزهر من خيرة علمائه وكتبه النفيسة أن يستغلوا البقية الباقية من شيوخه فى إتخاذهم سلاح تخدير للشعب والعامة وجه خاص رغبة منهم فى استعماله فى القضاء على حيوية مصر ، فكانوا يزورون الأزهر ويتظاهرون بإجلاله ويتصلون بشيوخه لهذا الغرض لكنهم بما صنعوه فتحوا الباب دون قصد لشيوخ الأزهر ليتدخلوا فى الشئون العامة وأمور الحكم وأحس المصريون بمكانة الشيوخ فى هذه الشئون فاتجهوا إليهم كالأمل الباقى فى دياجير الظلمات ، وكانوا يهرعون إليهم كلما نزلت بهم نازلة ومن رحابه كانت تنطلق حناجرهم تحمل أمانيهم وشكاواهم وعادت الحيلة التركية وبالا على الأتراك ، فقد أصبح الأزهر كعبة المظلومين ووقف الشيوخ مواقف نبل كثيرة كسبوا بها ثقة الشعب ، وكان هذا هو السر فى مواقف الأزهر القوية العنيدة أمام العثمانيين وأمام بقايا المماليك وأمام الحملة الفرنسية وفى وجه الاحتلال الإنجليزى وفى جانب محمد على وضده .

ويمكن أن نقول أن الأزهر فى عهد أسرة محمد على ظل على ما هو عليه من تخلف فكرى وتعليمى ، حتى ظهور جمال الدين الأفغانى فى مصر ١٨٧١ م . ونهضة البلاد نهضة فكرية كان جمال الدين من مصادرها وظهرت بذور الاصلاح وظهر مصلحون . فارتفعت صيحاتهم بإصلاح الأزهر كرفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وقاسم أمين وعبد الله نديم وغيرهم وظهر الوعى العام والتطور الفكرى بعد أن ألقى هؤلاء المصلحين ببذور الاصلاح فأينعت ولم تنطفىء .

لقد كان السلاطين أبناء محمد على يعرفون خطورة الأزهر ورجاله عليهم

وعلى حكمهم ، فكانوا لا يجدون وسيلة للتغلب عليه باعتباره وقود الحركات الوطنية إلا وصنعوها .

وإذا كانت إصلاحات هامة فى الأزهر قد حدثت فى عهدهم فإنهم كانوا مضطرين لقبولها لأغراض خاصة ومجاورة للتيار العام الذى كان ينادى بالاصلاح فى كل شئون الحياة . حتى أن المحققين قد أثبتوا أن إصلاحات الأزهر سنة ١٨٨٢ كان هدف السلاطين من ورائها أن يصبح الأزهر أداة نافعة لمقاومة الروح التركى كما أن المصريين كانوا قد بدءوا فى حمل المسئوليات وإدارة الشئون ، وكانت هذه الإصلاحات نتائج لوجود هؤلاء المواطنين الصالحين .

وطبيعى لم يظهر فى فترة الركود الذى عاشها الأزهر فى عهد أسرة محمد على علماء ممتازين ممن يعتز بهم ، ولم ترتفع صيحة بالإصلاح إلا الصيحة الجريئة التى أعلنها رفاعة الطهطاوى وهو من خريجى الأزهر اللامعين الذين أكملوا تعليمهم بفرنسا .

الأزهر والتطور : قديما وحديثا .

أولا - التطور قبل الثورة :

كان نظام الحلقة هو المتبع فى الأزهر إلى عهد قريب ، حيث يجلس الشيخ بجانب عمود من أعمدة الأزهر ويلتف حوله الطلبة على شكل حلقة ، بترتيب معين ، ثم يبدأ الدرس بالبسملة والحمد لله ، والصلاة على رسول الله وقراءة بعض آيات من القرآن أو أحاديث تحث على طلب العلم والتواضع فى طلبه ، وكان يتصدر للتدريس بالأزهر أساتذة من مصر ومن غيرها بلا تخلف أو جمود ولا معاداة للتفكير أو معارضة للتقدم ، حتى بدأ الأزهر يتوقف ويتخلف منذ الفتح العثمانى بمصر من سنة ١٥١٧ حتى سنة ١٧٩٨ .

ولم يكن تخلف الأزهر وتدهوره فى هذه الفترة شذوذا أو خروجا على المألوف وإنما كان الشذوذ ألا يحدث ما حدث له بعد ما أصاب مصر كلها على يد العثمانيين ، فقل عدد أساتذته وطلابه وهجر القاهرة كثير منهم إلى أقاصى الصعيد فراراً من عسف الحكام . فقامت فى قفط وقوص وغيرهما حركة علمية وأدبية .

ولم يمكن من السهل أن يعود الجو العلمى الحر المتقدم والمتطور إلى الأزهر بعد أن عانى ما عاناه ، وظل هذه الفترة الطويلة من حكم العثمانيين قاصراً على تدريس العلوم الدينية واللغوية فى حواشى ومؤلفات انصرف العلم فيها إلى النقاش اللفظى والخلافات غير الجوهرية ، وأصبح طلابه وأساتذته صورة حية من مجتمع التخلف والجمود الذى يعيشون فيه .

كان لابد من ثورة عارمة وقوة حديدية لتغيير هذا النظام الذى استمر أكثر من ثلاثة قرون ، وكان نظام حكم السلاطين من أسرة محمد على يهمه أن يظل الأزهر على ما هو عليه من تخلف وجمود وينظرون إليه بريبة وخوف ويحاولون إضعاف جناح هذه المؤسسة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكان الاصلاح فى الأزهر فى حاجة إلى خطوة جريئة من الحاكم نفسه لاعادة الروح الحقيقية إليه دون ما نظر إلى صيحات الجامدين والمتخلفين الذين تربوا فى الأزهر فى هذا الجو الخانق من الحجر الفكرى والتخلف العقلى ، ولذلك ظلت صيحات المطالبين بالتجديد ترن فى آذان المسئولين عشرات السنين دون تأثير اللهم إلا محاولات على يد بعض الذين ولوا مشيخة الأزهر ممن أثرت فيهم دعوات الاصلاح ، وبدأت تظهر بوادر هذا الاصلاح على أيديهم مثل الشيخ محمد العباسى المهدى الذى استصدر قانونا من الخديوى سنة ١٨٧٢ ، بعد أن رأى

أن بعض الناس يدّعون العلم وهم جهال وأن بعضهم يتظاهر بطلب العلم فراراً من خدمة الجيش وأن فى طلاب الأزهر أشخاصا تزيد أعمارهم على ٦٠ عاما ولا هم لهم إلا الحصول على الجراية .

استصدر الشيخ المهدى هذا القانون الذى اعتبر حدثا جديداً بالنسبة للأزهر وأهم ما فيه ما يأتى : ـ

١ — أن يكون نيل العالمية بامتحان أمام لجنة من العلماء يختارهم شيخ الجامع الأزهر .

٢ — أن ينقسم العلماء إلى ثلاث درجات : أولى ، ثانية ، ثالثة .

٣ — أن يصدر بذلك قراراً عالياً .

وقد ألفت لجنة من ٦ أعضاء وعينت المواد التى يجب الإمتحان فيها ، ومع أن هذا الذى صنعه الشيخ محمد العباسى المهدى لم يكن هو الإصلاح المنشود حيث ظلوا يمنعون تدريس كثير من المواد كالسيرة النبوية والأخلاق وحكمة التشريع ومصطلح الحديث وآداب البحث والميقات وآداب اللغة مع قيمة هذه العلوم وحاجتهم إليها، ويتهمون من يحاول أن يضيف إلى العلوم التى قرروها ، وكانت أحد عشر علما يتهمونه بالتهجم على الدين وضعف العقيدة .

ومع ذلك وقف الجامدون من رجال الأزهر يعادون ويهاجمون اصلاحات الشيخ المهدى يتزعمهم الشيخ محمد عليش .

وبرغم أن أكثر المعاهد المصرية كانت قد تأثرت بالآراء الغربية الحديثة إلا أن الكثرة الغالبة من علماء الأزهر ورجاله كانوا يفاخرون بأنهم بمعزل عن هذه التيارات الحديثة، ويزعمون أن إصلاح الأزهر إفساد وقضاء عليه، حتى بلغ الأمر بالجاهدين أن رموا الشرطة بالحجارة وأكرهوهم على الانسحاب من

الأزهر حينما أرادوا أن يدخلوه في سنة ١٨٩٦ للتحقق من تنفيذ بعض الاحتياطات الصحية التي إقتضاها إنتشار الطاعون .

وقد ظل الأزهر حومة صراع خفي بين طلاب الاصلاح المجددين وبين شيعة الجمود والتقليد من المحافظين على القديم وآثرت الحكومة انتظار طلب الإصلاح من أهله، فظل ولاة الأمر كلما ظهرت محاولة إصلاح على يد شيخ من شيوخ الأزهر المتحمسين للإصلاح يعيدون إليه شيخا من المشهورين بالتعصب القـديم .

وحين استولى الاحتلال البريطاني على دواوين الحكم في مصر بدعوى الإصلاح والتنظيم، اضطر الخديوى أن يرفع عن نفسه تهمة العجز من الاصلاح والتنظيم فيما يملك إصلاحه وتنظيمه بأن يحاول إصلاح الأزهر وهو من الجهات الدينية التي أمسك المحتلون عن التعرض له .

ولكنه لم يحاول الإصلاح الكلي المنشود ولم يصدر قانوناً خديوياً ، بهذا الاصلاح طفرة واحدة بل إنه أراد أن يمهد لهـذا الإصلاح حتى يعفي نفسه من تهمة التهجم على حرمة المسجد وتقاليد الدين، فدبر مع المخلصين من طلاب الاصلاح حيلة شرعية للبدء في هذا الإصلاح واتفقوا على استفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية في مسألة العلوم التي يجوز تدريسها بالجامع فكلفوا عالمـا تونسيا فاضلا هو الأستاذ محمد بيرم أشهر علماء الزيتونة في عصره أن يتوجه بهذا الاستفتاء إلى الشيخ محمد الانبابي شيخ الجامع الأزهر يومئذ في سنة ١٣٠٥ هـ ، سنة ١٨٨٧ م .

فصدرت فتوى شيخ الأزهر بجواز دراسة العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافيا، وجواز دراسة المنطق والطبيعيات ولكن على غير طريقة

الفلاسفة لأن الاشتغال بها على طريقتهم حرام لأنه يؤدى للوقوع فى العقائد المخالفة للشرع .

ويظهر لنا من ذلك مدى تصور علماء الدين فى هذا الوقت لدراسة العلوم الرياضية والطبيعة وما يسمى فى العصر الحديث باسم التكنولوجيا .

ولقد كان لجهود الشيخ محمد عبده فى إصلاح الأزهر الأثر الكبير فى محاولة الاصلاح ، ويمكن اعتبار الشيخ محمد عبده صاحب الدعوة المدوية إلى إصلاح الأزهر وواضع الأساس الوطيد فى صرح هذا الاصلاح .

وقد كان الشيخ محمد عبده يدين بأن تربية الأمة وتعليمها وإعدادها للرقى خير وسيلة لضمان نهضة حقيقية أخروية ثابتة ، ولهذا إتجه بالدعوة إلى إصلاح التعليم وإصلاح الأزهر .

وقد بذل جهداً كبيراً أيام الخديوى توفيق فى إقناع الشيخ الانبابى شيخ الجامع الأزهر بأن يوسع منهج الدراسة ويدخل بعض العلوم الحديثة لكن شيوخ الأزهر عارضوه معارضة شديدة ولم يجد عند توفيق أملا فى هذا الاصلاح .

لكن الشيخ محمد عبده لم ييأس واستطاع إقناع عباس الثانى بإصدار قانون ١٥ يناير سنة ١٨٩٥ الذى بمقتضاه ألف مجلس لادارة الأزهر من أكابر شيوخه الذين يمثلون المذاهب الأربعة ومثل الحكومة فيه الشيخ محمد عبده وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان ، وقد عين شيخ للأزهر من المتشوقين للإصلاح هو الشيخ حسونه النواوى من أصدقاء الشيخ محمد عبده ، فأدخلت فى عهد وكالته ومشيخته للأزهر علوم لم تكن تدرس قبل هذه الفترة كالحساب والهندسة والجبر والجغرافيا والتاريخ والخط ، وقسمت مدة الدراسة إلى إثنى عشر عاماً يدرس فى الثمان سنوات الاولى مواد معينة إذا نجح فيها يعطى شهادة الأهلية وإذا استمر فى الدراسة بعد ذلك ٤ سنوات أخرى ونجح ، يحصل على شهادة

العالمية وتم قيد حضور الطلاب وغيابهم بعد أن كان الطالب من حقه أن يحضر أو يغيب ، ولا سائل عن سبب غيابه ولا عن تحصيله ولا عن مقدار فهمه .

وقد اقترح الشيخ محمد عبده أن يكون الإصلاح بالتدريج وأن يهتم المدرسون بتفهيم الطلبة الموضوع نفسه أكثر من اهتمامهم بالكتاب، وطالب بأن يدرس بالأزهر علوم أخرى جديدة وكان يرى أنه لا يمنع من أن تشرف وزارة المعارف على التعليم بالأزهر .

وترتب على هذه الدعوة الاصلاحية التى نهض بها الشيخ محمد عبده كثير من التغيير عن النظم الأزهرية منها تدريس العلوم الحديثة التى كانت محرمة ولا تدرس فى الجامع، وتدريس علوم السلف وإن كانت من الفلسفة أو مذهب المعتزلة، ومنها العناية بالشئون الصحية فأنشئت للجامع صيدلية خاصة وعين له طبيب منقطع لعلاج الطلبة بالمجان .

ومنها مع العناية بالحضور والغياب تحديد مواعيد العمل والعطلة والامتحان. ومنها أيضاً ترتيب أجور ثابتة للمدرسين ورفع رواتبهم إلى المستوى اللائق بهم وتخصيص مبلغ من ميزانية الدولة والأوقاف للإنفاق منها على الدراسة بالأزهر .

واستطاع الشيخ محمد عبده أن يحصل على قانون آخر فى ٢٠ محرم سنة ١٣١٤ هـ ١٨٩٩ م حددت فيه اختصاصات مجلس الادارة واختصاص شيخ الأزهر ، وشروط قيد الطلبة ومدة الدراسة والانجازات ، والمواد التى تدرس ونظام الامتحانات للحصول على شهادتى الأهلية والعالمية، وغير ذلك ما لم يكن موجوداً بهذا القانون . وأصبحت بذلك مشيخة الأزهر مشيخة نظامية وظهر التعبير الجوهرى فى مدة الدراسة، وبعد أن كانت لا تتجاوز ثلاثة أشهر ونصف فى كل عام أصبحت السنة الدراسية تبدأ فى العاشر من شوال وتنتهى فى الخامس

عشر من شهر شعبان مع أجازة شهرين فى الصيف، هما يوليو وأغسطس إذا لم يصادف الصيف الشهور العربية .

وقد احتمل الشيخ محمد عبده فى رسالته الإصلاحية ألواناً من الاعنات والتشهير، كان محورها الخديوى عباس الذى أدرك أخيراً أن إصلاح الأزهر قد حرمه سلطانه وأفقده الأموال التى كان يجبيها لنفسه ويغدق منها على حاشيته، ولهذا استثار عليه الجهلاء والرجعيين .

ولم يتورع وهو أمير البلاد عن التحريض على إثارة الشغب بين طلاب الأزهر وخدمه وعماله ، ولا عن تسخير الصحف التى تتجر بنهش الأعراض والمساومة على الفضائح والوشايات .

ثم أقصى الشيخ محمد عبده وكبار الموظفين من أعوانه عن إدارة الأزهر وعن الافتاء وديوان الأوقاف ، وحاول أن يصور العلوم التى أدخلها المفتى إلى الأزهر فى صورة الجناية على الدين .

وقد جاء فى خطبة الخديوى عباس حين الاحتفال بخلع الكسوة على الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخ الجامع الجديد .

« إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر علوم الدين فى مصر وجميع الأقطار الاسلامية . وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً فى الأزهر الشريف ، بعيداً عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار لأنه مدرسة دينية قبل كل شىء .

والعجيب أن بعض علمـــاء الازهر أنكروا جهود الشيخ محمد عبده فى النهوض بمعهدهم ، بل إن بعضهم إتهمه بالكفر وزعموا أنه يشكر التوحيد لا لشىء إلا لأنه علمهم أن يبرهنوا على وحدانية الله بطريقة سليمة مثل الطريقة

التى برهن بها وتوقف بخروج الشيخ محمد عبده وأعوانه من المصلحين حركة الاصلاح وأعيد تعيين شيخين من الحزب القديم لأكبر المناصب الدينية، فعين الشيخ عبد القادر الرافعى مفتيا للدار المصرية، وعين الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخاً للجامع الازهر .

وقد صرح شيخ الجامع برأيه فى الاصلاح فى حديث نشرته جريدة الجوائب المصرية فى ١٣ مارس سنة ١٩٠٥ جاء فيه :-

(إن غرض السلف من تأسيس الأزهر إقامة بيت لله يعبد فيه، ويؤخذ فيه شرعه ، ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم .

وأما الخدمة التى قام بها الازهر للدين ، ولازال يؤديها فهى حفظ الدين لا غير ، وماسوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر ، فلا علاقة للأزهر به ، ولا ينبغى له . . .

وسخر بفكرة الإصلاح فقال : إن الذى حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى فى الأزهر ، ويحول هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره فى هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية .

وأعلن أنه يأسف لانقسام الطلبة إلى أحزاب واتجاههم إلى قراءة الجرائد، وختم حديثه بالدعوة إلى أن يكون الاصلاح ضيق الحدود يهتم بصحة الطلبة وغذائهم ، أما غير ذلك من الفلسفة والعلوم الحديثة فلتدخله الحكومة على مدارسها الكثيرة ، وقد أوقف الشيخ الشربينى دراسة المنطق والفلسفة فى الأزهر .

كان الشيخ محمد عبده يريد من الأساتذة فى الأزهر أن يغيروا من طريقتهم العتيقة فى التدريس وأن يحسنوا قراءة الحواشى والتقارير، وأن يهتموا بتكليف الطلاب بالامتحان فى العلوم الحديثة وأن يكثروا من عدد ساعات الدراسة ،

للعلوم الدينية لكن شيئاً من ذلك لم ينفذ. وكتب بذلك تقريراً قبل وفاته بأن شيئاً من ذلك لم ينفذ وأن كثيراً من مواد قانون الازهر مهملة .

وكان بعض الشيوخ قد تأثر بما دعى إليه الشيخ محمد عبده وتطلع إلى إصلاح الازهر ، وإصلاح علومه الجامدة المتخلفة وإصلاح الكتب وطريقة التدريس ، مثل الشيخ الاحمدى الظواهرى الذى كان يتطلع إلى هذا الاصلاح قبل توليه المشيخة بزمن طويل، وألف فى سنة ١٩٠٢ كتاب العلم والعلماء الذى شخص فيه الداء والدواء متأثراً بآراء الشيخ محمد عبده. وكان الشيخ الظواهرى يرى أنه لا إصلاح بغير إصلاح طريقة التدريس والتخلص من الكتب العتيقة المعقدة وتأليف كتب جديدة سهلة مشوقة، مع ضرورة الحرص على الامانة العلمية واقترح أن يدرس الطلاب والعلماء ألواناً شتى من الثقافة أياً كان مصدرها لان التدين لا ينافى التمدين .

واقترح أن ينحى عن الدراسة من يعجز عن متابعتها لينتجه إلى عمل آخر ونصح بضرورة التطبيق على العلوم النظرية، وأوجب العناية بالتفسير والاخلاق والتوحيد . والحديث كالعناية بعلوم اللغة .

وكما قلت كان الازهر فى حاجة إلى قوة تفرض عليه قانوناً بالاصلاح دون النظر إلى غضب الغاضبين أو جمود الجامدين ؛

ولعلها الطبيعة الدنيوية التى تحتم التطور والتدرج فى كل شىء ، وإن كان الإصلاح بالنسبة للأزهر لم يكن فى تطور دائم وإنما كان بين مد وجذر . إلا أنه كان بين المد والجزر لا يعود إلى الخلف بنفس النسبة التى يتقدم بها فقد ظلت القوانين تصدر لإصلاح حال الأزهر بعد أن أصبح المد فى صالح التطور، بعد أن كثر أنصار الإصلاح ، وتبين لهم محاسنه وأصبح الجامدون من شيوخ الازهر لا تطول مدد بقائهم فى هذه المشيخة .

إلا أن الأزهر ظل منذ حوالى ١٩٠٧ حتى تعيين الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخاً له سنة ١٣٤٧ هـ، سنة ١٩٢٨ م بلا ظهور تطور واضح فيه، اللهم إلا جعل الإمتحان فى العلوم الحديثة إجبارياً فى قانون ١٩٠٧ بعد أن كان إختيارياً فى قانون ١٨٩٦، وإنشاء هيئة كبار العلماء لتدريس الفقه وأصول الحديث وعلوم العربية والتوحيد والمنطق والسيرة النبوية والأخلاق الدينية فى قانون سنة ١٩١١ الذى استصدره الشيخ البشرى، وأجاز فيه تعيين وكيل للجامع الأزهر، وجعل لكل قسم من أقسام الأزهر شيخ ومراقبون وكتبة وأنشىء مجلس للأزهر، تحت رياسة شيخ الجامع .

كما أنشئت مجالس إدرة مماثلة للمعاهد التابعة للأزهر .

وفى قانون سنة ١٩١١ زيدت مدة الدراسة إلى خمسة عشر عاماً، وبقيت العلوم الحديثة من تاريخ وجغرافيا وحساب وهندسة وطبيعة وكيمياء، ووزعت دراستها فى القسمين الإبتدائى والثانوى، على أن يختص التعليم العالى بالعلوم الدينية فقط .

ثم صدر قانون سنة ١٣٤٢هـ، ١٩٢٣م بجعل الدراسة ستة عشر عاماً، حيث زيدت على المراحل الثلاث مرحلة التخصص التى يدرس فيها كبار العلماء .

أما حين تولى الشيخ المراغى مشيخة الأزهر سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ م وهو تلميذ من تلاميذ الشيخ محمد عبده المتطلعين للإصلاح، وأدرك وهو بعيد عن الأزهر حيث كان رئيساً لقضاة السودان أن الأزهر يقف جامدا والحياة تتحرك بسرعة، ورأى أن الطلبة على نقيض معظم أساتذتهم من العلماء يريدون النهوض بأزهرهم وإصلاحه، لكنهم يجهلون الطريق الموصل إلى حقوقهم، أعلن أنه يريد للأزهر إصلاحاً شاملا يوقظه من سباته ويفتح فيه باب الاجتهاد فى العلم والدين ولم يبال بثورة أنصار القديم، ومضى فى طريقه فوضع مذكرة ضمنها أصول

الإصلاح المنشود ، ولام فيها العلماء الذين أغلقوا أمام أنفسهم أبواب الاجتهاد ورضوا بالتقليد وابتعدوا عن الناس وجهلوا طرق التفكير الحديثة والبحث الحديث ، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له فصار الإسلام بلا حملة ولا دعاة .

ثم أسف للجهود التي بذلت لاصلاح الأزهر منذ عشرين سنة، ولم تعد بقادرة على إصلاح التعليم ، وبين أنه قد صار من الحتم لحماية الدين ولحماية الأزهر ، أن يغير التعليم في المعاهد الدينية ولا يبالي المصلح بما ينتج عن التغيير من ضجة وصراخ. وطالب بتهذيب العقائد والعبادات، وتنقيتها من البدع ودراسة القرآن والحديث دراسة جديدة بعيدة عن كل ما أظهر العلم بطلانه، وبضرورة دراسة الفقه دراسة خالية من التعصب لمذهب من المذاهب ، والنظر في أحكامه الاجتهادية نظرة تجعلها ملائمة للعصور والأمكنة وطالب أيضاً بضرورة دراسة الأديان ، والمقارنة بينها وبين الاسلام، ودراسة اللغة العربية دراسة جيدة وإضافة دراسات أخرى على الطريقة الحديثة في بحث اللغة وآدابها .

وطالب بضرورة تأليف كتب قيمة في جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة .

ثم اقترح ما يراه أساسا للنظام في الأزهر والمعاهد الدينية على أساس تقسيم التعليم الديني إلى قسمين :

١ — قسم يحدد عدد طلابه وترتيب درجات تعليمهم، وتبين لهم حقوقهم وأعمال الدولة التي ستوكل إليهم ، وهو القسم الذي سيكون موضع العناية ومكان الرجاء والأمل .

٢ — وقسم لا يراد منه إلا سد حاجة من يريد التفقه في الدين، ومعرفة

اللغة العربية وهذا القسم توضع له نظم تكفل مراقبة الأخلاق ، وتعليم طلابه تماما بعيدا عن الخرافات وتكون مراحل التعليم فى القسم الأول ثلاثة :

(ا) القسم الأولى :

(ب) القسم الثانوى :

(ج) « العالى :

ويكون التعليم فى القسمين الأولى والثانوى عاما على مثال التعليم فى المدارس الإبتدائية والثانوى ما عدا اللغات الاجنبية .

وتدرس فيها علوم الازهر بالقدر المؤهل للقسم العالى .

ويقسم التعليم العالى إلى ثلاثة أقسام :

(ا) قسم اللغة العربية .

(ب) « الفقه .

(ج) « الدعوة والارشاد .

وقد حدد المواد التى تدرس فى الأقسام الثلاثة ، وراعى فيها اشتمالها على موضوعات جديدة لم تكن موجودة فى الأزهر ، رأى حاجة الأمة إليها كتاريخ التشريع الاسلامى ، ونظم القضاء والادارة والمرافعات وتاريخ الاديان والمذاهب وعلم النفس والتربية ، وغير ذلك من مواد ضمنها مذكرته الاصلاحية .

وطالب فى هذه المذكرة بالاستغناء عن مدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم بأقسام التعليم العالى وبإلغاء قانون التخصص لعدم فائدته ، ولان أقسام التعليم العالى تغنى عنه .

وقد ألفت الحكومة لجنة لوضع الإصلاح على هذه الأسس برئاسة الشيخ المراغى وأقرت النظام الذى وضعه وجعلت مراحل التعليم أربع مراحل :

١ — إبتدائية ومدتها ٤ سنوات .

٢ — ثانوية « ٥ «

٣ — عالية « سنتان .

وقد قدم للحكومة ليأخذ طريقه إلى التنفيذ سنة ١٣٤٧ هـ ، لكن حدث خلاف بين الملك والشيخ المراغى إضطر الشيخ أن يستقيل سنة ١٣٤٨ هـ .

وأختير الشيخ الظواهرى لمشيخة الازهر سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩ م وهو : كما قلنا من المصلحين المجددين .

وفى عهده وضع قانون للإصلاح فى ٢٤ من جمادى الاولى سنة ١٣٤٩ هـ ١٥ نوفبر سنة ١٩٣٠ م ، وهو القانون الذى حدد كيان الازهر منذ ذلك ، وقسمه إلى :

١ — كلية الشريعة .

٢ — كلية أصول الدين .

٣ — كلية اللغة العربية .

وحددت فيه أقسام التخصص ، وصار هناك تخصص فى المهنة وتخصص فى المادة الاولى لزيادة أهلية المتخرج لتولى المهن التى أنشئت الكليات من أجلها والثانى لتأهيله للتدريس بالكليات .

وكان منهج القسم الابتدائى يكاد يكون هو منهج مدارس المعلمين الاولية ويكاد يكون منهج الثانوى هو منهج تجهيزية دار العلوم ، أما منهج كلية اللغة العربية فكانت مقتبسة من مناهج دار العلوم ، ومناهج كلية الشريعة مستمدة من مناهج مدرسة القضاء الشرعى .

أما كلية أصول الدين فقد قررت بها مواد التوحيد والاخلاق والتفسير

والحديث وآداب اللغة العربية وتاريخها والتاريخ الاسلامى وعلم النفس والبلاغة وأطلق اسم الجامع الازهر على كليات التعليم العالى وعلى أقسام التخصص ، وأطلق اسم المعاهد الدينية على معاهد التعليم الدينى الاسلامى، التى يكون التعليم فيها بقصد تفقه الطلاب فى دينهم وفى اللغة العربية ، وإعدادهم لدخول الجامع الازهر والتعليم فى هذه المعاهد إبتدائى ـ وثانوى .

وقضى القانون الجديد بتأليف هيئة تشريعية لها حق النظر فى اللوائح والقوانين وتسمى مجلس الازهر الأعلى وهو مؤلف من :ـ

١ — شيخ الجامع الأزهر .

٢ — وكيل الجامع الأزهر والمعاهد الدينية .

٣ — مفتى الديار المصرية .

٤ — مشايخ الكليات الثلاث .

٥ — وكيل وزارة العدل .

٦ — وكيل وزارة الأوقاف .

٧ — وكيل وزارة المعارف .

٨ — وكيل وزارة المالية .

٩ — اثنين من هيئة كبار العلماء يعينان بأمر ملكي .

١٠ — اثنين فى وجودهما بالمجلس مصلحة للتعليم بالأزهر ، ويعنيان بأمر ملكى .

أما الشهادات التى حددت بمراحل التدريس فهى :ـ

١ — الإبتدائية .　　　٢ — الثانوية .

٣ — العالميـــة لمن أتموا دراسة التخصص فى مهنة التدريس أو القضاء الشرعى أو الوعظ والإرشاد .

٤ — العالمية مع لقب أستاذ لمن أتموا دراسة التخصص .

ثم وضع قانون التخصص سنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م وقد جاء فيه .

١ — التخصص فى القضاء الشرعى ويختار طلابه من خريجى كلية الشريعة.

٢ — التخصص فى الوعظ بإرشاد ويختار طلابه من خريجى كلية أصول الدين .

٣ — التخصص فى التدريس ويختار طلابه من خريجى كلية اللغة العربية وكلية الشريعة ، وكلية أصول الدين .

وقسم القانون تخصص المادة وينقسم إلى عشرة أقسام :

الفقه، وأصول الفقه، والحديث، والتفسير ، والتوحيد، والفلسفة، والمنطق ، والأخلاق ، والتاريخ الاسلامى ، والنحو والصرف ، وعلوم البلاغة — الأدب العربى وتاريخه .

ويلاحظ على هذا الإصلاح ما يأتى :

أنه اقتصر على تهذيب الكتب وطرق التدريس ولم يصل إلى فتح باب الاجتهاد فى العلم والدين كما دعا الشيخ محمد عبده والشيخ المراغى .

وأن الكتب القديمة بقيت تدرس مع أن الشيخ الظواهرى وصفها فى كتابه (العلم والعلماء) بأنها ليست من جيد ما ألف السلف، وإنما هى من الردىء القليل الفائدة ، ووصفها الشيخ المراغى بأنها خالية من روح العلم .

وبرغم صدور قانون جديد للأزهر سنة ١٩٣٦ فى عهد الشيخ المراغى بعد عودته للمشيخة سنة ١٩٣٥ وألغى هذا القانون القانونين الصادرين فى سنة ١٩٢٣

١٩٣٠ إلا أنه لم يكن فيه جديد يذكر ، وكان شديد الشبه بالقانون الصادر سنة ١٩٢٧ ما عدا بعض تغييرات مثل تسمية المعهد الأزهري بمعهد القاهرة وتسمية هيئة كبار العلماء باسم جماعة كبار العلماء .

أما الأقسام الابتدائية والثانوية والقسم العام فقد بقيت على حالها ، وأما المناهج الدراسية فإنها بقيت كذلك كما كانت ، مع التقليل من العلوم الدينية الحديثة في القسم الثانوى .

من هذا السرد التـــاريخى للأزهر وتطوره يتبين لنا أن الأزهر بسبب ما أصاب البلاد من تخلف وجمود أثناء الاحتلال ، ظل هو الآخر متخلفاً عن الإصلاح والتجديد والعودة إلى سابق عهده قبل الاحتلال العثمانى وملاحقة تيار التطور والحضارة في العالم بل أصبح هو دليل على التخلف والجمود .

وأن محاولات الاصلاح التى دعا إليها المصلحون إبتداء من رفاعة الطهطاوى وحاولها ودعى إليها الشيخ محمد عبده والشيخ محمد العباسى المهدى والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ الأحمدى الظواهرى والشيخ مصطفى المراغى لم تصل بالأزهر إلى ما كان ينشده له هؤلاء المصلحون المجددون وظل الأزهر برغم هذه المحاولات الاصلاحية متخلفاً عن ركب الحضارة والمدنية يعتمد على الحواشى والعلم القديم الذى ألف معظمه في عصور التخلف الفكرى والعقلى ، ولم يظهر الإجتهاد في العلم والدين الذى أغلق بابه في عهد الاحتلال العثمانى وظلت طريقة التدريس كما هى لا تتغير مع أنها أهم من مواد الدراسة نفسها .

ولم يحدث تغيير تقريبا في الفترة من سنة ١٩٣٦ حتى صدور قانون تطوير الأزهر الجديد سنة ١٩٦١ .

هذا القانون الذى صدر بتطوير الأزهر والهيئات التابعة له والذى أرادت به الثورة المصرية إخراج خريجى الأزهر من عزلتهم عن المجتمع الذى يعيشون

فيه وتصفية رواسب الاستعمار فى الأزهر التى تشكل خطراً على القيم الإسلامية نفسها وعلى تعاليم الإسلام والدعوة الإسلامية ، وهدم الحائط الذى يحول بين تفاعل الأزهر مع الحياة الإنسانية والمجتمع الذى يعيشون فيه .

وإقامة جامعة الأزهر على أساس أن تكون هيئة تعنى بدراسة أنواع المعرفة المختلفة التى تعين على ممارسة النشاط الإنسانى فى شتى جوانب الحياة .

وقبل أن أتحدث بصراحة عما تم للأزهر فى ظل القانون الجديد (الذى أطلق عليه إسم :) (قانون تطوير الأزهر) وقبل أن أضع النقط فوق الحروف وأتحدث عن أسباب عـــدم تحقق الفرض الذى صدر قانون تطوير الأزهر من أجله .

وما أراه من علاج لتحقيق الإصلاح الحقيقى المنشود ليأخذ الأزهر طريقه الصحيح فى تيار هذه الحياة ، لابد أن نتحدث ولو بإيجاز عن هذا القانون وعن أهم التغييرات التى جاءت به ، وعن الأسباب التى دعت إلى هـذا الإنقلاب الكبير فى الأزهر .

لنرى هل تحقق ما أريد للأزهر أم لم يتحقق ؟ وهل كان التطوير فى صالح الأزهر والإسلام أم أنه قضى على الأزهر وأنهى وجوده كما يقول البعض ؟ .

ثانيا قانون تطوير الأزهر سنة ١٩٦١ (بعد الثورة) :

فى ٢٢ من المحرم سنة ١٣٨١ هـ ٥ يوليو سنة ١٩٦١ م أصدر السيد رئيس الجمهورية القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها : بسم الأمة وبناء على ما قرره مجلس الأمة :

ونص على إلغاء المرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ م والخاص بإعادة

وتنظيم الجامع الأزهر والقوانين المعدلة له ، وإبطال كل ما يخالف القانون الجديد من قوانين .

وقد جاء في المادة الأولى منه :(١)

إن الأزهر هو الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى التي تقوم على حفظ التراث الإسلامي ودراسته وتجليته ونشره وتحمل أمانة الرسالة الاسلامية إلى كل الشعوب وفي المادة الأولى أيضاً أن الأزهر يعمل على تزويد العالم الاسلامي والوطن العربي بالمختصين وأصحاب الرأي فيما يتصل بالشريعة الاسلامية والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن ، وأنه يعمل على تخريج علماء عاملين متفقهين في الدين يجمعون إلى الايمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح كفاية علمية وعملية ومهنية لتأكيد الصلة بين الدين والحياة والربط بين العقيدة والسلوك وتأهيل عالم الدين للمشاركة في كل أسباب النشاط والإنتاج والريادة الطيبة ، وعالم الدنيا للمشاركة في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وجاء في المذكرة الايضاحية لمشروع القانون بأن الأزهر قام بدور عظيم في تاريخ العلم وفي تاريخ الإسلام وفي تاريخ العروبة وفي تاريخ الكفاح القومي على توالي العصور ، وأنه وقف قلعة شامخة في وجه كل المحاولات لاستعبادنا والسيطرة علينا وتحطيم كياننا القومي والروحي، وأنه أقدم جامعة في العالم وإن لم يكن إسمه بين أسماء جامعاتنا .

وجاء في هذه المذكرة أيضاً بأنه من علم الأزهر شع نور الاسلام في بلاد كثيرة من أفريقيا وآسيا، وزاد عدد المسلمين عشرات الملايين ، وأن بعوث

---

(١) راجع القانون رقم ١٠٣ - ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها .

الأمم المختلفة إلى الأزهر كانت سببا فى توثيق علاقاتنا ببلاد كثيرة وشعوب كثيرة منـــذ أقدم العصور إلى اليوم، واكتسب اسم الأزهر بذلك قدسية واكتسب المنتسبون إليه إحتراماً، وصار رأيه هو الرأى فى كل ما يتعلق بالعقيدة والشريعة ، وصار هو الجامعة الإسلامية الكبرى فى الشرق والغرب .

وجاء فى هذه المذكرة أن العالم الاسلامى قد انفسح مداه واتسع نطاقه وأن فى نفوس أهله آمال ضخمة لاستكمال أسباب تحرره ونهضته والارتفاع بمستوى معيشته .

وأنه نظراً لضرورة عدم انعزال خريجى الأزهر عن مجتمعهم الذى يعيشون فيه بسبب سيطرة الثقافة الاستعمارية على العالم الاسلامى لفترة طويلة وما صنعته من تفسير أن الاسلام عبـادة وقربى إلى الله وفناء فيه فقط ، وأن العمل للحياة شىء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض معه، وبسبب تصور الناس والأزهريين أنفسهم من أن خريجى الأزهر هم رجال دين وليس لهم أن يتصلوا بعلوم الدنيا إتصال النفع والانتفاع ، وحتى يتهيأ تأهيل العالم الدينى للتخصص فى عمل من أعمال الخبرة والانتاج التى تحتاج إليها نهضة المسلمين فى كل البلاد وهم الذين كانوا ينتظرون من الأزهر من وراء حدودهم أن يعد أبناءهم إعداداً يكونون فيه مستكملين لكل العناصر التى تهيئهم لحمل أعباء النهضة فى بلادهم .

إلا أن كثيرين من المبعوثين من تلك البلاد إلى الازهر عادوا إلى بلادهم وأصبح مصيرهم مثل مصير خريجى الازهر فى بلادنا ، تعطل فى الخريجين زادهم إنعزالا عن المجتمع وعدم إعتراف من الدولة بهم ، باعتبار أن الازهر غير مساير لظروف التطور ، ومحاربة لهم من الشعب .

وقد إنتقلت عدوى فقدان الثقة فى الأزهر وخريجى الأزهر إلى مجتمعات المبعوثين إليه من البلاد الأخرى حتى أوشك هذا الشعور أن يقطع كثيراً من

الأواصر بيننا وبين تلك البلاد حتى أصبحت بعض البلاد الاسلامية تحول بعثاتها كلها أو بعضها إلى الجامعات المدنية فى مصر أو غيرها من البلاد .

من أجل ذلك كله كان لابد من تجديد الأزهر وتطويره والاعتراف بمكانته وأثره ، مع الاحتفاظ له بطابعه وخصائصه وصفته التى إستحق بها أن يبقى مسيطراً على تاريخنا وعلى العلاقات الوثيقة بيننا وبين إخوان لنا فى شرق الارض وغربها من ألف سنة .

وقد قررت مبادىء لتكون أساس هذا الإصلاح من أهمها :

١ — بقاء الازهر وتدعيمه ليظل أكبر جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى الشرق والغرب .

٢ — تحقيق قدر مشترك من المعرفة والخبرة بين المتعلمين فى جامعة الأزهر والمعاهد الدينية الأزهرية وبين سائر المتعلمين فى الجامعات والمدارس الاخرى مع الحرص على الدراسات الدينية . والعربية التى يمتاز الأزهر بها منذ كان .

٣ — توحيد الشهادات الدراسية والجامعية فى كل الجامعات ومعاهد التعليم فى مصر .

٤ — تخريج علماء حصلوا كل ما يمكن تحصيله من علوم الدين وتهيأ وا بكل ما يمكن من أسباب العلم والخبرة للعمل والانتاج وفى كل مجال من مجالات العمل والانتاج فلا تكون كل حرفتهم أو كل بضاعتهم هى الدين .

٥ — تحطيم الحواجز والسدود بينه وبين الجامعات ومعاهد التعليم الاخرى وإزالة الفوارق بين خريجيه وسائر الخريجين فى كل مستوى وتكافؤ الفرص بينهم جميعاً فى مجالات العلم ومجالات العمل .

وقد نص القانون فى المادة ٣٤ على الكليات التى تشملها جامعة الأزهر وهى :

١ — كليات للدراسات الاسلامية (تحدد عددها اللائحة التنفيذية) .
٢ — كلية للدراسات العربية .
٣ — كلية المعاملات والادارة[1] .
٤ — كلية الهندسة والصناعات .
٥ — كلية الزراعة .
٦ — كلية الطب .

مع النص على جواز إنشاء كليات أخرى كلما دعت الحاجة .

وبمقتضى الفقرة من المادة ٣٤ من القانون قامت كلية أصول الدين وكلية الشريعة فى العام الجامعى ١٩٦١ / ١٩٦٢ بقرار من رئيس الجمهورية رقم ١ لسنة ١٩٦١ بصفته متولياً لاختصاصات وزير شئون الازهر[2] .

كما أنشئت فى العام الجامعى ١٩٦٢ / ١٩٦٣ كلية البنات بقرار نائب رئيس الجمهورية وتضمنت ميزانية السنة المالية ٦٣ / ١٩٦٤ إعتمادات مخصصة لانشاء كلية للتربية . وأصبح تعليم اللغات الأجنبية يأخذ صورة جادة فى هذا التنظيم الجديد ، حيث يبدأ من مرحلة التعليم الاعدادى وزيد عدد دروس اللغات الاجنبية فى الكليات ،وصارت كليتا أصول الدين والشريعة تدرسان اللغات الاوربية والشرقية بصفة جادة .

وسوى بين المبصرين والمكفوفين فى مقررات الدراسة فى الجامعة وشارك المكفوفون المبصرين فى نظم الدراسة والامتحان .

وصار بناء على هذا القانون وجود شعب متخصصة يتوزع بينها الطلاب منذ الفرقة الثالثة فى كلية أصول الدين .

(١) عدلت اسمها إلى (كلية التجارة) .
(٢) راجع الازهر تاريخه ـ تطوره، من ص ٤٦٩ ، ٤٧٦

واتخذت الإجراءات اللازمة لاستصدار قرار جمهورى بمنح كلية الشريعة إجازتها العالية فى الشريعة والقانون وتعطى نفس الحقوق المقررة (لليسانس الحقوق) بجامعات الجمهورية العربية المتحـدة خصوصا بعد أن زادت العناية بالدراسات القانونية) .

وكان من أهم ما فى هذا التنظيم إنشاء كلية للبنات الاسلامية التى تتشعب فيها الدراسة إلى كل الشعب النظرية والعملية الموجودة بكل كليات الجامعة تقريباً ، أى أنها تعتبر جامعة كاملة .

وقد أصبح الأزهر بعد هذا القانون جامعة تشتمل على كل الـكليات النظرية والعملية ، التى تتبع الجامعات الاخرى فى مصر وأصبح لجامعة الازهر طابع خاص جديد . يختلف عما كان عليه الازهر قبل صدور قانون التطوير .

ويمكن أن يقال أن معظم المواد التى تقرر تدريسها بكليات جامعة الأزهر النظرية والعملية ليست جديدة على الأزهر وإنما تعلمها طلاب الأزهر قديماً ودرست فيه ، ونبغ فيها كثيرون من أساتذته وطلابه ربما فى وقت لم يـكن العالم الغربى يعرف عنها شيئاً بل لا نغالى إذا قلنا إن معظم هذه المواد وكثيراً من النظريات العلمية التى ظهرت وانتشرت فى أوربا كان أصحابها من تلاميذ وأساتذة الأزهر .

وما زال الأوربيون يشيدون بفضل ابن الهيثم الأزهرى الذى اشتهر بعلمه الواسع فى الطب والفلسفة والهندسة والرياضة والطبيعة ولا سيما الضوء ، ويعرف الأوربيون اكتشافه بأفذاذ علمائهم مثل روجر بيكون وكبلر .

والسؤال : الآن : هل تحقق الغرض الذى من أجله صدر قانون التطوير ؟

وهل استفاد الإسلام والعالم الإسلامى من هذا التغيير ؟.

الحقيقة : أن التطوير في حد ذاته كان ضرورياً ولازماً، لأن الحياة بلا تطوير لا تستقيم ، ولقد عيب على الأزهر جموده وانعزال خريجيه عن المجتمع الذى يعيشون فيه حتى وجدنا الناس ينعتون الجامدين بالأزهرية، وأصبح رأى الناس في الأزهر أنه لا يصلح أن يمارس عملا من الأعمال سوي وظيفة الإمامة والخطابة التي صارت عملا آلياً ينظر إليه معظم خريجى الأزهر على أنه مجرد عمل لكسب العيش ، وربما سبب ذلك فى نفوس بعض الأزهريين حقداً على المجتمع الذى يعيشون فيه خصوصاً وهم يرون أن الدولة لا تعترف بهم ، والشعب فى كثير من الحالات لا يعطيهم القدر الكافى من الاحترام بسبب ما هم فيه من جمود فيزداد انعزالهم عن المجتمع .

والحقيقة : أن الطريقة العتيقة للتدريس فى الأزهر التى اعتاد عليها الأزهريون فى التأليف والتدريس كانت مسئولة وإلى حد كبير من هذا الجمود وهذا التخلف .

فلقد كان احتفاظ العلماء بطريقة سلفهم الأزهرى فى التأليف هو أن يكون الكتاب مؤلفاً من متن وشرح وحاشية ، وعند زيادة البيان والتحقيق تضاف إليه التقارير، وربما نظر هؤلاء المؤلفون أو المدرسون لما ألف من كتب أزهرية ومما نظروا إلى كتاب مؤلف على الطريقة الحديثة اقتصر فيه على القول الصحيح وصيغ بعبارات سهلة وقسم إلى مسائل سردت بطريقة منظمة على أنه من البدع الهادمة لتلك السنة التى جرى عليها الأزهر من عدة قرون .

ولقد كان الشيخ محمد عبده يرى أنه لا سبيل للاصلاح فى الأزهر إلا بتغيير هذه المناهج وطريقة تأليفها وتدريسها ويرى أن فى جمود العلماء على كتبهم فى التدريس ضياع الشريعة نفسها[1] .

---

(١) راجع تاريخ الإمام جـ ٢ ص ٦٢١

ولقد رأينا الشيخ الظواهري وهو من الذين نادوا بالإصلاح في الأزهر وساهموا بالفعل في هذا الإصلاح يعيب على علماء الأزهر إيثارهم العزلة وجهلهم بالعلوم الحديثة واقتصارهم على الوعظ والإرشاد، ويرى فيما يدرس في الأزهر من كتب القصور والجمود والتخلف ووصف الكتب بأنها كتب الشقاء وسوء الحظ على طلاب العلوم الاسلامية، بل وصف الطريقة التي تدرس بها بأنها سفه ما بعده سفه[1].

ولو رجعنا إلى محاولات الساعين للإصلاح في الأزهر ابتداء من رفاعة الطهطاوي حتى الآن لوجدناهم جميعاً يؤكدون أنه لا إصلاح بغير إصلاح طريقة التدريس والتخلص من الكتب العتيقة المعقدة وتأليف كتب جديدة مشوقة سهلة مع ضرورة الحرص على الأمانة العلمية..

من كل ذلك نرى أن أهم ما في التطوير في الأزهر هو ضرورة إصلاح طريقة التدريس، ومحاولة التأليف بالطريقة العلمية الحديثة مع الاحتفاظ للأزهر بطابعه وخصائصه وصفته التي استحق بها أن يبقى مسيطراً على تاريخنا وعلى العلاقات الوثيقة بيننا وبين إخوان لنا في شرق الأرض وغربها أكثر من ألف سنة، وعلى أن يظل الحرص على الدراسات الدينية والعربية التي يمتاز بها الأزهر منذ كان..

ولكن جرت العادة أن يكون بعد كل انقلاب سياسي اجتماعي أو فكري هزة عنيفة تبعد النتيجة المرجوة من هذا الانقلاب عن وضعها الصحيح تماماً كما حدث بالنسبة للمسلمين في زمن عثمان رضي الله عنه حين نشأ مجتمع إقطاعي على أنقاض المجتمع القبلي بعد أن بدأ المسلمون يحصلون على ضياع كبيرة في الشام والعراق ومصر وجهات أخرى في الدولة

---

(١) الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٦٢

الإسلامية ولم تستطع المبادىء المتشددة الرشيدة التي وضعها عمر بصدد مسألة امتلاك الأراضي أن تمنع من ظهور أورستقراطية إسلامية فيما بعد .

كذلك ما حدث في عصرنا نتيجة تغير الأوضاع من وصول كثيرين من المعدمين أو شبه المعدمين عن طريق عضويتهم للإتحاد الاشتراكي أو الحزب الحاكم إلى مالم يحلموا به في يوم من الأيام . وظهرت بذلك طبقة أخرى جديدة لم يكن من المفروض أن تظهر وتثبت بذلك العبارة المأثورة التي تقول (أنه يولد من بين كل مجتمع قبلي مجتمع آخر اقطاعي[1] ، ذلك كله أردت به أن أوضح أن التطوير الذي قصد به إصلاح الأزهر وهو من وجهة نظري انقلاب كبير ، لم يكن ليحدث بسهولة ، لم يصل بالأزهر إلى ما كان مرجوا له من إصلاح .

فالمفروض في الأزهر كما قلنا أن يظل حريصاً على الدراسات الدينية والعربية التي امتاز بها منذ إنشائه حتى الآن وأن يظل محتفظاً بطابعه وخصائصه وصفته وأن يحاول التخلص من كتبه العتيقة المعقدة وإصلاح حال التدريس ليستطيع المساهمة والمشاركة في بناء المجتمع الذي يعيش فيه، لكنني كأزهري عاصرت الفترتين، فترة ما قبل التطوير وما بعده، أرى أن التطبيق ليس بالطريقة التي كان يجب أن يكون بها وذلك لعدة أسباب :

أسباب فشل تطبيق قانون التطوير

اولا : بعض الأساتذة القدامى (وهم قلة) لم يعجبهم هذا التطوير وتصوروا أن ذلك هدم للأزهر وقضاء عليه ، وبالتالي قضاء على الدين فحاربوا التطوير ورفضوا تنفيذ ما وضع من مناهج دراسية كان من المفروض الالتزام بها وتنفيذ ما فيها .

ولعل بعضهم آمن في نفسه بهذا التطوير إلا أن الطريقة القديمة التي تعود

---

[1]) راجع الإدارة العربية صـ ٣

عليها واستمراره هذه الفترة الطويلة على هذه الطريقة تعلماً وتعليماً هى التى وقفت به عند عدم التنفيذ . فظل على ما هو عليه لم يغير فى الطريقة ولا فى التأليف . اللهم إلا تغير اسم الكتاب - وطبعه على ورق أبيض جديد والاكتفاء بمجرد التهميش عليه أو التعليق على بعض ما فيه من ألفاظ غامضة . ولقد ساعد فى ذلك عدم وجود هيئة علمية بكل كلية لفحص إنتاج الأساتذة ومطابقته بما فى المناهج .

ثانياً : كان بعض الأساتذة على نقيض ذلك تماما فتصوروا أن التطوير معناه إلغاء القديم نهائيا والاتيان (بأى جديد) بصرف النظر عن مطابقته للمنهج أو حتى حاجة الدراسة الجامعية إليه ، فألفوا فى أى موضوعات . وألزموا بها الطلاب بصرف النظر عن أى اعتبارات أخرى .

وكاد الأزهر (المتطور) يضيع بين هؤلاء وهؤلاء وهو وإن ظل الأمر على ذلك سينتهى حتما إلى الضياع .

ثالثاً : المواد الحديثة التى أضيفت إلى مواد الدراسة بالمعاهد الدينية الاعدادية والثانوية وكثرتها جعلت الطالب يعجز عن تحصيلها بالقدر الكافى ، الأمر الذى جعل المسئولين عن التعليم فى الاعدادى والثانوى الأزهرى ، يتساهلون مع الطلاب مما أدى إلى تخرج هؤلاء الطلاب دون المستوى العلمى المطلوب .

والحقيقة أن الطلاب معذورون إلى حد كبير فهم مطالبون بدراسة جميع مواد الدراسة المقررة على طلاب مدارس وزارة التربية والتعليم ، بالمرحلتين الاعدادية والثانوية وكذا دراسة المواد الشرعية الأصلية ، الأمر الذى أدى إلى إختصار المواد الشرعية وتبسيطها حتى يمكن للطالب إستيعاب كل المواد المقررة ، والأساتذة أيضاً معذورون لأنهم اضطروا إلى التساهل مع الطلاب .

حين وجدوا أن التشدد معهم معناه عجز الطلاب الكامل عن التحصيل ، وبالتالي النجاح .

رابعاً : عدم إقبال الناس على التعليم الديني بالأزهر ، جعل المسئولين بالأزهر يسمحون بقبول الطلاب بالإعدادي والثانوي الازهري ، من ذوي المجاميع الصغيرة التي لم تقبل بمدارس التعليم العام ، وكذا من الراسبين في إمتحان الشهادتين : الابتدائية والاعدادية ، من عمل إمتحانات صورية للطلاب وقبول أعداد كبيرة منهم وإلحاقها بالمعاهد الدينية لسد النقص الكبير في أعداد الطلاب ، الأمر الذي جعل الأساتذة يضطرون للتساهل مع طلابهم حيث أن مستوياتهم العلمية أساساً دون المستوى المطلوب ، كذلك كثرة المواد الدراسية وتنوعها تزيد في ضعف هذا المستوى .

فأدى ذلك كله إلى تخريج طلاب في مستوى علمي منحط ، وبرغم ذلك كله يكون نصيب الكليات النظرية في جامعة الأزهر أقل هؤلاء الضعاف مجموعا وأكثرهم ضعفا حتى أصبح معظم الخريجين في مستوى علمي يقل عن مستوى طلاب الاعدادي والثانوي الازهري القديم .

ولعل ذلك من عوامل هروب الكثيرين من الخريجين من أعمال الإمامة والوعظ ، لأنهم لا يجدون في أنفسهم الكفاية العلمية التي تؤهلهم لذلك .

خامساً : كما أن عدم توفر الأساتذة اللازمين لكل المواد بكليات الجامعة سبب هو الآخر في عدم الاهتمام بالمنهج المقرر . وساعد على تخريج الطلاب دون المستوى العلمي اللائق بهم .

وأضرب مثالاً لذلك : بقسم الدعوة بكلية أصول الدين : فقد أسند تدريس بعض المواد التي تقرر دراستها بالقسم إلى أساتذة إنتدبتهم الجامعة

من خارجها ومعظمهم ليسوا من ذوى التخصصات ولا من أصحاب مهنة التدريس فأدى ذلك إلى إهمال المنهج إهمالا كلياً .

وحين قلبت صفحات كتاب كلية أصول الدين الخاص بخطط ومناهج الدراسة للعام الجامعى ١٩٦٢ - ١٩٦٣ .

وجدت أن موضوعات معظم المواد التى قررت على الطلاب بشعبة الدعوة والإرشاد تختلف تماما عما درس للطلاب بالفعل ، وكنت أنا أحد هؤلاء الطلاب الذين انتسبوا إلى هذه الشعبة فى ذلك العام .

نأخذ مثلا فقط : مادة (الدعوة والدعاة) بالسنة الثالثة :

لقد وضع المنهج لهذه السنة فى مادة الدعوة والدعاة على أساس دراسة موضوعات تتعلق بهذه المادة ، منها على سبيل المثال . التعريف بالدعوة إلى سبيل الله ، وبالوعظ والارشاد وبالآيات القرآنية التى تدور حول هذه المعانى ، كذلك دراسة حاجتنا إلى الدعوة اليوم ، وتخلف الحضارة الروحية ، وضعف المقومات الإنسانية فى العالم ، وإيثار المثل العليا للفرد والجماعة وشيوع القلق والخوف والتربص فى العالم واتجاه الحضارة المادية إلى التدمير والتخريب والغلبة ، وحاجة المجتمع الاسلامى والعربى إلى دعاة ومرشدين ، مع دراسة حاضر العالم الإسلامى والعربى من النواحى الدينية ، وأنواع الاستعمار وآثاره القاتلة فى العالم الإسلامى والعربى ، وغير ذلك من موضوعات كانت مجرد عناوين وضعت لم يدرسها الطلاب ولم يتعرض لها الأستاذ لا من قريب ولا من بعيد .

ولقد أعجبنى فى هذا المنهج ما وضع عن ضرورة دراسة أشهر الدعاة فى الصدر الأول للإسلام وفى عهد الراشدين والتابعين ، وأعمال أشهر الدعاة وطرائقهم فى الدعوة ، والدعاة إلى الأمصار وصفاتهم ، وما يجب أن يتحلى به

الداعي من الصفات والثقافات ، مع دراسة تحليلية لواحد من أشهر الدعاة في العصور الأولى من الإسلام ، ولكتاب من الكتب المؤلفة في هذه العصور .

وكنت أتمنى أن أعرف شيئاً عن هذا ، أو حتى أوجه إلى الكتب والمراجع التي يمكن الاستفادة منها في هذه الموضوعات ، لكن كان أستاذ المادة يكتفي بإملاء عدد قليل من الصفحات في موضوع واحد لا يمت إلى مادة الدعوة بصلة .

وفي السنة الرابعة : كان المفروض كما هو مبين بمنهج الدراسة أن يدرس الطالب من بين الموضوعات التي قررت بمادة الدعوة أيضاً : أسس الدعوة والدعاة وصفاتهم وتربيتهم وضرورة تحليهم بالصفات الجيدة الآتية بالعلوم والثقافات التي هي عناصر القيادة الدينية ، كذلك كان من المفروض ، كما هو مبين أيضاً بالمنهج ، أن يدرس فلسفة قوة الإسلام الذاتية ، وملاءمته لكل زمان ومكان وإنتشاره في العالم ، مع تفصيل عن انتشاره في بيئة أو أمة أو مكان مثل الهند ، أو الفرس أو الصين أو أفريقيا أو شعوب آسيا ، مع دراسته لطوائف الدعاة وأشهر من تصدوا للدعوة قديماً وحديثاً ، مع تحليل تفصيلي لشخصية من هؤلاء الدعاة ، ودراسة تحليلية لكتاب من الكتب التي ألفت قديماً ، وحديثاً ، في الدعوة إلى الله .

لكن ما حدث بالفعل هو الاكتفاء بجزئية صغيرة من هذه الجزئيات ، وكنت شخصياً أتمنى أن أدرس هذه الموضوعات أو حتى أوجه إلى طريقة الحصول عليها وقراءة شيء منها .

وفي منهج سنة ١٩٦٩ الدراسي ، وأعتقد أنه المنهج الذي تسير عليه الكلية الآن ، وضع أيضاً لمادة الدعوة والدعاة من بين الموضوعات التي يجب أن تدرس بالسنة الرابعة لشعبة الدعوة :-

مناقشة الدعوة الحديثة : وسائل المبشرين : وسائل الاستعماريين : وسائل بنى إسرائيل عامة : والصهاينة خاصة : مع مناقشتها والتبصير بها والتحذير منها والرد عليها .

كذلك كان من بين الموضوعات بالمنهج : الحديث عن وسائل الإعلام الحديثة وأثرها فى الدعوة : وما يجب أن يتسلح به الدعاة الآن : وموضوعات أخرى هامة جداً ، وجديرة بالبحث والدراسة حتى الآن ظل معظمها كما يقولون (حبراً على ورق) ومواد أخرى بشعبة الدعوة أصابها ما أصاب مادة الدعوة والدعاة ، وأخشى أن تكون هذه الآفة قد أصابت شعبا أخرى بكلية أصول الدين أو بالكليات الأخرى .

ويجب أن أنبه إلى موضوع هام :

التطور لم يكن القصد منه أبداً مجرد تغيير الكتب أو تغيير طريقة التدريس مع تدريس أى كتب أو تدريسها بأى طريقة ، ولكن كان المطلوب من التطوير : ـ دراسة الإسلام وفلسفته وأخلاقياته ونظرياته العلمية بطريقة جديدة تتناسب مع العصر وتطوره ، حتى تستطيع أن تقف فلسفة الإسلام وأخلاقياته فى وجه الفلسفات المادية المعاصرة ، وأن تثبت بالأدلة العلمية والعملية حضارة الاسلام وتطوره وتميزه وضرورته ، وإثبات أنه دين الفطرة والسلام والأمان وملاءمته لكل زمان ومكان .

كان المفروض من التطوير أن يخرج الأزهر من عزلته عن العالم ، وأن ينفتح به على آفاق متنوعة جديدة تتناسب مع ما يحتاج إليه العالم الاسلامى بالفعل : بعد أن وضعته الظروف السياسية التي يمر بها فى هذا العصر فى موضع الاختبار ، حتى يستكمل بالإسلام وفكر الإسلام أسباب تحرره ونهضته والارتفاع بمستوى معيشته ليستطيع بالإسلام وبالفكر الإسلامى أن يقضى على الثقافة

الاستعمارية التى استطاع الاستعمار فى فترة استعماره للعالم الإسلامى أن يلون بها أفكار أهله وعقائدهم ووضع بها فى نفوسهم موازين جديدة وقيما جديدة حاول بها أن يباعد بينهم وبين الاسلام .

وقد قلنا أن الاستعمار والاستشراق قد استطاع فعلا أن يقنع الكثيرين بأن الاسلام مجرد عبادة وقربى إلى الله وفناء فى الله ، وأن العمل للحياة شىء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض مع الدين .

المفروض فى التطوير أن ينقى العقيدة مما شابها من خرافات وأضاليل وأن يبعد المسلمين عن الإسرائيليات ، وأن يعد العالم الدينى العام المثقف الواعى . الخبير فى الدعوة أو التجارة أو الصناعة أو التعليم أو الصحة ، المتخصص فى عمل من أعمال الخبرة أو الانتاج التى تحتاج إليها نهضة المسلمين فى كل البلاد .

وحتى لا يضيع الأزهر بين الذين أنكروا التطوير أساساً ورفضوه وبين الذين فهموه فهما خاطئا فانحرفوا به عن مساره وطريقه الصحيح، فإنى أقترح ما يأتى لإمكان النهوض بالأزهر وتطويره تطوراً صحيحاً ، والإفادة من هذا التطوير الذى قصد به الإصلاح ولم يصل به بعد إلى هذا الإصلاح :-

أولا : بالنسبة للتعليم الإعدادى والثانوي يجب ، أن يتم تعديل مناهج الدراسة واختصار المواد إلى الحد الذى لا يرهق الطالب ، ووضع حوافز تشجيعية للطلاب للإقبال على هذا النوع من التعليم ، كذلك ضرورة إعادة مكاتب تحفيظ القرآن الكريم والاهتمام بها وامتحان الطلاب فى القرآن الكريم كله إمتحاناً حقيقياً .

ويمكن تقسيم حفظ القرآن على سنوات الدراسة الابتدائية وامتحان الطلاب فى أجزاء منه كل عام فى الاعدادي والثانوي وكما قلت : مع ضرورة

وضع حوافز تشجيعية مالية وأدبية، والتوسع في إنشاء المعاهد الدينية الاعدادية والثانوية في كل المحافظات

ثانيا : بالنسبة للكليات يجب الالتزام بالمناهج الموضوعة بكل فرقة دراسية وتكليف الأساتذة بتأليف الكتب طبقاً لهذه المناهج . على ألا يبدأ تدريسها إلا بعد عرضها على مجلس القسم ليقرر مدى مطابقتها للمنهج من عدمه ، ويضع تقريراً بذلك يرفع إلى مجلس الكلية ليقر تدريس الكتاب أو عدم تدريسه .

ولا يلزم من تدريس كتاب لأحد الأساتذة بفرقة من الفرق ضرورة أن يكون هو شخصياً القائم بتدريسه . على أن تكون الأسئلة التي يمتحن فيها طلاب الفرقة مرتبطة بالمنهج ارتباطاً وثيقا .

ويمكن اختيار الكتاب المطلوب تدريسه ، بالمفاضلة بين كل ما ألف في المادة لتقرير أفضلها كل عام . ولا مانع من منح صاحب المؤلف المختار منحة حافزة . ويتم طبع وتوزيع هذا الكتاب عن طريق الجامعة منعاً للاستغلال . ويجب ربط الطالب بالأستاذ طوال العام الدراسي ، وذلك عن طريق تكليفه بأبحاث شهرية يمنح عنها درجات أعمال السنة التي ينبغي أن تعود لتعود الكلية مكانتها بين طلابها .

كما يجب العناية بالتدريب في كل قسم من أقســـام الكلية ، ويوزع هذا التدريب على مدار العام الدراسي كرابط يربط الطلاب بالدراسة لتكون مادة التدريب اجبارية يتقرر على أساسها انتقال الطالب أو رسوبه .

ويكون نوع التدريب في كل قسم حسب طبيعة الدراسة فيه فالتدريب بقسم الدعوة كما هو مقرر بمنهج التدريس ، يكون بالمساجد وفي المنشآت الصحية ذات الحاجة إلى الدعوة الإسلامية .

ويمكن أن يتم تدريب طلاب الشعب الأخرى بالمساجد أيضاً أو بالتدريس في المعاهد الدينية أو المدارس الإعدادية والثانوية .

هذا بخصوص المناهج والتدريس بالنسبة لكلية أصول الدين خاصة والكليات النظرية عموماً . وإن كنت أرى وضع حوافز مالية لطلاب شعبة الدعوة والإرشاد لحفزهم على مواصلة الدراسة بها وعدم الهروب منها خشية أن يتم تعيينهم أئمة بالمساجد .

لذلك : ولما كان الأزهر قد أنشىء لتكون وظيفته الأساسية الدعوة إلى الله ونشر الثقافة الإسلامية فى الداخل والخارج . كان لا بد من تشجيع الإقبال على الكليات التى تخرج هؤلاء الدعاة والاهتمام بها ، خصوصا بعد أن أصبح من حق الطالب الأزهرى الحاصل على الثانوية الأزهرية أن يلتحق بالكليات العملية ليتخرج منها طبيباً أو مهندسا أو محاسبا .

وإذا جاز لبعض المعاهد العلمية أن تعطى حوافز مادية لتشجيع الطلاب على الالتحاق بهذه المعاهد لحاجة الدولة إليهم . كما يحدث بالنسبة للمعاهد الفنية العسكرية التى تتكفل بتعليم الطلاب مجانا وإعطائهم مرتبات شهرية طيلة مدة الدراسة ، عدا الانفاق عليهم من مأكل ومشرب وخلافه ، وذلك لحاجة الدولة إلى هذه التخصصات، وما تعطيه بعض الوظائف لموظفيها من بدلات ومنح مالية، ووضعهم على درجات خاصة وسرعة ترقيتهم نظير ما يبذلونه من جهد، أو لأهمية هذه الوظائف فى الدولة مثل : كادر القضاء ، والجيش ، والجامعات ، وخلافه . فإنه أصبح من المحتم خصوصا فى هذه الأيام التى طغت المادة فيها على كل شىء أن تتآلف قلوب طلاب الأزهر بتشجيعهم على الإقبال على هذه الدراسة والعمل

بوظيفة الامامة ، أو الوعظ التى نفروا منها وعملوا كل ما فى وسعهم للهروب منها . حتى أصبحت كليات الأزهر الأصلية تكاد تكون مقصورة على ذوى العاهات ومن وقفت أمامهم اللوائح والنظم فمنعتهم من الالتحاق بغيرها . بل أصبح أساتذة هذه الكليات ينفرون من إلحاق أبنائهم بها ، وفضلوا عليها الكليات الأخرى العملية على اعتبار أن المستقبل لها والأعمال متفتحة أمامها أو (هكذا يقولون) .

ماذا لو يتكفل الأزهر بالانفاق على الطلاب الذين تعدهم الجامعة لوظائف الامامة ، وأعاد لهم المساعدات المالية الشهرية التى كانت تمنح لكل طلاب الأزهر فى الماضى، وتكفلت الجامعة بصرف الكتب الدراسية لهم بالمجان .

أعتقد انه لو تم ذلك فسيكون هناك إقبال منقطع النظير على هـــذه الكليات وهذه الأقسام بالذات .

بل أرى أن يتم الاتفاق مع وزارة الخزانة على منح الأئمة والوعاظ الدرجة السادسة بعد خروجهم لتشجيع الاقبال على هذه الوظائف ،وحتى يمكن للإمام أن يعيش عيشة كريمة وأن يظهر بالمظهر اللائق به كرجل دين .

ولقد حدث أن وافقت وزارة الخزانة على منح خريجى معهد التعاون نظام السنتين (بعد الثانوية العامة) الدرجة الثامنة وأقدمية سنتين كاملتين فى هذه الدرجة مع أن الحاصلين على الثانوية العـامة يعينون بالدرجة التاسعة ، بدون أى أقدميات وذلك لحاجة الدولة إلى هذا النوع من التخصص .

ومصر بل العالم الاسلامى كله فى حاجة ماسة ، خصوصا فى هذه الأيام

التى غلبت فيها المادية وانتشر فيها الإلحاد، إلى المتخصصين فى الدعوة الإسلامية وبأعداد كبيرة .

ولقد رأينا كيف أن عمر رضى الله عنه كان يختار الوعاظ الذين يرسلهم للأمصار المفتوحة ممن لا تقل شخصياتهم عمن عهد إليهم الولاية على بيت المال، فأرسل عبد الله بن مسعود معلما[1]، وأرسل معاذاً وعبادة وأبا الدرداء إلى الشام بناء على طلب يزيد بن أبى سفيان[2] .

وهكذا اهتم الخلفاء بالوعاظ واختاروهم من أعلم النـــاس وأفقههم فى الدين .

ولو قيل إن هؤلاء كانت فيهم رغبة طبيعيـة فى تعلم الدين وتعليمه ؟. حيث انه من الواجب أن نوجد نحن هذه الرغبة ما دامت غير موجودة، ولو كان ذلك عن طريق الاغراء المادى .

ولقد كان الرسول ﷺ يعطى بعض الداخلين فى الاسلام حديثاً بسخاء لتتآلف قلوبهم للاسـلام، وجعل الله لهم حقا فى الزكاة، فكيف بنا ونحن فى أشد الحاجة إلى هؤلاء لا لمصلحتهم هم، وإنما لمصلحة الإسـلام والدعوة الإسلامية والمسلمين ..

موقف الاستعمار الانجليزى من الأزهر والتخطيط للقضاء عليه :

والحقيقة أن التـــاريخ لا ينسى موقف الأزهر الوطنى فى سنة ١٩١٩ ومناهضته للاستعمار الأنجليزى ووقوفـــه فى وجه هذا الاستعمار وقفات نابعة من العقيدة الدينية التى كان لها أثرها فى اشتعال الوعى الدينى والوطنى .

ومن هذا التاريخ تآمر الاستعمار على الأزهر وفكر المستعمرون فى إضعاف

---

(١) راجع فجر الاسلام ص ١٥١، ١٥٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٨٨ .

سلطانه وتغيير وضعه ، حتى تستقر أقدامهم فى مصر خصوصاً وقد استقر فى نفوسهم أن قوة الأزهريين مستمدة من عقيدتهم الدينية .

ولذلك بدأ الإستعمار يضع العقبات التى تعوق الأزهر عن أداء واجبه ، ولذلك رأينا أحد ساسة الانجليز يقول : (إن قدم إنجلترا لا تستقر فى مصر مادام الأزهر يدرس هذا الكتاب) : يعنى القرآن الكريم[1] .

ومن هذا التاريخ أيقن الانجليز أن العقيدة الدينية هى مصدر تميهم وهى أقوى العوامل لمقاومة الاستعمار لهذا عنوا بدراسة حالة الأزهر، ووضع التخطيط الذى يغير من نظامه حتى يخضعوه .

وقد ربط اللورد كرومر فى كتابه (مصر الحديثة). الاحتلال وتنفيذ سياسة الاستعمار بإضعاف الأزهر وتغيير نظامه حتى يطغى عليه منهج التعليم المدنى . وينصرف عنه الناس بحجة توحيد التعليم ، والهدف من هذا أن يقع الأزهر تحت خضوع إحدى الوزارات فيتمكن المستشار الانجليزى (دانلوب) الذى كان يسيطر على التعليم المدنى من إضعاف الأزهر بواسطة الحكومات السابقة الضعيفة ، وقد رسم المستعمرون لذلك سياسة لحمل الأزهر على الاندماج فى وزارة المعارف : ويقول اللورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة[2] .

إذا تعذر إندماج الأزهر فى الوزارة فلابد من رعاية أمور ثلاثة فى معاملة الأزهريين :—

١ — حرمان الأزهريين من وظائف الدولة الكبرى مخافة استغلال عقيدتهم فى مجال وظيفتهم .

---

(١) راجع بحث (أهداف الرسالة الإسلامية وبيان دور الأزهر فى نشرها) للمرحوم الشيخ كامل محمد حسن المؤتمر الخامس ص ٤١٠

(٢) المرجع السابق ص ٤١٥

٢ — عدم تسوية المؤهلات الأزهرية بالمؤهلات المدنية في القيم المادية حتى ينصرف الناس عن الأزهر .

٣ — إضعاف السلطة التي تربط بين التعليم الديني والتعليم المدني ، وقد كان من أثر ذلك إلغاء التعليم الديني بالمدارس الالزامية حينذاك ، ولما قام الخيرون من أهل الغيرة بإنشاء جمعيات لتحفيظ القرآن سلطوا عليها وزارة الصحة لتغلقها بحجة أن أمكنتها غير صحية .

ولا أقول ذلك لأني أرى أن التطوير الحالي هو تنفيذ لسياسة الاستعمار، أو قصد به أساساً إلغاء الأزهر .

ولكنني أرى فيما أطالب به من إدخال المواد الدينية بالمدارس والتي تحدثت عنها في الفصل السابق عند حديثي عن التعليم في مصر ،وما عرضته من ضرورة الاهتمام بمكاتب تحفيظ القرآن ورعايتها والتوسع في إنشاء المعـــاهد الدينية في جميع المحافظات، مع الاهتمام بتحفيظ القرآن على أساس منح حوافز مادية وأدبية ، والتقليل من عدد المواد التي يدرسها طلاب المعاهد الأزهرية وصولا إلى ما نبغيه من نهضة الأزهر وإصلاحه وتطوره تطورا حقيقيا لمصلحة الإسلام والمسلمين خصوصا إذا أضيف إلى ذلك ما إقترحته من التزام المناهج وتدريسها والتشجيع على التأليف بالنسبة للأساتذة ، وربط الطلاب بالدراسة وتشجيع الإقبال على الكليات التي تخرج الأئمة والوعاظ وغير ذلك من مقترحات ضمنتها الفصل السابق .

وإلا فنحن بهذا التطوير نكون قد نفذنا فعلا خطة دانلوب وتخطيط كرومر وتنفيذ سياسة الاستعمار بإضعاف الأزهر وتغيير نظامه حتى ينصرف الناس عنه .

يقول الدكتور محمد البهى[1]: الأزهر فى رأيى هو قمة المؤسسات الإسلامية فى العالم الاسلامى التى كانت تستطيع مواجهة الصليبية الاستعمارية والماركسية الالحادية، وكانت تستطيع أيضاً أن تقدم للحياة الإسلامية فى مصر ووراء مصر أكبر العون فى حل المشكلات التى تبدو فى حياة الأسرة الاسلامية و لاقتصاد الإسلامى والتوجيه الاسلامى . وبذلك كان يمكن أن تكون هناك قوة فكرية روحية ثالثة فى الشعوب الإسلامية تواجه القوتين العالميتين الرئيسيتين اليوم : الصليبية الغربية والشيوعية الدولية ، ولا عوض عن الأزهر . وكل يوم يمر عليه فى أزمته يزيد فى ضعف قيمته ويقلل من الانتفاع به فى تكوين تلك القوة الثالثة التى كان يجب أن يكون لها شأن اليوم.

ويقول الدكتور البهى[2]: « إصلاح الأزهر ليس رفع مرتبات ولا إعادة طبع الكتب المتأخرة ولا إقتباس نظام وزارة التربية والتعليم ، ولا ملاحقة هذه الوزارة بطلب مشورتها والافادة من خبرة رجالها . ولا بزيادة كم العلماء والطلاب .

إصلاح الأزهر فكرة وتنفيذ رسالة . هى فهم الإسلام وحسن عرضه واللاقاة به لما يواجه المسلم من مشاكل . وهى رسالة فريدة لا يمكن لمؤسسة تعليمية أخرى أن تنهض بها ، ولذلك لا تجدى مشورة وزارة التربية والتعليم « فى شأنها »

والحقيقة أن الإسلام فى غده يتأثر قوة وضعفاً بقوة الأزهر وضعفه اليوم وبعد اليوم .

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٤٩٤

(٢) المرجع السابق :

الأزهر مسئول عن ركود الفكر الإسلامى وعدم قيامه بالدور الأساسى فى الحياة المعاصرة، مما سبب ظهور الفكر الغربى الاستشراقى والمادى الماركسى وانتشارهما، فأعطى بذلك فرصة لكثيرين من المثقفين أن يقبلوا هذا الفكر المادى الالحادى، دون أن يجدوا فى ثقافتهم التى يحملونها وفى أنفسهم ما يناقش هذا الفكر حتى يكون قبولها نتيجة إقتناع و تأمل .

لقد استطاع الاستعمار أن يعزل الإسلام عن الثقافة عزلا تاماً إذ حين استطاع أن يعزل الأزهر عن الحياة الجارية ، وأصبح العالم كله اليوم فى حاجة ملحة وسريعة إلى الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامى الحقيقى ، حتى يقوم بالدور الايجابى فى الحياة المعاصرة ويملأ هذا الفراغ الموجود بالاصلاح الدينى حتى لا يظل الوعى الاسلامى والفكر الإسلامى مجرد شعار يحمله المسلم فقط كعنوان له ، ولا يدرك من إسلامه إلا أنه ينتسب إلى الجماعة الإسلامية فحسب .

إن الجماهير الاسلامية فى كل مكان فى بقاع الأرض ، عمالا وفلاحين ومثقفين فى حاجة إلى حل مشاكلهم من طريق التوجيه الاسلامى والتعليق للسمى بالسنيح له فى هذه الحياة ، حيث أن هذه المشاكل ترتبط ارتباطا كبيراً. وتشتبك جذورها اشتباكا قوياً مع نوع الايمان الذى يسكن فى نفوس هذه الجماهير التى ثبت أن الاتجاهات الحديثة والإدارات الجديدة التى أنشئت لحل مشاكلهم خصوصا ما يتعلق منها بحياة الفلاح والعامل وحياة الجماهير على العموم . كالارشاد الاجتماعى أو الخدمة الاجتماعية أو التوجيه الريفى أو ما شاكل ذلك من تنظيمات قد أثبتت عدم فاعليتها وحدها دون مساعدة العامل الدينى والنوعية الدينية التى يقوم بتحمل مسئوليتها ، الأزهر والفكر الاسلامى الصحيح الذى يحميه هذا الأزهر ويدافع عنه .

لذلك كله دافعت عن التطوير وطالبت بمراعاة تنفيذه بكل دقة وأمانة .
وأرجو من الله أن يوفق القائمين على الأمر بالأزهر للوصول بهذا التطوير إلى الغرض المرجو والهدف الصحيح .



والله الموفـــق .....

المراجـــع

القرآن الـكريم

إسم الـكتاب (أ) المؤلف

إمتاع الاسماع بمـــا للرسول من الابناء والحفدة والمتاع
تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

إعجـــاز القرآن عبد الـكريم الخطيب . دار الفكر العربي ١٩٦٤

آراء حرة في الدين والحياة فتحي رضوان . كتاب الهلال ديسمبر ١٩٦٩

أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة رفيق العظم (بك) مطبعة هندية بالموسكي ١٩٤١

الإسلام نظام إنساني د. مصطفى الرافعي . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الأحكام السلطانية والولايات الدينية الإمام الماوردي مطبعة الحلبي ١٩٦٦

الإمامة والسياسة ابن قتيبة . مطبعة الحلبي ١٩٦٩

الأعمال الـكاملة لعبد الرحمن الـكراكبي محمـد عمارة الهيئة المصرية العامة للتأليف النشر ١٩٧٠

الإدارة الإسلامية في عز العرب محمد كردعلي . مطبعة مصر ١٩٣٤

الإتجاهات الوطنية الأدب المعاصر د محمد محمد حسين . مكتبة الآداب

الأداة الحـكومية ابراهيم مدكور . ومريت غالي . دار الفصول ١٩٤٥

الأزاهير المضمومة في الدين والحـكومة الشيخ أمين ظاهر خيرالله مطبعة هندية ١٩١٩

الأزهر تاريخه وتطوره مطبوعات وزارة الأوقاف وشئون الأزهر ١٩٦٤

(ت)

الترغيب والترهيب الإمام المنذري . إدارة الطباعة الحكومية ط ١

تيسير الوصول إلى جامع الاصول من حديث الرسول العلامة الشيباني . المكتبة التجارية ١٢٤٦ هـ

اسم الكتاب	المؤلف
(ت)	
تاريخ الخلفاء	الإمام جلال الدين السيوطى ط ٢ ١٩٠٤ م
تاريخ عمر بن الخطاب	الإمام ابن الجوزى . المكتبة الجديدة
تاريخ التشريع الإسلامى	الشيخ عبد الوهاب خلاف . ط٢ ١٩٤٢ م
تاريخ الإمام محمد عبده	الشيخ محمد رشيد رضا ـ مطبعة المنار ١٩٣١ م
تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والدينى والاجتماعى	د حسن ابراهيم حسن ط ٢ ١٩٤٢ م
التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية	د أحمد شلبى مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦
التاريخ السياسى للدولة العربية	د عبد المنعم ماجد الأنجلو المصرية ١٩٥٦
تفسير ابن كثير	الإمام اسماعيل بن كثير المكتبة التجارية ١٩٣٧
تاريخ التمدن الإسلامى	جورجى زيدان . دار الهلال بمصر ط ٢
الجامع الصغير	الحافظ السيوطى . البابى الحلبى وشركاه
الجهاد	أبحاث المؤتمر الرابع لمجمع البحوث ١٩٦٨
(ح)	
الحكومة والدولة فى الإسلام	د. أحمد شلبى . النهضة المصرية ١٩٥٨ م
حياة الصحابة	الشيخ محمد يوسف الكاندوهلى . ط٢ ١٩٦٥م
حضارة العرب	جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر ١٩٥٦ م
(خ)	
الخراج	الإمام أبى يوسف . المطبعة السلفية ١٩٨٢
الخلق الكامل	محمد أحمد جاد المولى (بك) المطبعة العثمانية المصرية ١٩٣٦
الخلفاء الراشدون	عبد الوهاب النجار . مكتبة وهبة ١٩٦٠
الخلفاء الراشدون (دولة الإسلام الأولى)	د أحمد مجاهد مصباح الطباعة المحمدية ١٩٧٠ م
الخليفة المفترى عليه (عثمان بن عفان)	الشيخ محمد الصادق عرجون . القومية للطباعة والنشر

(د)

دولة القرآن طه عبد الباقي سرور دار الفكر العربي بمصر
ديمقراطية القومية العربية د. محمد عبد الله العربي . وزارة الثقافة والإرشاد القومي . ط٢

الدعوة إلى الإسلام توماس أرنولد . ترجمة د. حسن إبراهيم وآخرين النهضة المصرية

الدعوة الإسلامية لتحقيق السعادة وإقرار السلام بحث للدكتوراة . مقدم من د. أحمد أحمد غلوش . كلية أصول الدين

الدولة العربية الإسلامية د. علي حسن الخربوطلي عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠
روح الإسلام أمير علي ترجمة أ. أمين محمود الشريف . مكتبة الآداب ١٩٦١
رسالة التوحيد الشيخ محمد عبدة . مكتبة الجامعة الأزهرية ١٩٦٦
رسائل الإصلاح الشيخ محمد الخضر حسين . مطبعة الهداية الإسلامية ١٩٣٩ م

(ز)

زاد المعاد من هدى خير العباد ابن القيم الجوزي . المكتبة الحسنية بمصر ١٩٢٨ ط ١

(س)

سيرة الرسول محمد عزة دروزة . المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٤٨
السيرة النبوية ابن هشام . تحقيق مصطفى السقا البابي الحلبي ١٩٥٥ م
السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ابن تيمية . مطبوعات دار الشعب ١٩٧١

السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية عبد الوهاب خلاف المطبعة السلفية ١٣٥٠
السياسة المالية في الإسلام عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربي ط١

(ش)

الشيخان د. طه حسين . دار المعارف بمصر ط ٤ ١٩٦٩

(هـ)

الصديق أبو بكر — د. محمد حسين هيكل

(ع)

عبقرية محمد — عباس العقاد . دار الكتب الحديثة ١٩٦٩

عبقرية الصديق — عباس العقاد . مطبعه دار المعارف ١٩٤٣

عبقرية عمر — عباس العقاد . مطبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٦٨

عبقرية الإمام علي — عباس العقاد . دار الهلال

عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة — د محمد سليمان الطماوي . ط ١ . دار الفكر العربي

عصر الخلفاء الرشدين — المرحوم محمد علي فياض . ط ١ ١٩٥٠

العرب (تاريخ موجز) — د. فليب حتى . دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٦

عصر الراشدين — د عبد الحميد بخيت الانجلو المصرية ط ١ ١٩٦٣

(ف)

فتوح البلدان — الإمام البلاذري . طبع شركة العربية ١٩٠١

فجر الإسلام — أحمد أمين . النهضة المصرية ط ٧ ١٩٥٩

الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي — د. محمد البهي . مكتبة وهبة

الفاروق عمر — د محمد حسين هيكل . مطبعة مصر . ١٩٦١

الفتنة الكبرى (عثمان) — د طه حسين . السابعة دار المعارف بمصر .

(م)

مقدمة ابن خلدون — المكتبة التجارية الكبرى

مع الله — محمد الغزالي . الأولى . دار الكتب الحديثة القاهرة

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — أبو الحسن الندوي دار الكتاب العربي ١٩٥١ ط ٢

مقدمة في أصول النظم الاجتماعية والسياسية — د أحمد عبد القادر الجمال . النهضة المصرية ١٩٥٨

ما يقال عن الإسلام — عباس العقاد كتاب الهلال ديسمبر ١٩٦٦
مذكرات فى التاريخ الإسلامى — محمد حبيب أحمد مطبعة العلوم ١٣٥٢ هـ

(ن)

نظريه الاسلام وهديه — أبو الأعلى المودودى. دار الفكر بدمشق
نظام الحكم فى الاسلام — د محمد يوسف موسى دار المعرفة ١٩٦٤
نظام الحكم فى الاسلام — د محمد عبد الله العربى دار الفكر بيروت
نشأة الدولة الاسلامية — أمين سعيد البابى الحلبى ط ١
النظريات السياسية الاسلامية — د. محمد ضياء الريس دار المعارف بمصر ط ٤

(و)

الوحى المحمدى — السيد محمد رشيد رضا ط٢ ١٣٥٢هـ

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٠٨ / ٨٦

مؤسسة الوفاء للطباعة